
البطل الفاتح

البطل الفاتح إبراهيم
وفتحه الشام
١٨٣٢

بقلم

داود بركات

عني بنشره

بركات بركات

المطبعة الرحمانية بمصر

بالخرنفش رقم ٣٥ تليفون ٥١٥٢٢



المؤلف

إهداء الكتاب

إلى مصر العزيزة التى أحبها داود من صميم قلبه فضمته هى فى صميم قلبها

إلى أبطال مصر من عهد محييها محمد على باشا إلى عهد حفيده فؤاد الأول — أمد الله فى عمره —

إلى أصدقاء داود وصحبه واخوانه

إلى روح داود التى أفرغ منها فى كل سطر من هذا الكتاب نفثة

أهدى هذه الصفحة المجيدة من تاريخ البطولة المصرية

بركات

لمحة من حياة المؤلف

رحمه الله

في صباح اليوم الثامن من شهر ديسمبر سنة ١٨٦٧ ولد داود بركات في بلدة « يحشوش » إحدى القرى الكبيرة في فتوح كسروان في لبنان . وتلقى وهو في عهد الطفولة مبادىء العربية والسريانية والايطالية واللاتينية على عمه المرحوم الخوري يوسف بركات الذي كان من حاملي ألوية العلم والأدب . ودخل بعد ذلك مدرسة المحبة في بلدة عرامدن – وهي مدرسة قديمة كانت تتقن تعليم اللغة العربية على الخصوص . ثم انتقل منها إلى مدرسة الحكمة في بيروت — وهي المدرسة المشهورة بتخريج العلماء والكتاب والشعراء حتى يكاد لا يخلو قطر في العالم من خريجيها — فكان داود من أنبغ تلامذة العلامة المشهور المرحوم عبد الله البستاني

ولما أكمل دروسه — وهو لا يزال في سن المراهقة — تولى التعليم في مدرسة « بير الهميت » من المدارس المحلية في لبنان ولكن المحيط الأدبي كان في نظره ضيقا فهجر لبنان وجاء إلى مصر حيث التحق باحدى الوظائف الحكومية في مديرية الغربية وظل فيها سنة تقريبا ثم انتقل بعدها إلى التدريس في مدينة زفتى

ولما كان يميل بطبعه إلى الكتابة فقد كان ينشر فى الصحف بين حين وحين بعض الكتابات فى شتى الموضوعات إلى أن حدثت فاجعة فى زفتى فالتهمت النار منزل أحد الأعيان . عندئذ أثرت الحادثة بنفسه فكتب عنها إلى جريدة المحروسة مقالا أعجب به صاحبها وكان ذلك سببا لاشتراك الفقيد فى تحريرها من مدة الزمن .

ولم يطل عمله فى المحروسه فأنشأ مع صديقه الشيخ يوسف الخازن وابن عمه الأستاذ ابراهيم بركات جريدة الأخبار التى راجت فى ذاك العهد رواجا كبيراً

وفى سنة ١٨٩٩ انتقلت الاهرام إلى القاهرة فتولى رآسة تحريرها وظل فيها إلى أن وافاه القدر المحتوم فى ٤ نوفمبر سنة ١٩٣٣ فى منتصف الساعة العاشرة صباحا .

هذه لمحة موجزة لحياة الفقيد ولو حاولنا التبسط فى الكتابة عنها من الوجهة الأدبية والخيرية والعلمية الخ لملأنا مجلدا بأكمله .

رحمات الله عليه

فهرســـت

صفحة

ملاحظة — سقط عنوان الفصل الحادي عشر عند ترقيم الفصول دون أن يكون هناك أي مساس بالمعنى والتاريخ . ولكنه خطأ مطبعي . وطالما يريد الطابع ما لا يريد الكاتب

دمعة وعهد

اى داود ...

ظننتنى وأنا ابكيك حولا كاملا أن الدمع قد يطفى شيئاً من حر قلبى ، ولكن الظن خاب وما كان من نار الحزن إلا أن زادت سعيراً . والدمع ياأخى يجلب الدمع

هاهو العام يمضى ونحن نعيش بدونك .

نتلمسك فى البيت صباحا فاذا البيت كئيب يندبك . ونترقبك فى العش ليلا فاذا بالعش خال إلا من الزغاليل تصىء بعد فقد عميدها ، وتميل إلى بعضها ليصعد كل منها مع الآخر زفرة تتصاعد وتعلو ثم تعلو إلى أن تبلغ السماء حيث أنت ، ولكنها بعد ذلك تضمحل وتخفت وتتبدد فى اللانهاية وأنت ساكن ساكت . وما عودتنا من قبل صمتاً وإعراضا .

أخى داود

ماغيبك الجدث ولا القبر طواك ، بل أنت ماثل أمام العين وستظل ماثلا مادام فى العين نور وفى القلب خفقة

وما أزال ولن أزال اترسم خطاك متخذاً طريق طريقك ومقتفياً فى الباقى من حياتى أثرك إلى أن يجمعنى الله بك

وكانت فى حياتك لى عظات وأنت اليوم أوعظ منك حيا

ما نسيت قط يا اخى عندما كنت أخلو إليك فى البيت أو فى الطريق او المكتب أو أى مكان آخر ما كنت تطلعنى عليه مما يجول فى صدرك من شتى الموضوعات والرغبات . وتحدثنى عما ترتاح إليه نفسك فى مختلف مناحى الحياة وما يضيمها ويزيد فى متاعبها .

وإن أنسى لا أنسى رغبتك فى أن يكون تاريخ « البطل الفاتح ابراهيم » مجموعاً فى سفر واحد بعد أن كنت قد نشرته فصولا فى الأهرام

وها أنا الآن — وقد ربيتنى كما ربيتنى — أبر بوعدى لك بتنفيذ رغبتك وأجمع — على قصورى — هذا التاريخ المجيد فأجعله خير أكليل أضعه على قبرك فى مثل هذا اليوم الذى شاءت العناية أن تختطفك فيه منا — ويا ليت الناموس الطبيعى كان قد لها عن تدوينه فى حياتنا وفى سنى العمر —

نعم ها أنا أسجل بنشر هذا التاريخ حبك لمصر وتفانيك فى خدمتها . فلعلى بذلك أكون قد قمت بشىء من واجبى نحوك وواجبك نحو وطنيك : لبنان ومصر خاصة والشرق عامة

فتقبل يا أخى داود مع الدمع الذى اذرفه على قبرك ماقد فعلت تنفيذاً لرغبتك وارقد بسلام ياشقيق الحبيب

وإلى الملتقى

صباح ٤ نوفمبر سنة ١٩٣٤

بركات بركات

مقدمة الكتاب

روحان تآخيا فى الحياة ولم يفصم الموت تآخيهما : أنطون الجميل وداود بركات

وها هو الأستاذ الكبير أنطون الجميل بك يفرغ من عواطف نفسه تحية إلى داود فى تاريخ « البطل الفاتح ابراهيم »

فهل هناك خير منها مقدمة للكتاب؟

داود بركات . . .

حال الحول على وفاته . ولا يزال اسمه ملء الأفواه والأسماع ولا تزال الحسرة عليه ملء الجوانح والقلوب .

كلٌّ يذكره بحسنة من حسناته ، حسب الجانب الذى عرفه من جوانب حياته :

فالكثيرون يذكرون فيه الصحفى اللبق والكاتب الفياض القريحة

والكثيرون يذكرون فيه الصديق الأمين والخل الوفىّ .

والـكثيرون يذكرون فيه رجل النجدة والمروءة والهمة القعساء

أما أنا فأذكر فيه كل ذلك ، لأنى عرفته من جميع هـذه النواحى مدة ربع قرن : فقد كان أول من قرأت من الصحفيين الذين يعالجون الموضوعات القومية العامة . وقد كان لى طول هذه السنين الصديق الودود . بل الأخ العطوف . ولطالما خبرت غيرته ومرؤته واستعداده لتلبية من يستنجده .

عرفت فيـه ذلك . كله فـكان حزنى عليه بقـدر ما عرفت وماخبرت ، وكان حزناً مضاعفاً لأنه اشترك فيه العقل والقلب. وما كانت الحوادث فى كل يوم من هـذه السنة إلا لتجدد ذكراه وتثير عاملا جديداً على الأسف عليه

وإذا كنت قد دُعيت اليوم لـكتابة هذه السطور فى صدر هذا الـكتاب فقد تلقيت هذه الدعوة بالشكر والحمد ، لأنها اتاحت لى الفرصة لأقوم بواجب الذكرى وواجب الوفاء ، فأظل ذاكراً وفياً له بعد الممات ، كما كان لى وكنت له فى الحياة .

* * *

هذا الـكتاب حسنة من حسناته . اودعه شيئاً من حبه لمصر ، وطنه المختار ، ومن إعظامه لبناة مجده ورجالاته ، كما

أودعه شيئاً من حبه للبنان وطنه الأول وتعلقه بتقاليده وعاداته . فلقد طالما سعى وكتب لتوثيق عرى الوداد والولاء بين القطرين الشقيقين . ولم يكن أحق من (ابراهيم الفاتح) فى تمثيل القطرين فى شخصه . فقد كان سيفه صلة الوصل بينهما ، كما كانت أقلام الكتاب فيما بعد موثقة لهذه الصلة . وإذا كان تمثاله قد قام فى قلب العاصمة المصرية يذكر بفتوحه وانتصاراته فان له فى قلوب الناس فى الديار الشامية تمثالا يذكر بعدله وإصلاحاته .

كان ابراهيم من أبرز الشخصيات فى تاريخ الشرق العربى الحديث ومن أبسل قواده . قاد الجيوش المصرية المظفرة فى حروب الوهابيين والمورة والشام . ولعل فتحه الشام كان من أكثر أعماله توفيقاً وأبعدها اثراً . فقد سار فاتحاً . والنصر معقود باعلامه . من غزة إلى عكا إلى دمشق إلى حمص إلى حلب . وتخطى تخوم سورية إلى آسية الصغرى من اطنه إلى طرسوس إلى ازمير فقونيه . وهو يهزم أو يأسر جيشاً بعد جيش حتى أصبح يهدد الاستانة عاصمة السلطنة العثمانية

هـذا هو الفتح المجيد الذى رأى المؤلف . رحمه الله ، أن يدون حوادثه ووقائعه ونتائجه السياسية والاجتماعية فى فصول متتالية نشرها منذ ثلاث سنوات فى « الاهرام » لمناسبة مرور مائة عام على فتح الشام

كان الفقيد من أغزر الكتاب مادة وأجودهم قريحة وأخصبهم انتاجا . ولو قام من يجمع الفصول والمقالات الشائقة التى دبجتها يراعته ، فى مختلف الموضوعات . فى «الاهرام» وفى غيرها من الصحف مدة ثلث قرن ، لتوفر لديه مجلدات ضخمة فى السياسة والعلم والأدب والاجتماع . ولكن فصوله هذه التى ضمتها دفتا هذا الكتاب قد تكون خليقة بالنشر قبل سواها ، لعلاقتها الروحية الوثيقة بما وقف عليه حياته من خدمة القطرين اللذين جمع ابراهيم باشا بينهما بروابط سياسية تمكنت السياسة من فصمها بعد حين ، وبروابط أدبية ومعنوية لم يكن مرور قرن كامل ليضعفها .

ما حدثت الفقيد يوما فى وجوب جمع بعض آثاره العلمية الا ابتسم معرضاً . أما فصوله المجموعة فى هذا الكتاب عن البطل الفاتح فقد كان يبتسم مرتاحاً الى نشرها ، وكان قد بدأ يأخذ العدة لذلك بنفسه عند ماعاجلته المنية

لذلك أحسن شقيقه الأبر . الاستاذ بركات ، الاحسان كله فى قيامه بهذا العمل وانصرافه الى تنسيق تلك الفصول ونشرها فى هذا الكتاب ، تذكاراً لمن كان له أباً وأخاً : فكان كلاهما باراً باخيه شأن النفوس الزكية

ولا ريب فى ان محبى داود والمعجبين بداود يقدرون لأخيه صنيعه ولعل القراء يمهدون له السبيل لينشر تباعا بعض آثار الفقيد كتاريخ الثورة العرابية ، وتاريخ المسألة المصرية ، وغير ذلك من الفصول والمباحث

أما انا فانى فوق اجلالى لعمله أشكره لأنه مكننى فى ختام العام من ان اضع زهرة الذكرى على ضريح هذا الفقيد العزيز

انطون الجميّل

البطل الفاتح ابراهيم

وفتحه الشام

١٨٣٢

تمهيد

هل ندرى ونحن نمر أمام ذلك التمثال فى ميدان الأوبرا أمام أية قوة من قوات البطولة نمر ؟ وهل نعرف أن هذا التمثال سفر كبير لأجل صفحة من صفحات التاريخ ؟ وهل نعرف أنه يجب علينا أن نقف أمامه ذاكرين وأن نعلم أولادنا من هو صاحب التمثال ، فاذا علمناهم حببنا اليهم البطولة وعلمناهم تاريخ مصر الحديثة بل تاريخها المجيد ؟

أندرى الى أى حد بلغ جهل العامة فقدموا ذكر الحصان على راكبه فيضربون الموعد للقاء عند « الحصان » أو فى القهوة أمام « الحصان » وتعلو الفلاحات الساذجات فوق الكافة فينظرن الى الفارس لا الى الفرس ويقلن اذا ما تحدثن عنه « المادد اصبعه » .

أندرى إلى ما تشير تلك اليد الباطشة القوية ؟؟ إنها تشير إلى الموره وكريد وبلاد اليونان وقد أعجز الباب العالى إخضاعها فندب لها ابراهيم على رأس ١٦ ألف جندى دوخوها ودكوا حصن موسوليغى الحصين الى أن أخذت أساطيل الدول أسطوله بنيرانها من كل جانب وهو راس فى فرضة نافارين

فوقف ابراهيم البطل البطاش والفاتح العظيم ينظر الى ذلك الأسطول الذى كان الثالث فى أساطيل البحر المتوسط يحترق بلا انذار ولا وعيد فدمعت عيناه ولم يفه إلا بكلمة وجهها لأحد رفاقه من الضباط الفرنساويين « أتشترك فرنسا بتحطيم الأسطول الذى بناه مهندسوها » وكان الأسطول مؤلفاً من ٦٣ سفينة حربية و ١٠٠ مركب لنقل الجنود ثم صدر الى ابراهيم أمر أبيه بالعودة برجاله فعاد ولم تستهل سنة ١٨٢٥ ووصلت اليونان بعد عودته الى استقلالها بتألب الدول فى سنة ١٨٢٦

أندرى أن هذا البطل هو الذى صعد فى السودان إلى النيل الأبيض فسمى فى ذاك الحين باسمه كما سمى النيل الأزرق باسم أخيه اسمعيل وكما سميت بحيرة الاوغندا « الاسمعيلية » باسم ابن ابراهيم

وهل ندرى انه هو الذى أخضع بلاد العرب كلها : نجد — بعد أن شتت شمل الوهابيين — والحجاز واليمن وأعاد مفاتيح الكعبة لتركيا ؟

أندرى ونحن ننظر إلى تمثال هذا البطل المغوار والفاتح العظيم أنه تولى حكم مصر السفلى ولم يزد عمره على ١٧ سنة ليمكن والده من السفر الى الحجاز فى سنة ١٨١٣ ، فأظهر من الحنكة والدراية ما كان مضرب المثل

أندرى أنه وهو فتى الاهاب كان يعامله أبوه وهو يعامل أباه النابغة معاملة النظير للنظير حتى خيل للسذج من رجال الدولة الذين يجهلون تاريخه انه ليس ابن محمد على بل هو ابن زوجه تبناه محمد على بعد وفاة ابنه طوسون الذى قاد قبل ابراهيم حملة الوهابيين ومات فى برنبال بالطاعون ولكن مؤرخ محمد على « ادوار جوين » رد هذه الفرية ودفعها فقال ان محمد على تزوج من ثيب غنية لما أظهره فى بلده من البطولة فرزق منها خمسة أولاد ذكور منهم ابراهيم وطوسون واسمعيل وكان مولد ابراهيم فى سنة ١٧٨٩ وقد وصف الذين زعموا

ذلك الزعم بالقحة والسماجة والباطل

حمل ابراهيم علم مصر عالياً من سنة ١٨١٤ الى سنة ١٨٤٠ فما نكس بيده مرة واحدة بل رفرف هذا العلم بيده والنصر معقود بأهدابه فى الجزر اليونانية و بلاد اليونان والصرب وفى افريقيا والأناضول و بلاد العرب وسوريا

واذا كان ابراهيم قد اشتهر بصلابته فى القتال فانه قد اشتهر أيضاً بصلابته فى العدل بين الناس حتى بات الى اليوم مضرب المثل بالعدل فى بلاد الشام التى حكمها ثمانى سنين فلم يكن الحاكم العسكرى فقط بل كان العسكرى المصلح الذى بقيت آثاره هناك الى اليوم ولا يزال الناس يتغنون بعدله الى الآن و يضربون على ذلك الأمثال

وهذا ما حمل بعض الأدباء فى لبنان الى مكاتبة أصدقائهم هنا بأن تؤلف لجنة من المصريين والسوريين لإقامة عيد السنة المئة لاستيلاء ابراهيم على بلاد الشام من حدود صحراء سينا حتى جبال طوروس وابراهيم هو الذى نظر مع والده الى وحدة هذه البلاد فلما تألبت عليه الدول وقررت أن تكون حدود مصر سيناء ، رأى ابراهيم ورأى والده أن تتلقى العلوم فى المدارس المصرية العالية مجاناً طائفة من أبناء تلك البلاد وأن يكتب على شهاداتهم التى ينالونها ما يشعر بذلك لتكون دليلا على عطف مصر و إخائها وظل الحال على هذا المنوال إلى أن كان الاحتلال الانكليزى فقطع هـذه الصلة الروحية بعد أن قطعت الدول الصلة المادية باقامة الحدود التى محاها ابراهيم بسيفه

كثرت أساطير الناس وأقاويلهم عن ابراهيم فاذا لم تكن تلك الأساطير والأقاويل صحيحة فانها تدل فقط على اعتقاد الناس بحكمته وعدله فقد رووا انه لما عزم محمد على على استئناف النضال فى بلاد الوهابيين بعد وفاة ابنه طوسون الذى عقد هدنة مع زعيم الوهابيين ، جمع قواده ورجال الحكم والسلطة و بسط

لهم إرادته و بعد ذلك أمر ببسط إحدى الطنافس الكبيرة فى الدار ووضع فى وسطها تفاحة وقال ان الذى يتناول التفاحة بيده و يقدمها لى دون أن يمس السجادة أوليه قيادة الحملة فأخذ الحاضرون يتطاولون الى التفاحة بلا جدوى الى أن جاء دور ابراهيم وكان قصير القامة فلم يزد على انه تناول طرف الطنفسة بيده وطواها الى أن وصل الى التفاحة فتناولها وأعطاها لأبيه فولاه قيادة الجيش

لا شك فى أنهم يقولون ذلك و يبتدعونه كما ابتدعوا حكاية البيضة وكريستوف كولمب اذ ازدرى حساده بعمله أمام الملك فطلب منهم أن يوقفوا بيضة على رأسها فلما أعجزهم الأمر تناول البيضة وكسر أحد رأسيها فوقفت

و يروى أهل الشام عن عدله أن عجوزاً شكت إليه جندياً أكل تينها اغتصاباً فآتى بالجندى وسأله فأنكر فقال للمرأة وقال للجندى انى سآمر ببقر بطنه فاذا وجدت فيه بزر التين أكون قد أنصفتك منه والا فانى ألحقك به فارتضت ووجد بزر التين بأمعاء الجندى — أسطورة عندهم على عدله —

***

قبل أن نتكلم عن فتح الشام والأناضول نحتاج مع القارىء الى استعراض الحالة السياسية فى ذاك العصر لنعرف كيف اندفع محمد على الى الفتح والسبب الذى دفعه وماذا كانت مهمة ابراهيم فى بلاد اليونان و بلاد العرب ولماذا وكيف دكت تلك الأمبراطورية التى ألفها ابراهيم بسيفه ومحمد على بحكمته وقد وصف المؤرخ «جو بن» محمد على بقوله « سلك مسلك الثعلب أحياناً ، ومسلك الأسد دائماً ، فألقى بالعثمانيين بأيدى المماليك و بالمماليك بأيدى الالبانيين و بهؤلاء بأيدى المصريين وهدم أربعة ولاة دون أن يخشى الجلوس على أريكة مزعزعة حتى قالوا ان صعوده الى تلك الاريكة كان عملا عظيما جدا ولكن بقاؤه على تلك الأريكة كان أعجوبة »

كانت تركيا مريضة تحتضر ولم يكن يمنع الدول عن اقتسامها سوى اختلافهم على ذلك الاقتسام . وكانت مصر مطمح أنظار الفرنساويين فبعد أن أخرج الانكليز جيش نابوليون منها وفسخوا معاهدة « أميين » التى كانت تقرر الاحتفاظ بمصر كما هى. تطلعوا الى بسط حمايتهم عليها بواسطة المماليك الذين كانوا يحكمونها . وكانوا فيها حلفاء الانكليز الذين كانوا قد قدموا للباب العالى اقتراحاً باثبات هذه الحماية فأرسل الفرنساويون قنصلهم دى ليسيبس الى مصر ليبحث عن الرجل الذى يستطيع مقاومة الانكليز اذا هم حاولوا الاستيلاء على مصر فوجد ضالته بمحمد على فبذل له كل مساعدة ووجد محمد على بالعلماء أصحاب السيطرة أكبر عون فاختاروه والياً وطردوا الولاة الثلاثة الذين عينهم الباب العالى لأن البلاد كانت قد ضجرت وملت حكم المماليك وأراد الانكليز احتلال البلاد فتمكن محمد على من طردهم بعد احتلال الاسكندرية ستة أشهر وكانت تابعة للباب العالى فضمها محمد على الى حكم البلاد

وعرف ان الانكليز هم أعداؤه السياسيون فحاول الاتفاق معهم ولكن حكومتهم فضلت اتباع سياسة هدمه على سياسة محالفته وظلت هذه السياسة سياستهم حتى النهاية واحتكر محمد على الغلال فاستطاع أن يؤلف جيشاً ويبنى اسطولا وأن يضع أمام عينيه امتلاك بلاد العرب وسوريا والعراق وتأليف امبراطورية عربية

لم يفاجىء محمد على حكومة استامبول برغبته فى أن يتولى حكم سوريا بل طلب ذلك من صارم بك رسول السلطان اليه كما طلبه من نجيب افندى الرسول الثانى ولكنه قرن الطلب بأن يكون حكم مصر وسوريا وراثياً وكانت حكومة السلطان تجعل الحكم فى البلاد اقطاعياً فلا يهمها الا أن يدفع الوالى المال فاذا تقدم آخر بالزيادة ولته وخلعت الذى تتقدمه أما الحكم بالتوارث فلم تكن

تسلم به و بلغ ما عرضه محمد على على الباب العالى مقابل حكم سوريا ٦٠ ألف كيس فى السنة (الكيس ٥٠٠ قرش) فعرض الباب العالى عليه حكم الموره وكريد وقبرس وهو يعلم بضياعها وحكم بلاد العرب وهو يعلم انها عبء ثقيل على حاكمها ولكى ينفذ محمد على خطته أخذ منذ سنة ١٨٢٥ يعد الأنصار والأصدقاء فى بلاد الشام فتوسط لدى الباب العالى بأن يعين عبد الله باشا الخازنه جى والياً على عكا وعكا هى مفتاح سوريا وقد ثبتت فى وجه نابوليون ولم يستطع فتحها فارتد عنها واستعان القائد الفرنساوى بأمير لبنان بشير الثانى فلم يمنه واحتاج عبد الله باشا الى المال ليدفعه للباب العالى فأمده محمد على

ثم وجه نظره الى الأمير بشير فأحكم به صلاته ونزل الأمير بضيافته فى مصر فى حاشية كبيرة مدة ثلاثة أشهر وكان اتفاقهما تاماً ثم أوفد اليه الأمير ابنه الأمير أميناً فظل فى مصر سنة وشهراً ولم يرجع الى لبنان الا قبل قيام حملة ابراهيم باشا بأيام قليلة وجاء مصر أحد أكابر البلاد الشيخ على العماد للغرض ذاته . وكان حنا البحرى الحمصى هو الصلة بين أمراء سوريا ومحمد على حتى صارت شؤون تلك البلاد شطراً من شؤون مصر فى نظر محمد على يتدخل بها تدخلا فعليا حتى انه هدد والى دمشق بارسال عشرة آلاف مقاتل بقيادة ابنه طوسون اذا لم يتحول عن اضطهاد اللبنانيين الذين يدخلون بلاده فيسجنهم الى أن يدفع أميرهم الفدية

ولم ير الباب العالى من وسيلة لتصد محمد على عن غرضه الا أن يحرض لمقاومته عبد الله باشا والى عكا ففتح عبد الله باشا ذراعيه لجمع المصريين الفارين من بلدهم لسبب من الأسباب حتى بلغ عددهم ستة آلاف شخص فكتب محمد على الى عبد الله باشا أن يعيدهم الى وطنهم فأجابه جواباً جافاً وقال فيه ان الاؤهستة آلاف هم رعايا السلطان وشأنهم هنا كشأنهم بمصر فان شئت

فاحضر لآخذهم فأجابه محمد على انى سأحضر لآخذ ستة آلاف وواحداً فوقهم وأراد بهذه الكلمة أخذ عبد الله باشا ذاته وكان كتاب عبد الله باشا انذاراً وكان جواب محمد على رداً على ذاك الانذار ولما قيل ان الأمير بشيراً هو حليف محمد على وسيكون فى صفه كتب قنصل النمسا يقول لدولته « ان وجود الأمير بشير فى صف محمد على لهو عبارة عن وجود سوريا فى قبضة مصر »

وغادرت طلائع الجيش المصرى مصر الى عكا فى ١٤ اكتوبر ١٨٣١ واحتلت الحملة البحرية المصرية يافا فى ٨ نوفمبر ووصل ابراهيم باشا قائد الحملة الى حيفا فى ١٣ نوفمبر وضرب الجيش المصرى نطاق الحصار حول عكا فى ٨ دسمبر .

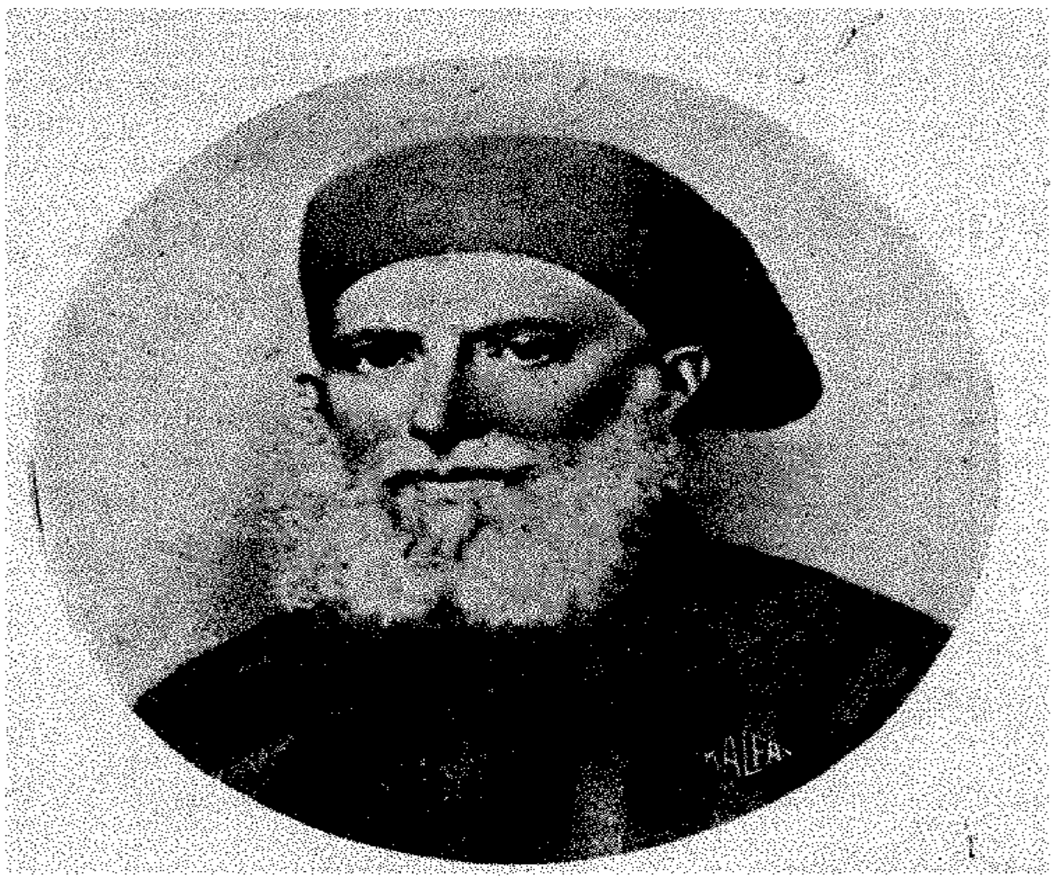
وهكذا بدأ فتح الشام والأناضول

ولم تلق طلائع الحملة المصرية من العريش الى عكا مقاومة تستحق الذكر بل لقيت فى بعض الأماكن كل المساعدة والتسهيلات

الفصل الأول

عدد الجيش المصرى ، الأسطول ، حامية عكا ، الحصار

كانت الحملة المصرية التى وجهت إلى عكا وسوريا مؤلفة من ستة آلايات من المشاة وأربعة من الفرسان وسلاحها أربعون مدفع ميدان وأكثر منها



ابراهيم باشا

من مدافع الحصار وكان هذا الجيش المصرى أول جيش شرقى سار على النظام الحديث حتى ان ابراهيم باشا ذاته تعلم فى المدرسة النظامات العسكرية كأحد

الجنود . وقد بلغ عدد الجيش المصرى الذى نظم يومئذ على الطراز الحديث نحو مئة ألف مقاتل وكان مع هذا الجيش عدد كبير من الفرسان العرب ورجال القبائل المصرية

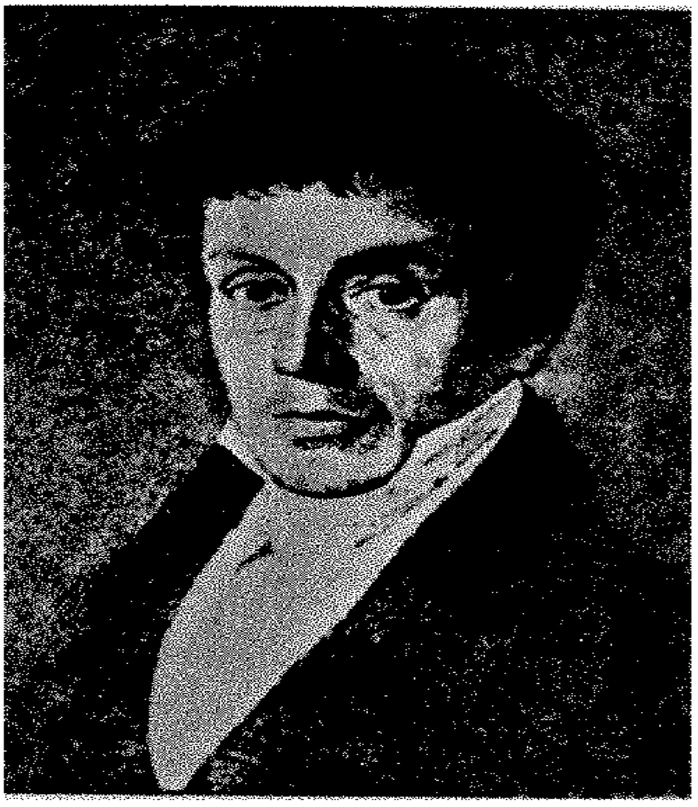
أما الأسطول الذى جدده المهندس الفرنساوى «سيرزى» ونظمه «بيسون» بعد احتراق الأسطول فى فرضة نافارين فقد ركبه ابراهيم باشا من الاسكندرية إلى يافا وكان أركان حرب الحملة مؤلفاً من عباس باشا حفيد محمد على ومن ابراهيم باشا ابن أخيه ومن سليمان بك (الكولونل سيف) ومن احمد بك المانكلى

وكان هذا الأسطول مؤلفا من خمس سفن كبيرة تبعتها السفن الصغيرة فى مدى أربعة أيام . فلما رسا الأسطول قبالة يافا نزل وجهاؤها وعرضوا على ابراهيم تسليم المدينة وكانت حاميتها ٢٥٠ جنديا فأنزل بلوكا لاستلامها وأبقى المتسلم حاكما عليها وجاءته حامية غزة مسلمة واستولى على مدافع قلعة يافا وكانت ٤٧ مدفعا مع الذخائر وأخذ بعض رجال البحر من أهل يافا لارشاد الأسطول فى مياه عكا ووصل إليه وهو فى يافا ان أهل الشام قتلوا رجال الحكم من الترك واختاروا خمسة منهم لادارة الأعمال إلى أن يصل إليهم ابراهيم « سر عسكر » الجيش العربى كما كان يلقب نفسه و يوقع أوامره ورسائله إلى أهل تلك البلاد

ولما ضرب الجيش البرى النطاق حول عكا قام الأسطول بحصرها بحراً وقوامه خمس سفن كبيرة وعدة فرقاطات كانت صغيرة وكانت جملة الجيش ومجموعه ٢٤ ألف مقاتل .

أما حامية عكا فكان عددها ستة آلاف مقاتل من الرجال الأشداء يقودهم بعض الضباط المهندسين من الأوروبيين وكان سور المدينة منيعاً وسلاحها من أقوى الأسلحة . و بعد أن أحكم ابراهيم باشا النطاق حول المدينة براً و بحراً أخذ فى ٩ و ١٠ دبسمبر يرميها بالقنابل من كل جهة ولم تكن تلك القنابل يومئذ

سوى قنابل من كتل الحديد والفولاذ المستديرة لا تنفجر بل تدك وتهدم وكثير منها لايزال موجوداً إلى الآن فى ميادين القتال التى قاتل فيها ابراهيم باشا وقد استخدمه الأهالى لرص الطرقات واستمر ضرب المدينة براً و بحراً من الفجر إلى المساء فألقى عليها فى يوم واحد عشرة آلاف كرة وثلاثة آلاف قنبلة وقد



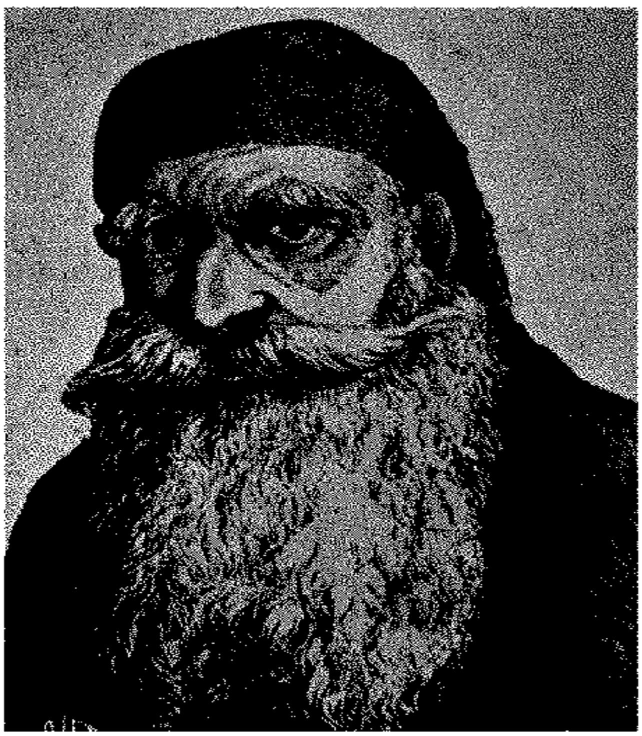
سيرزى بك مؤسس البحرية المصرية

رووا ان فرقاطة واحدة مصرية ألقت ٣٧٠٠ قنبلة ، أما حامية عكا فانها كانت تقتصد بالذخائر كل الاقتصاد لعلمها بأن المدد قد لا يصل إليها سريعاً من البر أو من البحر لا كما كان أمرها يوم حاصرها نابليون قبل حصار ابراهيم بنحو اثنين وثلاثين سنة لأن الانكليز كانوا يومئذ يمدونها بالذخائر من البحر

وأصيب بعض سفن الأسطول المصرى فعاد إلى الاسكندرية لاصلاح ما حل به من التلف. وفى ١٩ ديسمبر نصب جيش ابراهيم مدافع الحصار وأخذ باطلاقها على المدينة التى ظلت على المقاومة حتى آخر يناير وحينئذ تبين لابراهيم باشا أن الحصار طويل فأرسل إلى الأمير بشير الثانى الشهابى الذى قلنا انه جاء مصر ونزل فى ضيافة محمد على ليوافيه إلى عكا فتأخر قليلا لأن والى حلب ـ وكان وزيراً كبيراً ـ طلب منه مقاومة ابراهيم باشا ورده عن سوريا « فان لم يفعل يدك لبنان دكا ويبيد سكانه » . ولما تأخر الأمير بشير عن المجئ إلى عكا كتب ابراهيم إلى والده عن تأخره فكتب محمد على إلى الأمير كتاباً يلومه فيه على تأخره ويهدده بأنه « إذا خالف عهده معه ووعده له يخرب مساكنه ويزرع فى أرضها تيناً »

وقبل وصول كتاب محمد على إلى الأمير بشير كان هذا قد ركب من مركزه بلبنان بمئة فارس إلى عكا وقبل أن يصل إليها التقى برسول محمد على ومعه ذلك الكتاب فواصل سيره حتى وصل إلى سهل عكا فخرج ابراهيم باشا بأركان حربه وبشرذمة من جيشه لمقابلته وأمر باطلاق المدافع تحية له فدخل معسكر ابراهيم بموكب عظيم وكتب إبراهيم باشا إلى والده خبر وصول الأمير قبل أن يتلقى كتابه . فكتب إليه محمد على يمتدح صدقه وإخلاصه . وحدث ابان ذلك ان عبد الله باشا رفع الأعلام البيضاء فوق أسوار عكا دلالة على التسليم فأرسل إليه ابراهيم باشا رسله وبينما كانوا يتفاوضون بشروط الصلح قطع عبد الله باشا المفاوضة وعاد إلى القتال لانه تلقى من السلطان كتاباً بأن المدد واصل إليه على جناح السرعة لأن الأوامر كانت قد صدرت إلى الولاة بجمع الجنود لقتال ابراهيم باشا ورده عن عكا . فبعد قطع المفاوضة عاد ابراهيم إلى ضرب القلعة وحينئذ أرسل الأمير بشير إلى ولده الأمير خليل بأن يحضر

إلى عكا لخضر وتلقى منه الأمر بجمع الرجال اللبنانيين وأرسل محمد على إلى ابراهيم بأن يعطى الأمير بشيراً ايالة صيدا وأن يجعل فى يده تصريف أمور المتسلمين وأصحاب المقاطعات وأرسل ابراهيم باشا الأمير خليلا بألف مقاتل لبنانى إلى طرابلس ليقطع الطريق على محمد على باشا سرعسكر السلطان الذى كان قد



الأمير بشير الشهابى أمير لبنان

وصل إلى حمص وفى الوقت ذاته وصل القائد التركى عثمان باشا إلى اللاذقية معيناً على طرابلس ومعه خمسة آلاف مقاتل فقبض الأمير خليل على بعض مراسلاته مع مشايخ البلاد وأرسلها إلى والده فى عكا فأمر الأمير بشير ولده أميناً بجمع الرجال وأرسل إلى « زحلة » الأمير قاسما لجمع المؤن لجيش ابراهيم

باشا ومعه ألفا لبنانى وفى أثناء ذلك أرسل ابراهيم باشا أربعة آلاف رجل إلى طرابلس مدداً للأمير خليل ولكن عثمان كان قد وصل من اللاذقية قبل وصول المدد فقاتله الأمير خليل حتى كسره وقبض على القاضى والمفتى اللذين كانا يراسلانه ليسلماه المدينة وقصد ابراهيم باشا ذاته إلى طرابلس فعند وصوله إلى البترون وهى على مسيرة ساعتين من طرابلس فر عثمان باشا ومن معه إلى جهة حمص فصمم ابراهيم باشا على اقتفاء أثره إلى هناك ، والتقى جيشه برجال والى الدين ووالى قيسارية وعثمان باشا فدحرهم وغنم مامعهم

أما عكا فانها ظلت ثابتة على المقاومة وأضر المطر والبرد بالجيش المصرى اضراراً شديداً ورأى ابراهيم باشا أن يكتفى بالحصار فاستدعى إليه من الاسكندرية الكولونل « روماى » الطليانى لأنه اشتهر فى حصار قلعة موسوليغى فى بلاد اليونان فوصل مع رفيقه كارتو وهو كورسيكى والبرتينى وهو إيطالى إلى معسكر عكا فى ٢ فبراير فغيروا شكل الحصار والضرب .

وفى ٣ مارس بدأوا بضرب القلاع على الطريقة الجديدة واستمروا على ذلك عشرة أيام كاملة إلى أن دكوا البرج الذى يحمى باب المدينة واندك معه جانب من السور فردم الخندق وهجم المصريون من تلك الفتحة التى فتحتها المدافع ولكنهم اصطدموا بجيش عبد الله باشا ولم تكن الفتحة تتسع لأكثر من ثلاثين رجلا وكان عبد الله باشا قد نصب فى تلك الفتحة ذاتها مدفعين فاستولى عليهما المصريون برؤوس الحراب

ولما دخل الجنود المصريون المدينة أخذ جنود عبد الله باشا يلهبون ألغام البارود المبثوثة فى الأرض وتتناولهم نيران البنادق من المنازل فخشى القواد سوء العاقبة فأمروا الجنود بالارتداد وهكذا حبط هجوم ٩ مارس ١٨٣٢

ولكن هذا الهجوم دل على ان المدينة باتت فى حالة الاحتضار لأن

الحامية نقصت ولم يبق منها للقتال سوى ٩٠٠ مقاتل ولأن الأمراض تفشت فيها وقلت اللحوم والبقول

أما الباب العالى فانه لم يفعل شيئاً لامداد عكا لأن رجاله كانوا منصرفين إلى التحاسد أكثر من انصرافهم إلى التعاون ولأن صدمتهم فى طرابلس وحمص أوهنت قواهم وفرقت شملهم

ولما اجتمع قناصل الدول عند محمد على لتهنئته بعيد الفطر فى ٤ مارس حدثهم وحدثوه بأمر الحملة على عكا فقال لهم محمد على

« أين هى جيوش جلالة السلطان ؟ وأين هم قواده العظام ؟ ؟ أهو باشا حلب الذى كان منذ عهد قريب باش قواص ؟ ؟ لا . . أنه يحسن بالباب العالى أن يعمل حسابه قبل أن يهجم على جيشى »

وكان من عادة الباب العالى أن يصدر فى كل سنة يوم عيد الفطر التوجيهات أو جدول باشاوات السلطنة وأصحاب الرتب والولايات فصدرت التوجيهات فى تلك السنة وليس فيها اسم محمد على وابنه ابراهيم فلم يدل ذلك لا على غضب السلطان فقط بل على عزمه على تأديبهما — كما كان يفهم دائماً من هذا العمل . . .

واليك ماجاء فى مقدمة التوجيهات « رأينا ألا نقطع بتوجيه ولايات مصر وجده وكريد حتى يصل إلى بابنا العالى جواب محمد على باشا على ما أرسلنا اليه من الرسائل والفرمانات بشأن ماارتكبه من الخروج على خليفته وسلطانه ولزوم عدوله عن خطة الخسة والدناءه التى سار عليها هو وإبراهيم ولده أو رجوعه إلى حد التأديب وقهره بقدر ما تصل إليه القدرة إن شاء الله »

أما من الوجهة العسكرية فالذى يصح قوله أن إبراهيم أدرك عند ظهور عثمان باشا أمام طرابلس وظهور قواد آخرين بين حلب وحمص أن القواد الأتراك

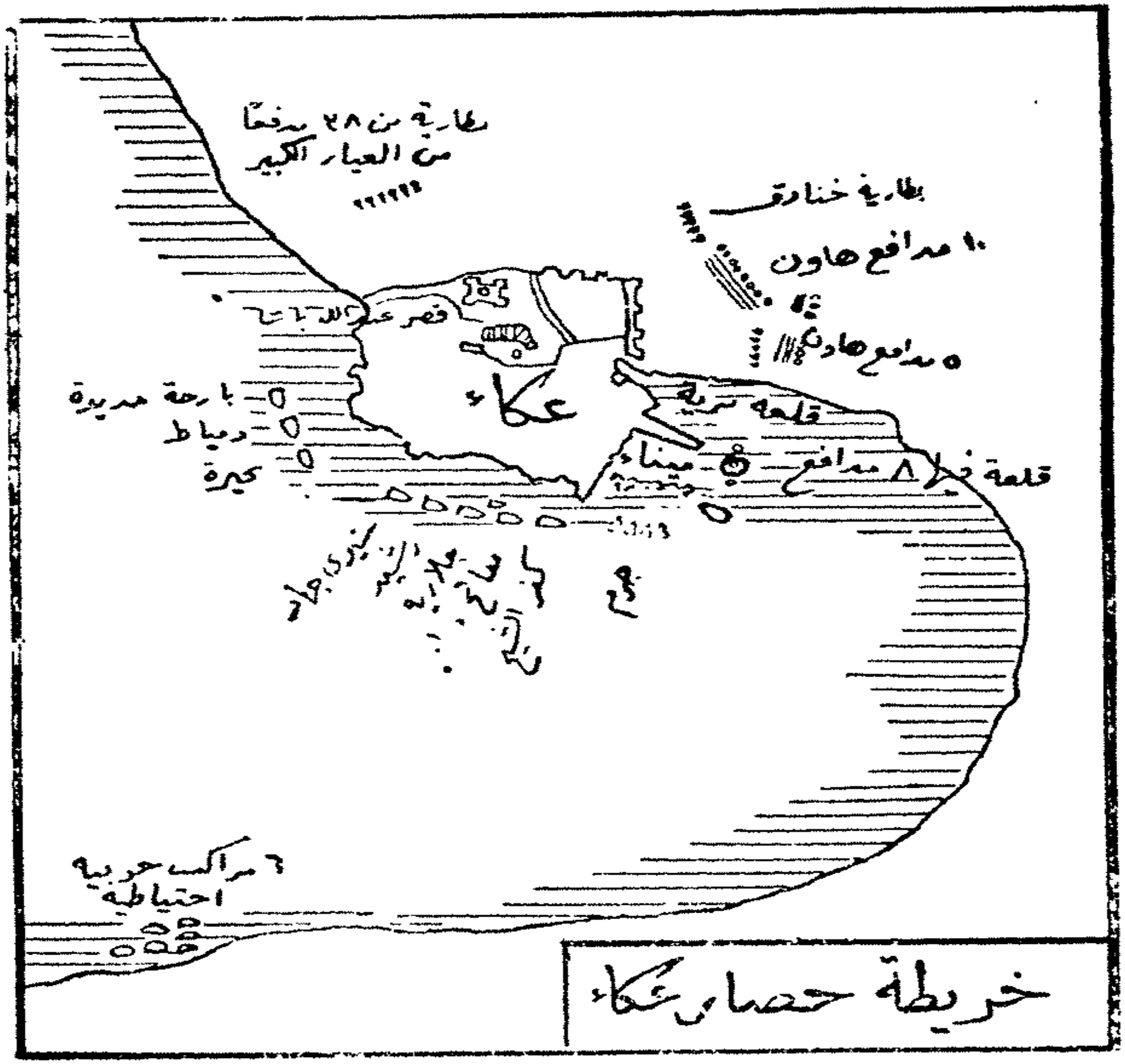
يجمعون قواتهم ليهاجموه و بدلا من أن يكون حاصراً عدوه يصير محصوراً فأبقى أمام عكا ألايين وصار بعشرة آلاف جندى لمقاتلة قواد السلطان و وكل إلى الأمير بشير وابنه أمين حراسة خطوط المواصلات وجمع المؤن فى زحلة و بعلبك والرياق ولما وصل ابراهيم باشا إلى القصير خرج أعيان حمص لمقابلته وتهنئته ثم عاد ابراهيم باشا إلى بعلبك وزحلة فظن عثمان باشا ورفاقه أنه تقهقر فقصدوا إلى جيشه ومعهم ١٢ ألف جندى فارتد عليهم وفرقهم فاتجهوا نحو حماه على ما قلنا واتجهت أنظاره إلى عكا للخلاص من حصارها .

فترك قوته فى بعلبك بقيادة أخيه عباس باشا ليرقب حركة الجيش التركى

وهكذا اتبع ابراهيم خطة نابليون قبل ذلك باثنين وثلاثين سنة فاستولى وهو سائر إلى سوريا على غزه و يافا وحيفا والقدس ونابلس .

الفصل الثانى

فتح عكا بعد حصار ستة أشهر ، قرار الباب العالى بخلع محمد على باشا ، تعيين حسين باشا حاكما على مصر ، الجيش المصرى فى سوريا



خريطة تبين مواقع القوات البرية والبحرية أثناء حصار عكا

فى ٢٧ مايو بدأ هجوم المصريين عند الفجر على قلعة عكا من ثلاث جهات وظل هذا الهجوم متوالياً حتى الظهر ثم أُوقف خوفا من الالغام لأن أرض المدينة كانت ملغمة كما أنبأ الأسرى وكان ابراهيم مصلتاً سيفه فى مقدمة جيشه فبعد الكر والفر والتقدم والتقهقر توصل ابراهيم بألايه لاحتلال أحد خانات المدينة وامتنع فيه وأخذت جنوده وما تلقته تلك الجنود من الامداد تتسرب إلى جوف المدينة من جهاتها الاربع وظهر العجز والملل على الحامية وظهر الضجر والسآمة والقنوط على السكان فأرسلوا إلى عبد الله باشا بأن أوان التسليم قد حل وأرسلوا إلى ابراهيم باشا وفداً يطلبون منه العفو فأجابهم ابراهيم باشا أنه لايمس أحداً بسوء إذا ألقى عبد الله باشا والحامية والأهالى سلاحهم فى الحال وخشى عبد الله باشا أن تفتك الحامية والأهالى به إذا حاول الفرار فمكث فى داره حتى صباح اليوم التالى إلى أن أرسل ابراهيم باشا حرساً يحرسه فى مجيئه اليه فربط عبد الله باشا وربط الكخيا منديلا فى عنقه دلالة على الاستسلام والخضوع ولما دخل عبد الله باشا على ابراهيم انحنى إلى الأرض فتناوله ابراهيم باشا فى الحال بكلتا يديه وقال له « أنا وأنت متساويان فذنبك إلى لا يغتفر ولكنك تجرأت على محمد على وهو أكبر حلماً » فرد عبد الله باشا بقوله « هذا حكم القدر » وجامل ابراهيم خصمه كثيراً حتى أزال وحشته ، وبعد تناول العشاء معه هم عبد الله باشا بالإنصراف إلى غرفة النوم التى أعدت له فى منزل ابراهيم فقال ابراهيم « إنك ياعبد الله باشا ستنام الليلة مرتاحا » فأجابه عبد الله « كراحتى فى كل ليلة مضت » ثم التفت إلى ابراهيم وقال له « لاتعاملنى ياباشا معاملة الحريم فان دفاعى يبرهن لك على الضد وكل اخطائى انى اعتمدت على الباب العالى الذى لايزيد شرفه فى نظرى على شرف المومس ، ولو أنى عرفت

ذلك لاتخذت الحيطة ولما كنت اليوم ملقياً بين يديك »

وفى رسالة قنصل فرنسا بكريد إلى حكومته أن عبد الله قال له وهو مار بتلك الجزيرة فى شهر يناير بعد إطلاق سراحه « كان لدى للدفاع عن عكا جدرانها وأسوارها والرجال والمال ولما استولى عليها ابراهيم باشا كانت أسوارها قد تهدمت و رجالها قد بادت وقد قتل ٥٦٠٠ من ستة آلاف ولم يبق معى من المال سوى بعض الحلى »



محمود بك الأرناؤطى ناظر الجهادية وجد عزيز عزت باشا

وأحصى ما ألقته المدافع على عكا من القنابل الكروية والاسطوانية فاذا هو ٥٠ ألف قنبلة كبيرة و ١٨٠ ألف قنبلة من القنابل الصغيرة . ولما سلم عبد الله وأقبل الناس على ابراهيم باشا يهنئونه قال فى جمع عظيم « إنى سأذهب فى

فتوحاتى إلى حيث تنتهى البلاد التى يتكلم أهلها العربية » لذلك كان يلقب جيشه بالجيش العربى

أما عبد اللهباشا فانه من الولاة الاشداء الممتازين . طمع فى سنة ١٨٢٢ بأن يضم دمشق إلى البلاد التى يتولى أمرها فاتفق الولاة على مقاتلته خوفا من امتداد سلطانه واضطر أن يرجع إلى عكا للدفاع عنها لأن أعداءه حصروها وكان يخشى أن يحصرها الباب العالى بحراً فوسط محمد على باشا لدى الباب العالى فنال ماطلب على شرط أن يدفع ٦٠ ألف كيس (الكيس ٥٠٠ قرش) فأقرضه محمد على قسما من هذا المال ولكنه لم يشأ دفع القرض وجعل عكا ملجأ للفارين من مصر .

وفى ٣٠ مايو سافر عبد الله باشا والكخيا إلى مصر على سفينة حربية مصرية فوصلت بهما إلى الاسكندرية فى ٢ يونيو وعند وصولها أطلقت المدافع فأرسل محمد على قواصاً إلى عبد الله باشا ليبلغه أن محمد على فى انتظاره فى الديوان

فلما دخل مر بين صفين من القواصة بقيادة أحد الضباط ودخل الديوان فاذا بمحمد على واقف ينتظره فانحنى أمامه طالباً العفو والغفران فصافحه محمد على وطمنه ثم جلس وأجلسه الى جانبه وأمر بأن تقدم له القهوة والشبق وكان الجمهور حاشداً لرؤية عبد الله باشا فأمر محمد على ذلك الجمهور بالانصراف واختلى بأسيره ثم صرفه الى دار الضيافة التى مكث فيها الى أن أطلق سراحه وسافر الى الاستانه فى أوائل شهر يناير

ولما وصل البريد بخبر فتح عكا أمر محمد على باشا بأن تطلق المدافع من جميع القلاع والحصون بالمدن والبنادر ثلاث دفعات فى اليوم مدة ثلاثة أيام اعلاناً للفرح والسرور ولاعلان البشرى فى انحاء البلاد .

ثم صدر العفو عن المسجونين والمنفيين ما عدا القاتل وقاطع الطريق اجابة لابراهيم باشا وكان السجن والمنفى فى مدينة رشيد

وأمر محمد على باشا بعمل وسام مكتوب عليه اسم « محمد على » بحجر البرلنتى لارساله الى ابراهيم باشا تذكاراً لانتصاره

وبلغت خسارة المصريين ١٤٢٩ جريحاً و ٥١٢ قتيلا

ونظم الشيخ شهاب الدين تاريخ فتح عكا فى البيتين الآتيين وقد نشرا فى ختام تقرير ابراهيم باشا فى الوقائع المصرية وهما



عباس باشا حفيد محمد على وقومندان القوات المصرية
فى زحلة والبقاع وبعلبك

لقد نصر المليك عزيز مصر — وبلغه المنى عزاً وملكا
فنادته العلا ان طب وارخ — بمجد العز تفتح الف عكا

و بعد سقوط عكا وصل عباس باشا ابن طوسون باشا بامداد كبيرة من العسكر والعربان فأرسله ابراهيم باشا لضبط الثغور كصيدا و بيروت وأرسل الرسائل الى أهالى البلاد ليطردوا العساكر العثمانية من بلادهم ووجه الى متسلم القدس والمفتى وقاضى القضاة الرسالة الآتية :

« تعلمون أن فى بيت المقدس كثيراً من الديارات والكنائس والآثار الدينية التى تحج اليها فى كل عام طوائف النصرانية واليهود وقد شكا الينا هؤلاء مما يلاقونه منكم من العنت والقسوة والغلظة عليهم والتحقير لدينهم فضلا عما أنتم فارضوه عليهم من التكاليف والمغارم الفادحة غير ناظرين الا الى ارضاء أنفسكم والعمل بهواكم على ان هذه الغايات الدنيئة والأفعال الرديئة لا ترضاها النفوس الأبية ولا يصح السكوت عليها ، ولذلك أنهاكم وأحذركم من عاقبة التعرض لأولئك القوم وأسألكم أن تفسحوا لجماعة القسيسين والرهبان والشمامسة أهل ذلك البيت المقدس من جميع المذاهب قبطا كانوا أو روم أو ارمنا فى دينهم ودنياهم ولا تمنعوهم من اقامة شعائر دينهم ولا تأخذوا ممن يذهبون زائرين لبحر الشريعة شيئاً من الكلف والمغارم ولا تضيقوا على زائرى كنيسة القيامة ولا تلزموا الصغار بدفع المال فان أطعتم أحسنتم لأنفسكم وان خالفتم أسأتم اليها والسلام عليكم ورحمة الله »

تقرير ابراهيم باشا

نشرت الوقائع المصرية فى ١١ محرم سنة ١٢٤٨ ملخص التقرير الوارد من ابراهيم باشا عن معارك عكا وفتحها قال فيه « انه كلف احمد بك أمير اللواء ومعه مختار أغا البكباشى من الآلاى الثانى بالهجوم على الباب بطرف القلعة

وأن يذهب اسماعيل بك ميرالاى اللواء الثانى ومعه الاورطة الثانيــة إلى باب البرج الذى يصــير عليه الهجوم وأن يذهب إلي الزاوية اللواء عمر بك ومعه الأورطة الثالثة و إلى برج الـكريم عسكر الاورطة الأولى وأن يكونوا مستعدين لتساق الأسوار ومعهم الســلالم فيبدأ الهجوم بعد مرور تسع ساعات وربع من الليل بمجرد سماع إطلاق ثلاث قنابل وجعلنا أحمد يكن باشا مأموراً على محل الهجوم وتوجهت الى طابية المدافع خلف عسكر المحار بين على رأس الزاوية ووقفت الأورطة الرابعة مع يكن باشا قبالة البرج ووراءها الامداد لان فى البرج مستودع عبد الله باشا ، وكان التصميم أن نرسل عسكراً إلى الوكالة الواقعة على البحر ولكن قبل الهجوم بليلة واحدة قرر الذين فروا من القلعة أن تحت تلك الوكالة أربعة ألغام فعدلنا عن إرسال القوة ، و بعد أن وصف الهجوم قال «إن الـكلام لا يتسع لوصف الشجاعة الفائقة التى أبداها الجنود و إذا أخذنا بالأصول الحربية حكمنا بان استبسالهم كان فوق مايمكن تقديره ولـكن الأورطة التى تسلقت برج الـكريم كانت خسارتها كبيرة لجهل قائدها لأنه لم يدعهم يهجمون على جميع انحاء المـكان عند إعطاء الاشارة ، والهاجمون على الزاوية تسلقوا السور بكل سرعة . وعنــد وصولهم إلى الخندق أطلقوا البنادق ثم صعدوا منه إلى الجهات الأخرى ولحق بهم بقية العسكر حتى برج الخزينة الذى انقطع سوره ، ولما وصلوا إلى باب البرج استل عبدالله باشا سيفه وهجم على عسكرنا فردوه إلى طرف الخندق ، ولما رأينا هذا الارتداد هجمت القوة التى معى على طابية المدافع ثم ارتدوا ثلاثين أو أربعين خطوة فسللت سيفى أنا واحمد بك أميرالاى الفرسان ومشيت نحوهم لنردهم إلى الامام ولـكنهم كانوا يمشون تارة إلى اليمين وتارة إلى الشمال ، وحينئذ أمرت أحد الجاويشية بأن يأخذ العـلم من حامله فأبى البيرقدار تسليم العلم .

فتقدم جاويش آخر لأخذه منه ، فامتنع عن تسليمه . ثم تقدم وفى دقيقة واحدة فعل عسكرنا العجب وتوارى عسكر العدو وأخذوا يتراشقون بالحجارة ولم يستطع العدو أن يرجع إلى مكانه الأول وقل الذين نجوا منه . وحينئذ رفع عسكرنا بيرقهم وهجموا على البرج الصغير وصعد الأنفار بسرعة وأخذوا يقاتلون دون ضباطهم فشتتوا العدو وارتمت بقاياه فى الخندق ، ولحماية الرجال أمرت ببناء متراس ، واستل ثلاثة من الجاويشية سيوفهم ثم رأيتهم يرمون الرصاص أمامى وسيوفهم مكسرة وفى الساعة الحادية عشرة وقف إطلاق الرصاص وأرسلت ضابطاً إلى الباب فوجده مفتوحا فوقف لضبط الوكالة وحصرها وأمرت بجمع الجرحى من الفرسان إذ رأيتهم مرتمين فى الارض مستلين سيوفهم عند صعودهم القلعة ، و بعد ذلك حضر أناس لطلب الامن والامان »

خلاصة تقرير يكن باشا

« كان الهجوم يوم الأحد قبل طلوع الشمس على قلعة عكا فصعد المرحوم اسماعيل بك قائد الالاى الثانى مع أورطته الثانية وأحمد بك قائد اللواء مع الاورطة الأولى إلى برج الباب من الطرف الأيمن ونصبوا بيارقهم على البرج فهجم عليهم العدو فردوه إلى الخندق ورددت أنا الاورطة الرابعة إلى الوراء حذراً من الالغام فى البرج . وقد رأيت أن أفندينا السر عسكر مضايق للأعداء كل المضايقة من طرف الزاوية وان العدو موجه كل قوته إلى تلك الجهة فأمرت الجنود بالهجوم على العدو للتخفيف عن قوة السر عسكر فاستولى رجاله على البرج ثم اتجهوا الى اليمين لاقامة المتراس وضبطوا من البرج مدفعاً وأخذوا يلقون ناره على داخل القلعة وتوفى الميرالاى اسماعيل بك بعد ساعة من اقامة المتراس وهجم علينا الأعداء ثلاث مرات ولم يظفروا بطائل ، وفى الساعة العاشرة دخلت الأورطة

الأولى التى أرسلها سر عسكر بين البرج الذى بيدى والبرج المسمى ببرج الانكليز ثم دخلت الوكالة واستوليت عليها فنشر فوق الوكالة بيرق طلب



ابراهيم باشا راهدو عطا راجلا على رأس جيشه

الأمان ، و بعد أن استمد الأعداء الأمن والأمان انقطع اطلاق البنادق وحضر للتسليم والاستسلام جماعةمن معلمى الطوبجية ومفتى البلدة وامام عبدالله

باشا طالبين من مراحم السر عسكر الأمان فتفضل عليهم به وعفا عن جميع ما يملكون وأمر برفع السلاح عنهم ، و بما أنه أعطى عبد الله باشا الأمان أيضا فانه أرسل اليه بعد الغروب اللواء سليم بك ، وفى الساعة الخامسة وصل الباشا المشار اليه مع كتخداه الى محل حضرة السر عسكر فقوبل بمقابلة الوزير ونال الالتفات والعطف ، وفى الساعة السادسة توجه سعادة السر عسكر مع عبد الله باشا ومعهما كتخدا باشا الى القصر خارج القلعة وأقاموا تلك الليلة و بما أن العساكر دخلوا القلعة بالحرب فقد امتدت أيدى بعضهم الى بعض الأشياء وانما صدر اليهم الأمر فى اليوم الثانى بأن يردوا كل شىء الى صاحبه فردت تلك الأشياء جميعا وطلب عبد الله باشا التوجه الى مصر فى يوم الثلاثاء ٢٨ ذى الحجة فأرسله سعادة السر عسكر الى حيفا مع اللواء سليم بك ومن هناك توجه بحرا فى السفينة المسماة بشيرى جهاد من سفن الأسطول المصرى »

بعد وصول عبد الله باشا والى عكا إلى الاسكندرية ونزوله فى ضيافة محمد على بدار الضيافة وصل أتباعه وهم جمهور كبير فأمر محمد على باكرامهم و بانزالهم فى ضيافة حكومته المصرية

وكانت خزانة عبد الله باشا قد وصلت على السفينة التى ركبها من حيفا إلى الاسكندرية فأمر محمد على بألا تمس و بألا تدخل داراً من دوره وأن ترسل مقفلة إلى عبد الله باشا وكان فى تلك الخزانة حليه وجواهره ، والحلى والجواهر هى كنوز العظماء فى ذاك الحين

وكان بيد عبد الله باشا وصل على أحد اليونان قسطنطين انجلو من مدينة صور بمبلغ مائتى ألف فرنك ليقدم له به المؤن والذخائر فأرسله إلى محمد على باشا باعتبار أنه ملك الدولة الفاتحة فأمر بأن تدفع له قيمته . أما برج الخزانة — الذى

أشرنا اليه — فانهم وجدوا فيه نصف مليون قرش تركت أيضاً لعبد الله باشا

— قبل أن يفتح ابراهيم باشا عكا أعد للنصر معداته لا بتأليف جيش ضخم على أحدث الطرق الحربية والأنظمة العسكرية ولا بانشاء أسطول قوى . بل بمحالفة زعماء سوريا وأمير لبنان فعاهده مشايخ نابلس على المال والروح وجمع الأمير بشير الثانى ٣٥ ألف رجل ضبطوا أنحاء البلاد وانصرفوا لجمع المؤن وكانت الفتن قائمة يومئذ فى الأناضول والبانيا والبلقان فاتهم بها الباب العالى محمد على ولما لم يلق رسل السلطان إلى محمد على كصارم افندى ونجيب افندى ما يشفى غلة الباب العالى توسط قنصل انكلترا فى بيروت لدى ابراهيم باشا ولـكن بلا جدوى ولما كان ٢٣ ابريل ١٨٣٢ أمر السلطان محمود بعقد المجلس الشرعى لأنه لم يبق أمامه سوى السلاح الدينى الذى أجاب عليه محمد على فى جمع من قناصل الدول بقوله : « هل يسمح السلطان لنفسه أن يحاربنى باسم الدين وأنا أحق منه بمهبط الدين والوحى لأنى أنقذت الحرمين الشريفين وأعدت للدين سلطانه وأنا الآن أحكم مكة المكرمة والمدينة المنورة »

انعقد المجلس الشرعى فى استامبول وهو مؤلف من ثلاثة مفتين وأربعة عشر من قضاة العسكر واثنى عشر قاضياً من قضاة المحاكم وتسعة من أئمة السراى السلطانية والمدارس الشاهانية ومن إمامى جامع أيا صوفيا وجامع السلطان أحمد فلما اجتمعوا وجه إليهم السؤال الآتى للاجابة عليه

س — ما الذى جاء به الشرع الشريف من الأمر بطاعة أمير المؤمنين وخليفة رسول رب العالمين ؟ ؟

ج — قد فرضت له الطاعة والوقوف عند حد أوامره جهد الاستطاعة

س — ماالذى جاء به الشرع الشريف فى عقاب العامل المارق عن طاعة

خليفته وسلطانه الذى أحسن إليه وأتم نعمته عليه فطغى وتجبر ودس الدسائس وأقام الأحقاد وأيقظ الفتنة الراقدة وعمل على تمزيق ملك سلطانه فركب متن الجور والعسف وأراق الدماء هدرا وخرب ديار المسلمين ولم يرض بالطاعة للدين ولا عمل بسنة سيد المرسلين

ج — يجرد من سائر رتبه ووظائفه ولا يعهد إليه بأمر من أمور المسلمين ثم يحل به القصاص ويلقى لوحوش البرية أو إلى طيور الفلا وهذا جزاؤه فى الدنيا وفى الآخرة الخزى والنار الآكلة.

س — هل يكون الخليفة مسؤولا أم ذلك المارق أمام الله والناس

ج — لاجناح على الخليفة ولا تثريب فانه قام بما فرضه الشرع الشريف وجاءت به أحكام الدين المنيف

ثم أصدر أولئك المشايخ الحكم الآتى :

« حيث ثبت خروج محمد على وولده ابراهيم عن طاعة سلطانهما فحق العقاب عليهما كما حق على سائر من حذا حذوهما بشق عصا طاعة أمير المؤمنين وخليفة رسول رب العالمين وبذلك قضى الشرع الشريف .

أولا — تجريد محمد على وولده ابراهيم من جميع الرتب والمناصب الديوانية وألقاب الشرف الممنوحة لهما من لدن أمير المؤمنين ثم بقصاصهما مع سائر من شاركهما فى هذا العصيان والخروج عن طاعة السلطان »

صدر ذلك الحكم فحمله إلى محمد على قومندان إحدى السفن الانكليزية فلم يعبأ به وأخذ مشايخ العلم فى مصر وسواها يهزأون بالفتوى والحكم.

وكان جماعة من كبار الاجانب مجتمعين عند محمد على يوم شاع أن القيصر نقولا قد جن على ما روت الجرائد فقال أحد الكبراء من الأجانب لقد سمعنا

أن القيصر قد جن فأجاب محمد على أن ذلك ليس غريبا ومهما بلغ جنونه فانه جنون متبوعى السلطان لأكبر فهو الآن يدعو محمد على إلى المثول بين يديه بحجة التعاقد معه على ما فيه المصلحة ونسى كل ما فعله ثم قهقه ضاحكا حتى استلقى على ظهره من الضحك ، ومن خلق محمد على انه كان صريحاً فى القول



ضابط وعساكر نظامية فى جيش محمد على

لا يكاد يكتم شيئاً . ولم يكتف السلطان باستصدار تلك الفتوى والحكم بل أصدر فرماناً بتولية حسين باشا سر عسكر الدولة أى القائد العام حكم مصر وكريد و بلاد الحبشة . و إليك ماجاء فى ذلك الفرمان :

« من سلطان الدولة العلية العثمانية وولى نعمة الممالكة العظمى الشاهانية

إلى فخر الأمراء المعظمين وقدوة أعيان دولتنا المفخمين حسين باشا . . . . الخ

الموجه إليه من لدن مكارمنا المشهورة ولاية ديار مصر والحبشة وجزيرة كريد وما يتعلق بها

« لا يخفى على من تهمه أخبار دولتنا العلية وما هى عليه مما كتتنا العثمانية الشاهانية أن محمد على باشا والى الديار المصرية سابقاً بعد أن كان فرداً من أفراد الرعية لا يعرف له حسب ولا نسب قد تدرج إلى أوج المعالى وما زال حتى تولى حكومة الديار المصرية من قبل بابنا العالى فنظرنا إليه بما جبانا عليه من كرم الطباع وعاملناه بالرفق والتودد والاخضاع وكنا نظن أنه يقف عند حد الشكران ولا يخالف لنا كلمة ولا يغلب على طبعه النكران وأن يقابل نعمتنا بالصدق ولكنه أطاع هواه وداخله الغرور والكبرياء . . . . وجاهر بعداء حكومتنا ولم يقف عند حد من إثارة الفتن وتعميم القلاقل والاحن وقد أقاق راحة أهالى البانيا والروملى الشرقى بشن الغارة على بلادهم وكثيراً ما ألح على مصطفى باشا بواسطة جلال بك وفاوللى مصطفى بالخروج عن طاعتنا سراً وطالما مناه بالمال والرجال على أنه لم تخف عنا خافية وكثيراً ما دس إلى عبد الله باشا والى عكا المخلص فى طاعتنا فوقعت بينهما الحرب وجاء ابراهيم بن محمد على فى عسكر جرار إلى يافا ففتحها والى طرابلس ودمشق فاستولى عليهما والى عكا فحاصرها فلم نعجل بمؤاخذته وقد حم القضاء فلم يبق من باعث على التهاون والاغضاء ومع ذلك نعفو عمن يأتى إلى بابنا سواء كان هو وولده أو أرباب المناصب والعساكر

وقد أصدرنا فرماننا هذا بتوجيه ولاية مصر وكريد وبلاد الحبشة وما يتبعها إليك ورسمنا منا بنزعها من أيدى أولئك المارقين فعليك أن تسير بالعسكر المنصور إلى حلب ثم تنحدر إلى ديار مصر فتنزع تلك البلاد من أيديهم

واذكر شفقتى ولا تنس عفوى عمن يتوب و يرجع إلى طاعة الله ورسوله وطاعة خليفته »

وقد أذيع أن السلطان جند ٦٠ الفاً ولكن محمد على كان يعرف أن الجيش الذى يستطيع السلطان الاعتماد عليه لايتجاوز ٢٥ ألفاً وأن الأسطول



القائد سليمان باشا الفرنسوى

العثمانى مزعزع الاركان لايستطيع الانتقال من جزيرة إلى أخرى ومع ذلك عزز قواته وأنشأ خمس سفن جديدة ضخمة سلاح كل واحدة منها مئة مدفع وأنزل الاولى إلى البحر يوم فتح عكا وكان الاحتفال بذلك كبيراً فى ميناء الاسكندرية

وكتب قنصل النمسا إلى دولته « أنه باتت أمام محمد على بعد فتح عكا خطتان : الاولى أن يستولى على سوريا كلها أى ولايات عكا ودمشق وطرابلس وحلب وأن يقف فى حلب باعتبارها آخر حدود سوريا . والثانية التقدم فى الاناضول بأمارة ولاتها و إيصال الاضطراب والقلق إلى الاستانة والثانية واسعة النطاق شديدة الخطر لانها قد تفضى بتدخل الدول وهذا ما يخشاه ولذلك يفضل الخطة الاولى »

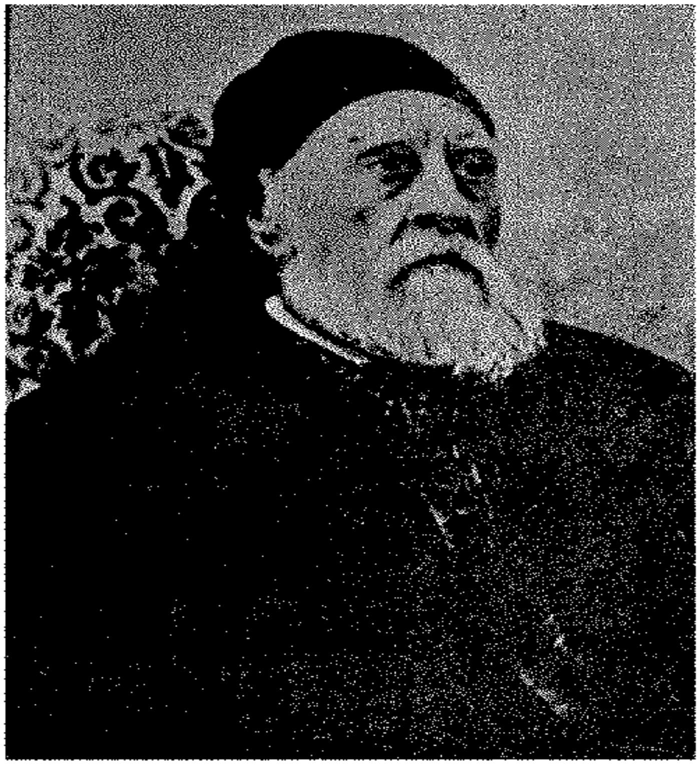
و إلى الثانية كان يميل ابراهيم ولم يختلف الاب والابن على الغرض والغاية ولكنهما اختلفا على الوسيلة ، ومما قاله هذا القنصل « ان مذكرة واحدة أو إنذار واحد من انكلترا تعيد محمد على ادراجه »

وكتب المستر باركر قنصل انكلترا فى الاسكندرية إلى حكومته أن محمد على يرضى بعد فتح عكا بولاية عكا وطرابلس ولكن فتوى المجلس الشرعى وفرمان السلطان لحسين باشا السر عسكر أثارا سخطه فأصدر أمراً بتعيين شريف باشا والياً على دمشق وقد جاء فى أمر تعيينه ما يأتى :

« إنه بالنظر إلى استحسان ولدنا سر عسكر باشا صدر أمرنا إلى قوله لى محمد شريف باشا الكتخدا حكمداراً مستقلا لايالة عربستان الشاسعة الملحقة بالحكومة المصرية وموافقة ماراه ابننا المشار إليه نرى حضوره إليه على وجه السرعة بمفرده لتوجيهه للجهة المذكورة بحراً ثم ارسال أمتعته براً »

وورد على محمد على من أنحاء سوريا أن الاهالى ينضمون إلى جيش ابراهيم ويقدمون طاعتهم لحكومة مصر ليخلصوا من حكومة الباب العالى الجائرة المخربة إلى حكومة مصلحة معمرة وأن عرب السردية وعنزه عرضوا تقديم جمالهم للحملة وأهالى دمشق ينتظرون دخول ابراهيم مدينتهم وأهالى حلب ينتظرون وصوله بفارغ الصبر

أصدر الباب العالى أمراً الى الأسطول بالخروج وهو مؤلف من ست سفن حربية كبيرة ومن ثمانى فرقاطات ومنماية مركب نقل . وقد روى يومئذ قائدا الأسطولين الانكليزى والفرنساوى ان الأسطول التركى انتقل الى بشكطاش فقط فاما أن يدمره اسطول محمد على اذا هو تعرض للقتال واما



شريف باشا والى ألوية الشام ووزير المالية فيما بعد

أن يحصره فى أحد الموانىء و يأخذه أسيرا ، وقد قرن الباب العالى خبر خروج الأسطول بخبر حشد مئتى ألف مقاتل بقيادة السر عسكر حسين باشا ، ولما حدث محمد على فى ذلك كله قال : ان الباب العالى لم يرد سوى تخويفه ثم حكى محمد على حكاية تركية فقال : « ان جملاحمل المحمل إلى مكة مدة ثلاثين سنة

فبعد هذه السنين الثلاثين ترك وشأنه فى أسواق المدينة يبحث عن غذائه ولم يكن أحد يجرؤ على ازعاجه ولكن أحدهم رأى أن الجمل يتناول كل شىء ولا يعف عن شىء فأراد منعه ولكنه لم يجرؤ على مسه فلما اقترب الجمل من محله أخذ يضرب على الأخشاب والآنية بكلتا يديه فسأله جاره ولم ذلك ؟ قال لأخيف الجمل وأبعده عن تناول أشيائى . فقال ذلك الجار أتظن انه يسمع هذا الطنين وقد كلت أذناه فى مدى ثلاثين عاماً من أصوات المدافع والموسيقات ؟ و بعد أن قص محمد على هذه الحكاية قال لمحدثيه أما ذلك الجمل فهو أنا محمد على »

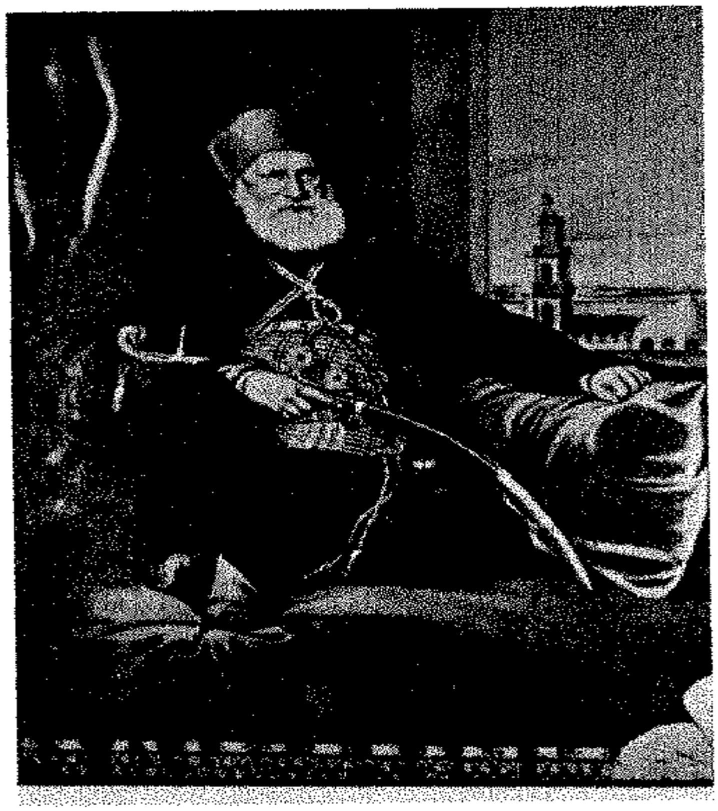
أما جيش محمد على فى سوريا فقد قسم إلى ثلاثة أقسام كل واحد منها كان مؤلفاً من ١٣ إلى ١٤ الف مقاتل . فالاول فى طرابلس تحت أمرة الامير خليل ابن الامير بشير ومصطفى بربر عامل الامير بشير على تلك المدينة . والثانى تحت أمرة عباس باشا فى زحله و بعلبك ومعه سليمان باشا الفرنساوى والامير أمين ابن الامير بشير والثالث جيش عكا مع ابراهيم باشا

وقد رأى الباب العالى أن يستعين بالدعوة الدينية فاستدعى من بورصه إلى الاستانة أحد الأشراف المنفيين وقابله مقابلة فخمة وعينه أميراً لمكة بدلا من أميرها المخلص لمحمد على ووكل الباب العالى إلى سفينتين نمساويتين الوقوف على أخبار الأسطول المصرى فلما وصلت احدى السفينتين إلى الاسكندرية قال محمد على لربانها انه مستعد لابلاغهم جميع الأخبار حتى يدرك الباب العالى أنه لا أمل له بالفوز

وشعر محمد على أن الباب العالى يبذل أقصى جهده فى الاهبة والاستعداد براً و بحراً فعقد عزيمته على أن يقابله بالمثل فطلب من قنصل فرنسا أن يعرض على حكومته عقد قرض له بمبلغ ١٢ إلى ١٥ مليون فرنك ـ وإن يكن عالماً بأنه

— ٣ —

يس باستطاعتها أن تفعل ذلك علنا ولـكن باستطاعتها أن توحى سراً بعقده ـ غيران الحـكومة الفرنساوية رفضت أن تعقد هذا القرض أو تساعدعليه مراعاة للباب العالى والحياد ولـكن ذلك لم يقعده عن مواصلة الاستعداد فأخذ بارسال النجدات إلى سوريا



محمد على باشا

وأرسل الباب العالى ـ بعد أن أصدر المجلس التشريعى فتواه ـ إلى الدول بالا تسمح لرعاياها بالاتصال بالموانى المصرية فأرسل وزير خارجية فرنسا رده بان هذا الذى يطلبه الباب العالى مخالف للقوانين البحرية وذلك ما أخذت به الدول . ومضمون تلك القوانين هو .

« ان حصار الشواطىء والسواحل يجب أن يكون تاماً وأن يحذر المركب فى حالة الحصار التام من دخول الميناء فاذا خالف حق عليه العقاب » واما ان تقطع الدول اتصالها بالموانى المصرية بمجرد التنبيه فذلك مالا يقول به أحد ولا تقبله الدول .

وكان الأسطول المصرى قد ضبط مركبين روسيين ومركبين نمساويين تحمل المؤن والذخائر للأتراك فى سواحل سوريا فاحتجت هاتان الدولتان وانتهى الأمر بالاتفاق على أن تصادر الحكومة المصرية المؤن والذخائر وأن تدفع أجرة المراكب فقط وهكذا قطع الأسطول المصرى المدد بحراً عن الجيش التركى فى سوريا .

أما ابراهيم باشا فانه بعد دخول عكا أمر بترميم جدرانها وأسوارها وقلاعها ونصب المدافع فيها لأنه عزم على جعلها مركزاً لجيشه فى بلاد الشام

وكان علماء الأزهر قد وضعوا رداً شرعياً محكما على فتوى المجلس التشريعى فى الأستانة فاذيع ردهم فى جميع الأقطار

ولما حدث القناصل محمد على فى ذلك أجاب ان علماء الأزهر أحفظ للدين وأعرف بأحكام القرآن الكريم من جميع علماء الإسلام فأنا لم أطالب منهم شيئاً ولكن مافعلوه انما هم فعلوه دفاعاً عن حرمة الدين من أن تنتهك .أما الرد من جانبى فيحمله ابنى ابراهيم إلى قواد السلطان

لم يضع ابراهيم باشا وقته فعزم أن ينقض انقضاض الصاعقة على خصومه فاتجه بعسكره إلى دمشق وأمر الأمير بشيراً أن يوافيه اليها برجاله وأمر جيش عباس باشا برقابة الجيش التركى فى جهة حمص واليك البلاغ الرسمى عن الاستيلاء على دمشق كما نشر فى الوقائع المصرية

«فى ١٠ المحرم (١١ يونيو) توجه العسكر المنصور إلى جهة دمشق فوصل



لوحة تذكارية تمثل ابراهيم باشا يقود جنوده أثناء حصار عكا واقتحامه أسوارها

فى ١٤ منه إلى القنيطرة ثم انتقل إلى داريّا التى تبعد عن دمشق ساعة ونصف ساعة . وفى الساعة الثامنة رتب عسكر الآيات المشاة والفرسان كهيئة قامة . ولما شاهدوا فى اليوم التالى نحو ٨٠٠ فارس من الأعداء فى الجانب الأيسر طلباً للحرب وفى الجانب الأيمن جماعة من المشاة من أهل دمشق استحسن افندينا السرعسكر أن يستصحب معه الآيات الفرسان وأحمد بك أمير اللواء مع الأورطة الرابعة من الالاى الثامن ويذهب إلى الذين وقفوا إلى الجانب الأيسر ويذهب قوجه أحمد آغا مستصحباً فرسانه وفرسان العرب إلى الذين وقفوا فى الجانب الأيمن فلما رأى أصحاب المشأمة اقدام أفندينا السرعسكر عليهم ولوا الادبار فتبعهم العسكر وقتلوا منهم بعضاً وقبضوا على البعض وكان على باشا والى دمشق والشوربجى وشمدين آغا فى المعسكر فى المكان المسمى « المرجة » وكل من أمين الكلار والمفتى والنقيب ورشيد آغا والترجمان فى بيت أمين الكلار والقاضى فى المكان المسمى « باب توما » فهربوا جميعاً وكانوا نحو ١٥٠٠ فارس و ٥٠٠ راجل وحينئذ جاء جماعة من المدينة طلباً للامن والامان وطلبوا أن يتشرفوا بمقابلة أفندينا رئيس العسكر فأرسل اليهم رسولا يبلغهم بانه أعطاهم ماطلبوه من الأمن والأمان

وعند شروق الشمس وصل الأمير بشير ومعه نحو ٥٠٠٠ من الفرسان والمشاة وتقابل مع افندينا وذهب مع رجاله إلى المدينة من طريق وذهب افندينا إليها من طريق آخر ، وبينما هو فى الطريق حضر كبارهم لاستقباله ، وفى الساعة الرابعة أعد لكل فريق من جيشه المنصور مكانا خاصاً به فى المدينة

ونظم شهاب الدين هذين البيتين فى تاريخ فتح دمشق :

ولما جل شأن عزيز مصر   ودان لعزه غرب وشرق
دعته الشام شرفنى وارخ   بيمن العز قد ملكت دمشق

ولما كان بعض الدروز والمتاولة قد نهضوا لارتكاب الشغب فى لبنان والبقاع وحوران بتحريض القواد الترك أمر ابراهيم باشا بنزع سلاحهم ، وبتوزيع ١٣ ألف بندقية على اللبنانيين لمطاردة المشاغبين

ورأى ابراهيم باشا تأليف مجلس شورى فى دمشق لضبط الأعمال فصدر عن ذلك البيان الآتى الذى أعلن فى ١٥ صفر :

« صدر أمر السر عسكر ابراهيم باشا فى ١٥ صفر إلى الأشخاص المذكورة أسماؤهم فى ما بعد وهم من أشهر عائلات دمشق الشام وأكابرها وأعيانها وشيوخها ليكونوا أعضاء المجلس المخصوص وهم :

محمد حافظ بك العظم وسليم افندى كيلانى ومحمد افنـدى عجلان ومحمد نسيب افندى حمزه وعلى آغا كاتب الترجمان وصالح آغا المهايني وعلى آغا كاتب الخزانة وعبد القادر آغا كيلاهلى واحمد افندى البكرى واحمد افندى المالكى ومحمد راغب افندى حسنى واحمد افندى أنسى وابراهيم بك المسودن والحاج نعمان آغا باشجى والشيخ سعيد والحاج ابراهيم بستولى من التجار وصباحى آغا الحكيم ومحمـد آغا الـكبير ومحي الدين آغا خير وعبد القادر آغا خطاب من أغوات الاختيارية والخواجه روفائيل الصراف والخواجه ميخائيل كحيل وجميعهم ٢٢ ذاتا

« فليكن معلوماً أنه عملا بالحديث القائل كل راع مسؤول عن رعيته وجب علينا النظر فى أمور الرعيـة وأحوالها بما فيه الراحة والرفاهية من كل الوجوه الأمر الذى لا يحصل إلا بنشر بساط العدل والاحسان عليهم وفصل الأحكام فيهم بالحق ، قد استحسنا تشكيل مجلس مخصوص من خواص العقلاء وأصحاب الرأى من الأعيان والأكابر والتجار للنظر فى القضايا والمشورة فيها ، ولذلك قد اخترناكم من عموم أهل دمشق الشام وأذناكم بسماع الدعاوى وبتحويل الشرعية منها على الشرع الشريف

أما ما يتعلق بسياسة الأمور الأخرى فيكون الفصل برأيكم و بعد التشاور وتداول الآراء بين أرباب المجلس جهراً واتفاق الآراء يحكم بما تتفق عليه الآراء و بعد الحكم يقدم تقرير بذلك إلى مجلسنا للتنفيذ و يكون ذلك بلا ميل ولا غرض في النفس ولا شهوة خاطر ولا انحراف إلى كبير أو صديق أو وجيه وكل من أخفى رأيه لعلة أو لعدم نقد كلام من هو أعظم منه من أرباب المجلس . فيكون قد خالف أمرنا وأوقع نفسه تحت طائلة الملامة

صدر أمرنا هذا ليكون حجة عليكم فاغتنموا ثواب الرعية وجزاء الخدمة الدينية الجليلة والحذار الحذار من الخلاف »

وبعد احتلال دمشق أسرع ابراهيم باشا بجيوشه لمقابلة قوات الباشوات الترك في حمص

الفصل الثالث

بعد فتح دمشق — الزحف على حلب

يقول المصريون إن الشام جنة الدنيا وقد فتحنا لهم الشام فماذا يريدون فوق ذلك ؟ ؟ (من كتاب ابراهيم باشا لوالده)

فى ١٥ يونيو ١٨٣٢ دخل ابراهيم باشا دمشق وأقام عليها احمد بك العظم متسلماً إلى أن أعلن تأليف المجلس المخصوص من ٢٢ عيناً ليتولى شؤون الولاية والألوية ، وكان محمد على باشا قد عين محمد شريف باشا والياً على دمشق ووكل ابراهيم باشا إلى الأمير بشير تعيين المتسلمين فعين منسمى صيدا وبيروت وطرابلس واللاذقية من الأمراء الشهابيين أبناء عمه وصدرت أوامر ابراهيم باشا إلى محمد منيب بك والى عكا بتأييد هؤلاء المتسلمين ولم يصرف ابراهيم باشا سوى أيام قليلة فى دمشق لأن الباشاوات قواد الجيوش التركية كانوا قد اجتمعوا بجيوشهم فى سهول حمص فصمم على مباغتتهم والزحف على حلب للاستيلاء عليها وكانت حلب آخر مرمى محمد على إذا لم يضطره السلطان إلى الذهاب إلى أبعد من ذلك . ولما كان محمد على واثقاً كل الوثوق من الفوز والنصر ومن الاستيلاء فى أيام قليلة على مدينة حلب عقد النية على أن يمهد الطريق السياسى فاستأجر مركباً فرنساويا فى ٢٤ يونيو ليحمل منه رسالة إلى حاكم مالطه الانكليزى بغية أن يرسلها هذا الأخير إلى حكومته لأنه لم يكن يثق أقل ثقة بالقنصل الانكليزى لما كان يظهر من الجفاء نحو مصر ودس الدسائس لمحمد على و إبراهيم . وليحمل رسالة من قنصل فرنسا إلى حكومته بآراء محمد على .

وقد حدثنا عن ذلك قنصل فرنسا ميمو فى رسالته إلى وزير الخارجية سيبستيانى فقال :

إن محمد على لم يستأجر السفينة الفرنساوية لتحمل إلى مرسيليا ومنها إلى أوربا خبر فتح دمشق . ولكنه استأجرها لتحمل منه رسالة إلى الحكومة الانكليزية بواسطة حاكم مالطة لأنه لا يثق بالقنصل الانكليزى ويعتقد بأنه يتلاعب بالاعراب عن أفكاره وآرائه . أما أنا فلم يسلمنى رسالة ولكنه أملى على أفكاره التى يريد أن يعرضها على وزير الخارجية وهى :

« يرى محمد على أن تركيا واصلة حتما إلى أزمة من الأزمات الكبيرة التى يتقرر بها مصير الأمم والدول والآن يتم الانفصال بين شطرين من السلطة تقضى الحوادث والأنظمة والضرورة والأقدار بفصل أحدهما عن الآخر . وكان بالامكان تلافى ذلك لولا غفلة السلطان لأن محمد على كان يود دائماً — بالرغم من انفصال أحد الشطرين عن الآخر بالفعل والواقع — أن يظل التابع الخاضع المخلص . ولكن العناية أرادت غير ما أراد فالآن قد تم تأليف المملكة العربية . ـ والبلاد العربية هى مهبط الوحى ـ وهى تحتضن الأماكن المقدسة وفيها مقر الخلافة وتطوقها الجبال من كل جانب كالأسوار وإذا اضطرت للدفاع عن نفسها أنشأت القلاع والحصون التى سيتضاعف عددها .

واليوم ننتظر أن يرتمى أسطول السلطان وجيشه على أسطول محمد على وجيشه فيكون مصير اسطول السلطان وجيشه السحق . فلماذا مواصلة هذا القتال الذى لا فائدة منه ؟ ؟ وأية أمة أوروبية تجد فيه ربحها ؟ ؟ فلا هى فرنسا ولا هى انكلترا ولا النمسا ذاتها . وذلك للأسباب التى يعرفها الجميع ولا يجهلها أحد .

والدولة الوحيدة التى يهمها سقوط السلطنة العثمانية هى الدولة الروسية . ألا

يقوم الدليل على ذلك بدفعها الباب العالى بكلتا يديها ضد محمد على مع إعلان الغضب والسخط عليه ؟

فمنذ تملكت الغفلة الباب العالى نراه لا يعمل شيئاً إلا بنصيحة روسيا وأوامرها وروسيا تعرف أن مصر صارت قوة وان هـذه القوة تؤيد عند الحاجة الباب العالى ضدها ولكن الجنون تملك الباب العالى فانساق لارادتها ضد الشطر القوى الحى فى السلطنة ولذلك تريد روسيا أن يمزق بعضنا البعض .

فهل تسمح فرنسا وانكلترا بأن تحفر السياسة الخادعة هذه الحفرة ليتردى فيها الجهل والغباوة ؟

إن عليهما وحدهما وعلى رأيهما ووساطتهما الحيلولة دون فعل الدسائس فاذا فعلتا كان عملهما خدمة للباب العالى ذاته وللسلام وللانسانية .

أما محمد على و إن كان قد أهين وسب فهو لا يطلب ـ والنصر حليفه ـ إلا ما كان يطلبه قبل القتال فلا يمتد نظره إلى أبعد من الحاق سوريا حتى حلب بولاية مصر تحت سيادة السلطان وعلى شروط موافقة للسلطان كل الموافقة ، أما إذا ترك قياد السلطان لصديق ماكر فقد تكون النتيجة عليه بلايا شديدة .

فهو الآن محتقر مكروه من جميع المسلمين لأنهم يعدونه المخرب والعدو للسلام ، أما محمد على فهو فى نظر الجميع السند للدين والمدافع المخلص عنه والمؤمنون فى جميع أنحاء السلطنة تتجه أنظارهم إليه وكل جهة ترسل إليه رسلها فى طلب المساعدة والعون .

وهل من يشك الآن فى أن الانتصار فى سهول حلب بفضل عبقرية ابراهيم العسكرية و بفضل تفوق العرب و بفضل فوز الأسطول المصرى سوف يحكم بمصير استانبول ؟ ؟

فاذا كانت الدولتان الصديقتان تريدان أن تصل الأمور إلى هذا الحد

فمحمد على يود ابلاغه ذلك . وعنده أنه لم تبق إلا هذه الوسيلة للحيلولة دون انحلال السلطنة وهذه الوسيلة هى المتفق عليها بين جميع عقلاء السلطنة لأنها تصون الوحدة التى تساعد على إنقاذ الجميع

وأشار قنصل فرنسا إلى فتنة والى اشقودره قبل ذلك وانه كان الغرض منها خلع السلطان وتولية ابنه تحت مجلس وصاية

ذلك كان مسعى محمد على السياسى المقرون بالنجاح العسكرى ولكن هذا المسعى لم يوقفه عن إرسال النجدات لابراهيم فأرسل إليه ستة آلاف جندى نظامى حتى قالوا إن مصر خلت بعد هذا من الجند النظامى لأن محمد على كان فى مأمن من الأسطول التركى

وكان جيش ابراهيم باشا مؤلفاً يوم دخوله دمشق من ٣٠ ألفاً يؤيدهم ١٥ ألفا من رجال الأمير بشير الشهابى وصدر أمر محمد على إلى أسطوله بالخروج إلى البحر للبحث عن الأسطول التركى وهو مؤلف من :

٣ سفن صف وسلاح كل واحدة أكثر من ١٠٠ مدفع

١ — سفينة صف سلاحها ٧٤ مدفعاً

٥ — فرفاطات سلاح كل واحدة ٦٠ مدفعاً

٢ — فرفاطتان سلاح كل واحدة ٤٤ و ٥٠ مدفعاً

ويتبع ذلك مثل هذا العدد من السفن الأخرى الصغيرة الحربية و ٤ حرافات كبيرة يتولى قيادتها جماعة من اليونان وهذا مادعا الباب العالى إلى الاحتجاج لدى الدول لان محمد على استخدم فى بحريته متطوعة اليونان من أهالى الجزر .

أما قواد السفن الكبيرة فكانوا فرنساويين اثنين وانكليزيا واحدا ومصريا كان قد أتم تعليمه فى البحرية الفرنساوية وكان أميرال هذا الاسطول

محمد عثمان باشا وهو رجل شديد البأس واسع المعرفة أما الاسطول التركى فكان مؤلفاً من :

٢ — من السفن الضخمة سلاح كل واحدة منها ١٤٠ مدفعا

٣ — سفن سلاح كل واحدة منها ٨٤ مدفعا

٦ — فرفاطات منها ثلاث كبيرة

١٠ — نسافات

٥ — حرافات

٢ — زورفان

١ — نقالة

وكان سلاح الاسطول التركى أضعف من سلاح الاسطول المصرى وأكثر رجاله ممن لم يركبوا البحر فلم يكن أحد من رجال البحر يصدق أن أسطول السلطان يستطيع مواجهة أسطول مصر

***

أما خطة ابراهيم باشا فكانت القضاء على جيش الباشوات فى حمص وهو لا يزيد على ٢٦ ألفاً قبل وصول جيش السرعسكر حسين باشا وهو ١٢ ألفا وقد جاء من طريق قونية ومر بطريق انطاكية

نهض ابراهيم باشا من دمشق فى ٣٠ يونيو قاصداً حمص ومعه الأمير بشير وابنه الأمير خليل وأمراء وادى التيم ومشايخ نابلس ولما وصل إلى النبك وجه الأمير بشيراً ومن معه إلى دير عطية واتجه هو ذاته الى القصير فخيم على مجرى نهر العاصى ثم نهض الى بحيرة حمص و بينما كان مجدا السير كان الباشاوات الترك الثمانية منهمكين بتبادل الزيارات وتقبل التحيات ونصب الخيام الضخمة الخ

فى صباح ٨ يوليو انقض جيش ابراهيم على حمص انقضاض الصاعقة فمزق

شمل الجيش التركى كل ممزق واستولى على سلاحه ومهماته ومراسلاته ومنها رسالة من الباب العالى إلى باشا حلب بان يرسل ابراهيم باشا حياً إلى استامبول و بلغ عدد قتلى الجيش التركى ٢٥٠٠ وقتلى الجيش المصرى ١٠٢ وجرحاه ١٦٢ وأسر الجيش المصرى نحو ألفين أرسلوا الى عكا وخيروا بين الذهاب الى بلادهم أو الانضمام الى المعسكر المصرى فى بلدة النحيلة

أما الباشاوات قواد العسكر التركى فكانوا : محمد باشا والى حلب وهو القائد الأكبر وعثمان باشا والى المعدن وعثمان باشا والى قيسارية وعلى باشا والى دمشق وعثمان باشا والى طرابلس ومحمد باشا السكريدلى ومحمد باشا فريق عسكر الجهادية ونجيب باشا ودلاور باشا ولم يقف ابراهيم باشا فى حمص بل سار بجيشه يقصد الى حماه للحاق بهم ولكنه تلقى الخبر بانهم لم يقفوا فى حماه بل تركوا مدافعهم فى الطريق و واصلوا السير فسطت عليهم عربان عنزه فارسل ابراهيم باشا الى عكا فى طلب الطوبجية لاصلاح المدافع التى غنمها وهى جميع مدافع الجيش التركى الذى ارتدت بقاياه بلا مدافع و بقايا هذا الجيش لاتزيد على ١٥٠٠ مقاتل

و لم يقف ابراهيم باشا فى حماه بل واصل السير الى حلب و بينما هو فى قرية زينان جاءه فرسان العرب بستة من الاسرى فاخبروه أن الباشاوات ومعهم السر عسكر حسين باشا طلبوا من محكمة حلب اصدار حكم بتقديم المؤن للعساكر فابت وأبى الأهالى تقديم هذه المؤن وتظاهروا بالعداء فغادر الباشاوات حلب الى عينتاب تاركين فى حلب ١٦ مدفعا والخيام والذخيرة والمهمات فركب ابراهيم مع الفرسان بقيادة عباس باشا و وصل إلى حلب فدخلها على الترحاب وقدم له الطاعة قاضيها ومفتيها وأعيانها

وقبل أن يدخل ابراهيم حلب كتب الى محمد على والده يقول « هاقد فتحنا الشام التى يقول المصريون انها جنة فماذا يريدون منا فوق ذلك »

وهكذا انتهى فتح الشام الذى كانت بدايته فى شهر اكتوبر سنة ١٨٨١ ونهايته فى شهر يوليو سنة ١٨٨٢

وهذا هو المنشور الذى صدر لأهالى حلب :

« عمدة العلماء الأعلام حاكم الشريعة الغراء بمدينة حلب الشهباء الأفندى الأفخم زيد فضله »

والمأذون بالافتاء بها نخبة العلماء الكرام الأفندى المكرم زيد بقاءه

— وفرع الشجرة الزكية طراز العصابة الهاشمية قائمقام نقيب أشرافها الأفندى الأكرم زيد شرف سيادته .

— وافتخار الأماجد والأكارم متسلمها حالا سياف زاده السيد ابراهيم آغا زيد مجده

— مفاخر الأماجد والأعيان وجوهها الكرام وأعيانها وساداتها ذوى الاحترام

أحيطوا جميعاً علما بأنه يجب قيامنا وتحريك ركابنا لطرف مرعو . فاقتضى ايفاد فائمقام لأجل تدوين أمور بلدتكم وضبطها واجراء حكومتها وربطها

بناء على ذلك قد نصبنا رافع أمرنا هذا افتخار الأماجد والأكارم سياف زاده السيد ابراهيم آغا المتسلم الموما اليه وأبقيناه لأجل إدارة مصالح البلدة ورؤية أمورها

فأنتم أيها المخاطبون اذا صارت الكيفية معلومكم تكونون جميعاً مع الآغا الموما اليه بالاتفاق وتشدون عضد المواحدة والاتفاق لايفاء مراسم الخدمة المبرورة واجراء مراسم المساعى المقبولة المشكورة لدى جانب ولى النعم أفندينا السرعسكر باشا المعظم

وأنت أيها القائمقام يلزم منك الانتباه واليقظة فى محافظة الطرقات وأبناء السبيل وعدم التعرض لأحد إلا بالوجه الشرعى واستجلاب دعوات الفقراء والرعية وديعة رب البريه و بذلك تحوز رضا سعادة أفندينا ولى النعم المعظم و رضانا الخ

١٢٤٨	طغراء
خاتم	يكن ابراهيم
ابراهيم توفيق	قائمقامى حاب

الفصل الرابع

آخر معركة فى الأراضى السورية وارتداد الترك إلى الأناضول

دخل ابراهيم باشا مدينة حلب فى ١٥ يوليو ونظم فيها الحامية واحتل القلعة وأرسل طلائع جيشه إلى جهة الفرات ليقف على أحوال العراق وأعالى الأناضول حتى يكون آمناً من تلك الجهات على مؤخرة جيشه وكان قد عين متسلما لحمص وآخر لحماه من أعيان دمشق وأعاد الأمير بشيراً إلى لبنان ولم يبق أمامه لاتمام فتح سوريا سوى القضاء على جيش السر عسكر حسين باشا الذى قلنا ان السلطان محموداً أصدر أمراً بتعيينه والياً على مصر وكريد و بلاد الحبشة وملحقاتها والرجل كان والياً على أدرنه وكان مشهوراً بقوته البدنية فما وصل هـذا السر عسكر إلى انطاكية حتى كان ابراهيم باشا قد قضى على جيش الباشاوات الثمانية فى حمص فلم يمكن السر عسكر من الانضمام إلى جيش الباشاوات والتقى السر عسكر بفلول الجيش المكسور فى جسر الشغور ولم يساعده أعيان حلب على دخول تلك المدينة فاتجه إلى بيلان

و بيلان واد بين جبلين عاليين يطلقون عليه اسم البوغاز وفيه تمر القوافل بين حلب والاسكندرونة وهو مشهور فى التاريخ بمناعته وقد كان ممر جميع الجيوش المقبلة من الغرب إلى الشرق فأخذ حسين باشا يحصنه بمدافعه وجنوده وقد قالوا ان سلاح جيشه كان ١٦٠ مدفعاً وعدد ذلك الجيش ستين ألفاً منهم ٤٥ ألف جندى نظامى فأسرع ابراهيم لمقاتلته قبل أن يسترد جيش السر عسكر قوته وقبل أن يستريح و يتم معاقله فى جنبات ذلك الوادى

و إذا كانت للقيادة أهميتها والقائد من الجيش كالرأس من الجسم فاسمع كلمة كلوت بك فى حسين باشا سر عسكر جيش السلطان محمود قال : « ألبس السلطان محمود قائده العام كسوة القيادة العليا وهى ـ المعطف القصير ذو البنيقة المزركشة بأسلاك الذهب وأهدى إليه سيفاً مرصعا بالألماس وجوادين عربيين مطهمين وقلده رتبة المشيرية . فمن هو هذا القائد العام الذى فاز بمثل هذه الزلفى من الحضرة السلطانية واقترن نجمه بالسعد إلى هذا الحد ؟

هو مبيد الانكشارية . كان فى أول عهده حمالا ثم جاسوسا ثم رئيس قاعة ثم مهيجا ثم جلادا ثم باشا الباشاوات . كان سيفا ماضيا فى ما مضى ولكنه الآن سيف لا يخرج من قرابه وكان الفريق محمد باشا معتوق حسين باشا قائد الطليعة »

وصل جيش ابراهيم باشا إلى مضيق بيلان فى ٢٩ يوليو عند الساعة الثالثة بعد الظهر وأخذ فى الحال يدرس مواقع أعدائه فى الجبلين المشرفين على الوادى فوجد أن جيش السر عسكر حسين باشا قد أهمل بعض الأنجاد العالية فأدرك لساعته أن احتلال تلك الأنجاد يمكنه من سحق عدوه فلم يقعد ولم يسترح بل وجه بعض قوانه إلى احتلال تلك المرتفعات وحول عنها نظر أعدائه بمهاجمتهم واطلاق المدافع عليهم من الجهة المقابلة فلم يلتفت قواد الجيش التركى إلى ماوراءهم فأخذهم جيش ابراهيم بحركة التفاف من ورائهم وهنا ندع تفاصيل الموقعة ونتائجها للتقرير الرسمى الذى أرسل إلى محمد على و إلى الأمير بشير و إلى جميع الولاة والمتسلمين فى أنحاء سوريا ليذيعوه وهذا هو نص التقرير وهو آخر تقرير عن آخر معركة فى الأراضى العربية السورية

المعركة الثامنة لجيش سوريا

فى ٢ ربيع الأول (٢٩ يوليو) فى نحو الساعة الثانية بعد منتصف الليل زحفت قوتنا من جسر مراد باشا وفى الساعة الثامنة قبل الظهر وصلت الى المضيق المسمى بوعاز بيلان وفى الساعة الخامسة أنبئنا أن المشير حسين باشا ومحمد باشا الذى كان والياً على حلب وآخرين سواهم قد عسكروا وراء المضيق مع بقية جيوشهم النظامية والمتطوعة وانهم نصبوا المدافع على الروابى والآكام وانهم نصبوا بعض البطاريات على القنن العالية .

ولما ثبتت للقائد العام ابراهيم باشا صحة هذه الأخبار أمر اللواء حسن بك أن يتقدم بالآلاى الثالث عشر من المشاة والآلاى الثامن من الفرسان مع خمسة مدافع فى الطريق الواقع على الميمنة وسار القائد العام على الميسرة ومعه الآلاى ١٨ والفرقة ٨ البيادة والاى الحرس و ١٢ مدفعاً

أما الآلايات الأخرى من الفرسان فاوقفت فى الجهات الأخرى من المضيق

ولما رأى العدو تقدم قواتنا أخذ يطلق مدافعه من الآكام المشرفة على طريق الجيش ولكن مدافعنا صبت عليهم النار الحامية فاسكتت بعد ساعة مدافعهم إلا مدفعاً واحدا ظل يطلق نيرانه . و بينما كانت مدافعنا تصب نارها على ميسرة العدو صدر الأمر الى الالاى الثامن بالتقدم فلم يمض الاقليل حتى وصل هؤلاء الابطال الى الأعالى التى تشرف على مواقف العدو فى الميسرة ومن هناك ضربوه بشدة عظيمة حتى اضطر الى الفرار تاركا مدافعه ومهماته وذخائره فارا عند ما أذنت الشمس بالمغيب متجها نحو أدنه

أما عسكرنا فانه صرف ليلته فى محل المعركة وفى اليوم التالى أى ٣٠ يوليو وجهت فرساننا منذ الفجر لاقتفاء أثر العدو وذهب باقى الجيش الى بيلان وهناك

التحق عارف بك ميرالاى الفرقة العاشرة من جيش العدو بجيشنا فعينه القائد العام أمير الايا للآلاى العشرين من المشاة .

ومما يقوله عارف بك ان فرقته كانت مؤلفة عند قيامه من قونيه من ٢٢٦٨ رجلا فصار عددها من جراء المرض والفرار والموت فى صباح أمس ١٨٨٨ رجلا

و بعد فرار عليش باشا من اللاذقية جاء ٦٠ فارساً و ٦٠٠ رجل من الاسكندرونة مستسلمين للقائد العام فترك لهم حرية البقاء أو العودة إلى بلادهم وأمر بأن يعطوا حاجتهم فى السفر والذى رواه هؤلاء أن عليش باشا ارسل حريمه إلى قبرص وركب باخرة إلى الاسكندرونة لينضم إلى ابراهيم باشا ومعه ستة مدافع

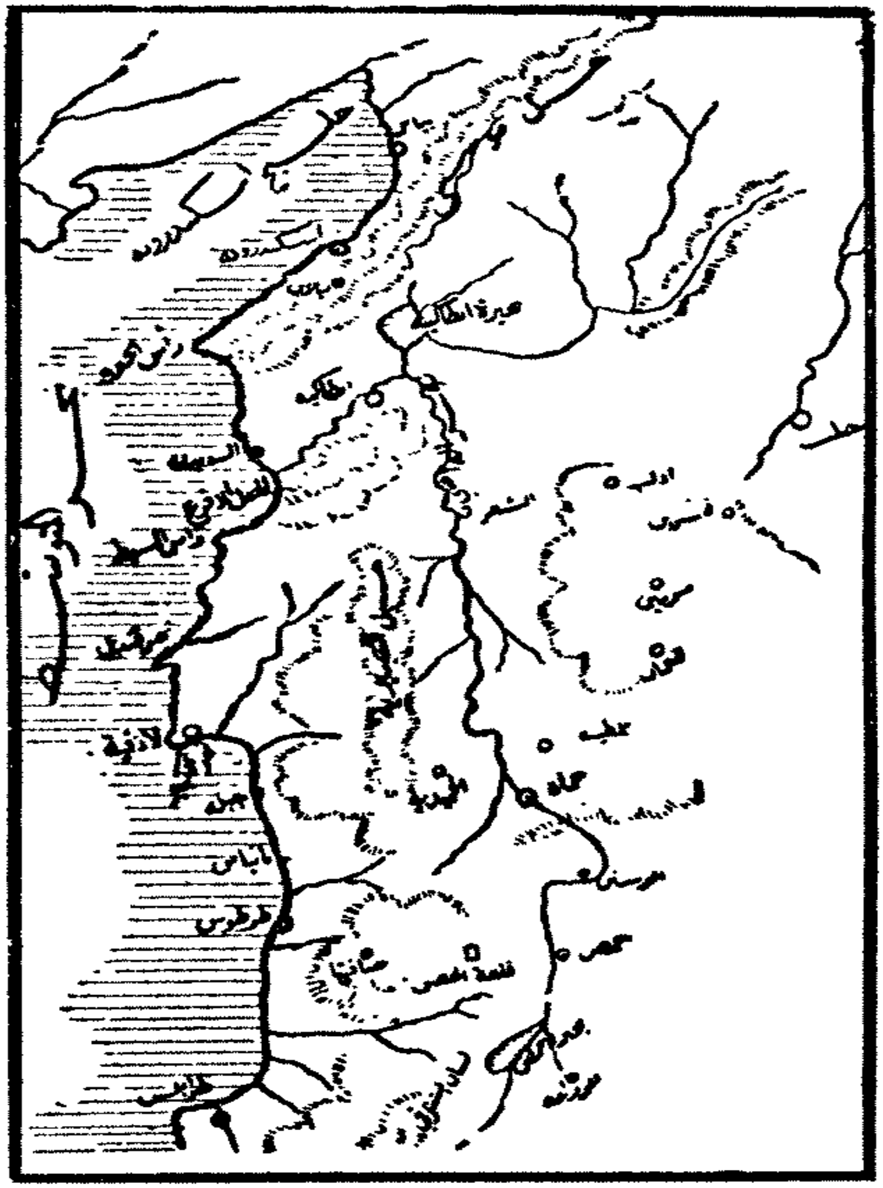
أما فرساننا فانهم ظلوا يعملون بسيوفهم فى مؤخرة الباشاوات حتى أدنه وعادوا ومعهم ١٩٠٠ أسير

وفى أول أغسس قدم أهل انطاكية خضوعهم وطاعتهم فعين خليل بك متسلماً لاقليم بيلان أما باشا حلب فانه مر بعينتاب تاركا مهماته التى غنمناها وقد بلغنا أنه الآن بملاطيه ومعه بضعة أنفار .

وخسارة العدو فى بيلان ٣٩ مدفعاً غنمناها .

وفى ٢ أغسطس تلقى القائد العام من أيوب بك من قبيلة مللى كتاب الخضوع فأثبته القائد العام فى وظيفته فى أورفة

وجملة ماغنمناه من العدو فى المعارك ٨٠ مدفعاً ومدفع هاوون وكمية كبيرة من الذخائر من كل نوع وعدد قتلاه والأسرى أكثر من ١٢ ألفاً ، أما الفارون فعددهم كبير جداً والذى يؤخذ من تقرير عارف بك أن الجيش التركى كان فى جهة حمص ٣٦ ألفاً نظامياً لم يلحق منهم بحسين باشا سوى ٥ آلاف وكانت خسائرنا فى بيلان ٢٠ جريحا وقتيلا . . اهـ



سوريا الشمالية

ومن المخطوطات المحفوظة كتاب ابراهيم باشا إلى متسلم دمشق احمد بك العظم عن هذه الموقعة الأخيرة فى البلاد العربية وهو بنصه .

« افتخار الأماجد الكرام ذوى الاحترام الحاج احمد بك . غب السلام التام بمزيد العز والاكرام نبدى إليكم :

إنه نهار الأحد الواقع فى ١٢ ربيع أول سنة ١٢٤٨ قد لاقت حلول ركابنا بالعساكر المنصورة إلى مرحلة خان قراموط لأجل ضرب عساكر المحتشدين فى بوغاز بيلان .

وفى الساعة الستة باليوم المذكور قد تحرك ركابنا من مرحلة الخان المذكور بالعساكر المنصورة وآلة الحرب المهولة حيث ان البوغاز المرقوم المتحصنين فيه بالقرب من المنزلة التى تحول ركابنا بها

وفى الساعة التاسعة قد كانت المصادمة فى عساكر الدشمان وابتداء ضرب الأطواب عليهم .

وبخصوص تحصينهم بعمل الطوابى وعسر الطرقات هـذا جميعه ما أفادهم شيء سوى انه فى مسافة ساعتين زمان الذى تبقى منهم بعد الذين قتلوا وانمسكوا باليد ما بين مجروح وقتيل قد فروا هاربين وللنجاة طالبين مهزومين إلى ناحية أدنه عن طريق اسكندرونه وتركوا أطوابهم وموجوداتهم فعند ذلك حالا صدر أمرنا بتوجيه خيالة العساكر المنصورة الجهادية والعرب لأجل اتباع أثرهم ومسكهم جميعاً بحيث انه لا ينفذ منهم أحد وبحوله تعالى لابد من حصول المراد وتدمير الجميع ، فبناء على ذلك أصدرنا إليكم مرسومنا هـذا لكى بوصوله تعلنوا البشائر إلى جميع المقاطعات لكى يكونوا جميعاً حائزين على السرور والفرح على النصرة العظيمة والمنة الجسيمة ليكونوا دائما مداومين بالدعوات الخيرية بدوام بقاء هذه الدولة السعيدة بوجود دولة أفندينا ولى النعم والدنا عزيز مصر المعظم .

فبناء على ذلك أصدرنا لكم مرسومنا هذا اعلموه واعتمدوه غاية الاعتماد »

وبعد استيلاء ابراهيم باشا على بيلان أرسل إليه مفتيها السيد محمد واثنان من كبارها هما أحمد افندى والحاج اسمعيل اغا أخو محمد باشا أحد القواد الترك الكتاب الآتى :

« ياصاحب السعادة

أمام اقدامكم نقدم خضوعنا والفرح الذى دخل على قلوبنا بوجودكم لهو فرح عظيم ينسينا جميع الآلام التى أصابت مدينتنا مدة وجود جنود الأعداء فيها فهؤلاء الجنود لم يبقوا على شىء . فمنازلنا وأموالنا ومواشينا وغلالنا نهبت ولجأنا إلى الجبال وقاية لحياتنا ومن هذه الجبال رفعنا الدعوات لنصر جيوشكم ولنجاح مقاصدكم فى إنقاذ بلادنا .

فاسمحوا لنا أن نتقدم إليكم بأشخاصنا لنكرر لكم تأكيد عواطف محبتنا وعرفان الجميل الذى نضمره لكم من زمن بعيد

وأرسل متسلم بيلان وأخوه مصطفى باشا الكتاب الآتى :

ياصاحب السعادة

« منذ عشرين سنة ونحن نود الانخراط فى سلك خدمة عزيز مصر ولم نتوان عن رفع الدعوات لنجاح بيتكم الكريم حتى أسعدنا الحظ بأن وصل إلينا خبر وصولكم إلى هذه البلاد التعسة وتخليصها من أيدى غاصبها

ولقد فعلنا كل ما كان بامكاننا فعله لتنفيذ الأوامر التى شرفتمونا بها وإذا كنا قد عجزنا عن المجىء قبل الآن لنقدم لسعادتكم الخضوع الواجب فلأنه قبض علينا الظالمون ووضعونا تحت أنظارهم لذلك أخرنا إلى اليوم هذا العمل المفرح الذى كنا بانتظاره » اهـ

الفصل الخامس

ماذا فعل الأسطول المصرى

تولى محمد على مصر فى سنة ١٨٠٥ ورد الانكليز عنها فى سنة ١٨٠٧ وعرف أن حكما أو ولاية أو ملكا مستقلا لا يستند إلى القوة لهو ملك زائل ضائع. ولم يخطر له أن يستقل عن تركيا كل الاستقلال ولكنه خطر له أن يجعل نير سيادتها عليه خفيفا جهد الطاقة — كما يقول مؤرخوه — فبعد أن وحد حكم مصر وأزال حكم الاقطاع والمماليك. وجه نظره إلى تنظيم قوته البرية والبحرية: فبعد أن كان جيشه ٢٠ ألفا جعله بارشاد سليمان باشا ـ الكولونيل «سيف» ـ القائم تمثاله فى وسط القاهرة وفى الميدان المعروف باسمه ـ والجنرال ليفرون والجنرال بوايبه والكولونل جودان مئة ألف. فدرب على أحسن الأساليب والأنظمة الحديثة ووضع نظام القرعة ليكون الجيش مصريا بحتا ويتخلص من متطوعة الارناؤوط والجركس وسواهم ممن لا يستطاع الركون إليهم. ووجه عنايته إلى الاسطول كما وجه هذه العناية إلى الجيش ووكل إلى الأميرال بيسون إنشاء الأسطول كما وكل إلى الكولونيل سيف تأليف الجيش ولكن مصر الواقعة على البحرين الأبيض والأحمر بحاجة إلى أسطولين بحريين ومصر الجارى النيل فى وسطها بحاجة إلى أسطول نهرى ليصل عليه إلى السودان فأنشأ الأساطيل الثلاثة.

ولما كلفه السلطان باخماد ثورة الوهابيين الذين استفحل أمرهم فهدموا المساجد والمزارات والقباب فى الأماكن المقدسة وانتزعوا الزينات كالأوانى

والمصابيح والقناديل من الذهب الخالص و ٥٠٠ لوح من النحاس مصفحة بالذهب و ٢٠ سيفا مرصعا بالجواهر عدا الطنافس من الروضة المطهرة . وأخذوا اللؤلؤة الكبيرة وهى بحجم البيضة وكانت معلقة فوق الضريح الشريف . باسم «الكوكب الدرى». لما كلفه السلطان بإخماد فتنهم لم ير بدا من إنشاء أسطول البحر الأحمر فكان يعد قطع الأسطول فى الاسكندرية و يكلف عشرة آلاف بدوى بحملها إلى السويس حيث ركب ثمانى عشرة سفينة فى مدى شهرين فقط يتراوح محمول وحداتها بين مئة طن و ٢٥٠ طنا وكان العمال بالسويس أكثر من ألف عامل من أفرنج وأروام وجعل مخازن المؤن بالقصير ومخازن المهمات الأخرى بالسويس وكان محمد على يقطع المسافة بين القاهرة والسويس فى ١٨ ساعة وكانت القوافل تقطعها فى ثلاثة أيام .

ولما استفحل أمر الثوار اليونان ومزقوا جيش خورشيد باشا الذى كان يناوىء «محمد على» فى مصر وعدد هذا الجيش خمسون ألف مقاتل انتحر بعد الانكسار قائده ودمر اليونان المراكب التركية — طلب السلطان برسالة تاريخها ١٦ يناير ١٨٢٤ من محمد على أن يرسل جيشه إلى الموره لابادة العصاة ولما تلا بوغوص بك وزير خارجية محمد على على مولاه كتاب السلطان صاح فى وسط الديوان «فليضع الله جميع تيجان الأرض على رأسك . انك أهل لذلك وجدير به و إنك الآن بطل أفريقيا و بونابرتها» لأن استنجاد السلطان بالوالى كان أمراً عظيما جدا .

وفى ١٠ يوليو ١٨٢٤ قام الأسطول المصرى من الاسكندرية وهو مؤلف من ٦٣ سفينة حربية ومن مئة سفينة نقالة ترفع أعلام الدول ما عدا فرنسا ونقلت هذه السفن الأورط المصرية المنظمة على النظام الحديث وهى أربع أورط

وأربعة بلوكات من مهندسى الطرق و ٧٠٠ جواد بآمرة حسن بك ومدافع الحصار والميدان وكان اسمعيل آغا يقود الأسطول ويقود الجيش ابراهيم باشا

فبعد أن قهر ابراهيم الثوار بمعاونة الجيش التركى اتفقت الدول الثلاث فرنسا وروسيا وانكلترا على انقاذ اليونان .

وأبلغوا ذلك ابراهيم باشا فأجابهم ان الأمر للسلطان ولوالده ورفض السلطان وساطة الدول وصدر أمر محمد على لابراهيم بمواصلة القتال وأرسل إليه ٩٢ مركبا عليها أربعة آلاف جندى نظامى وكان أسطول ابراهيم مؤلفا من سفينتين كبيرتين سلاح كل واحدة ٨٤ مدفعا و١٢ فرقاطة كبيرة سلاح كل واحدة ٦٥ مدفعا و ٢٧ سفينة صغيرة و ٤١ نقالة فاجتمعت هذه السفن المصرية بالسفن العثمانية واصطفت على شكل هلال وفى ٢٨ أكتوبر ١٨٢٧ دخلت أساطيل فرنسا وانكلترا وروسيا بين الأسطولين المصرى والعثمانى ولم يبد منهم العدوان ولكن سفينة انكليزية تحرشت بنسافة تركية فوقع القتال بينهما وظل محرم بك قائد الأسطول المصرى على الحياد ولكنه اضطر للاشتراك بالمعركة التى دامت أربع ساعة وأنقذ ابراهيم باشا وأصاح من أسطوله سفينة كبيرة وست فرقاطات وعشر زوارق مساحة و ٣٥ مركب نقل — هذا كل ما بقى من الأسطول المصرى .

وفى شهر إبريل ١٨٢٩ وكل محمد على إلى المهندس البحرى سريزى ترميم أسطوله وإنشاء أسطول جديد بمعاونة المسيو بيسون وكان يستخدم فى بناء الأسطول أربعة آلاف عامل من رجال الصعيد الأشداء يرشدهم مائتا عامل أوروبى من عمال البحرية وإنشاء الحياض ودار الصناعة لصنع السلاح والذخائر ويشرف على العمل بنفسه فيكافىء المجتهدين ويوبخ ويعاقب المهملين حتى تمكن من أن يرسل لحصار عكا خمس سفن ضخمة سلاح كل واحدة

مئة مدفع ومن فرقاطات عديدة قطعت البحر على الامداد التركية فاسرت سفينتين روسيتين تحملان الذخائر والمؤن لعكا وسفينتين نمساويتين تحملان مثل ذلك لطرابلس وفرقاطة تركية وزورقين مساحين فى خليج الاسكندرونة ونقلت سفن الأسطول آلايين مصريين من الحامية المصرية فى كريد إلى سوريا

ولما اتجه السر عسكر حسين باشا بقوته من الأناضول إلى سوريا صدر الأمر السلطانى إلى قبطان باشا بأن يسير بالأسطول إلى الاسكندرونة وكان هذا الأسطول مؤلفا من سفينتين كبيرتين سلاح كل واحدة ١٤٠ مدفعا ومن أربع سفن سلاح الواحدة ٦٥ مدفعا ومن ٨ فرقاطات مختلفة الحجم ومن عشر طرادات صغيرة و ٨ زوارق مساحة وزورقين صغيرين ومركب بخارى و ٤٠ نقالة من مراكب الأمم الأخرى فأصدر محمد على فى ١٤ يوليو أمره إلى أسطوله بالخروج ومقابلة الأسطول التركى وكان أسطول مصر مؤلفا من ثلاث سفن سلاح كل واحدة مئة مدفع ومن خمس فرقاطات سلاح كل واحدة ٦٠ مدفعاً ومن فرقاطتين سلاح كل واحدة منهما ٥٢ مدفعاً ومن ٥ طرادات سلاح الواحدة من ٢٢ الى ٢٥ مدفعا ومن ٨ نسافات سلاح الواحدة من ٨ إلى ٢٠ مدفعا ومن ٢٠ نقالة و ٦ حرافات ومدفعية بقيادة عثمان باشا والأميرال وسطوش بك وكيله واستخدمت تركيا باخرتين نمساويتين وأخرى روسية لنقل أخبار الأسطول المصرى إليها واستخدمت مصر باخرة فرنساوية وأخرى انكليزية للغرض ذاته . وكان قيصر روسيا قد تظاهر بعداوة مصر فسحب قنصله من الاسكندرية وحرم على السفن الروسية خدمة مصر

ولما وصل الأسطول التركى إلى رودس انقسم قسمين قسم ليقل الرجال والمؤن الى جهة الاسكندرونة لتعزيز قوة السر عسكر وآخر لجأ الى لارانكا

فى سواحل قبرس و بعد قليل وصل الأسطول المصرى الى ليماسول فى الجانب الآخر من قبرس

وأخذ الأسطول المصرى زورقين حربيين من زوارق الأسطول التركى بلا قتال والتقت بعد ذلك فرقاطة مصرية بطرادة تركية سلاحها ٢٦ مدفعاً فقبضت عليها بلا قتال الا طلقة واحدة أطلقتها الطرادة

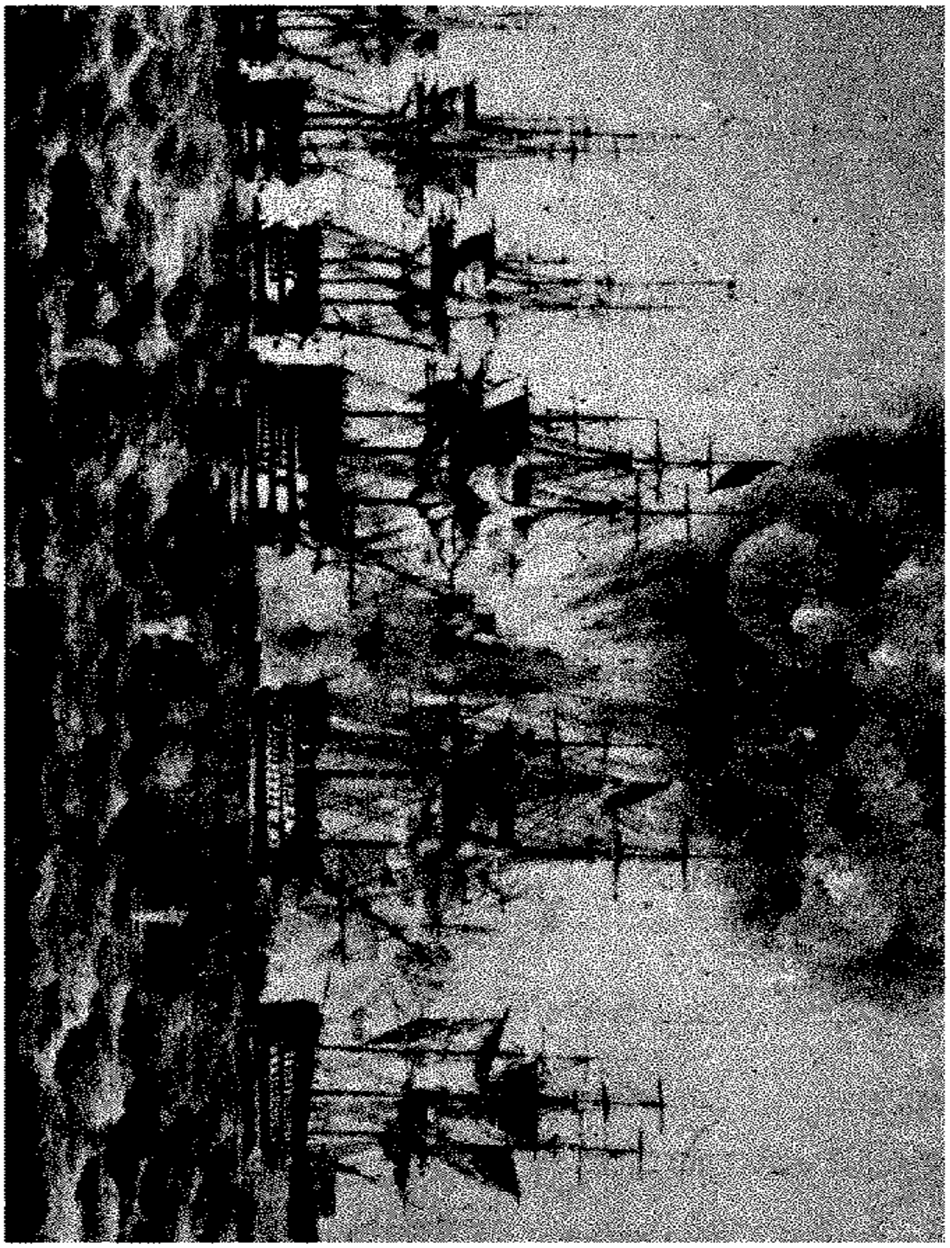
وكان عشرون مركبا قد أنزلت المؤن والذخائر فى الاسكندرونه فاستولى عليها المصريون بعد انتصارهم فى حلب لأن هذه المراكب وصلت متأخرة

والذى يؤخذ من تقارير بعض القناصل أن محمد على أصدر أمره الى أسطوله فى قبرص بأن يرقب الأسطول التركى ولا يهاجمه الا إذا حاول انزال الجنود فى الجزيرة وفى تقارير قواد السفن الأوروبية ان خليل قبطان باشا كان يتحاشى لقاء الأسطول المصرى وان هذا الأسطول انتقل من ليماسول الى لارانكا بعد خروج الأسطول التركى منها متجها الى سواحل كارامانيا حيث اتصلت به فى أغسطوس إحدى السفن الحربية الفرنساوية فقال قبطان باشا لقائد تلك السفينة انه لايتوخى قتال الأسطول المصرى إلا إذا اصطدم به لأن لأسطوله مهمة أخرى

وفى ١٨ أغسطوس التقى الأسطولان ولكنهما لم يقتتلا لأن الأسطول المصرى توارى تحت جنح الظلام بلا قتال ولما التقى قائد الطرادة الفرنساوية بالأسطول التركى فى ٢٤ أغسطس قال له انه يفضل أن يكون تحت حكم محمد على على أن يكون تحت حكم السلطان

وفى أوائل شهر سبتمبر أرسل محمد على مع قومندان البارجة الانكليزية التى كانت تنقل اليه الأخبار كتابا الى قبطان باشا يقول له فيه انه قد حان الوقت لحقن دماء العثمانيين وانه يود تلافى الخطب الذى يهدد السلطنة اذا رفض

السلطان أن يترك له حكم سوريا مقابل الاتاوة اللازمة كما كان يحكم تلك البلاد الباشاوات الذين تقدموه فارسل خليل باشا الرد بانه من رأى محمدعلى باشا و بأنه أرسل كتابه الى استامبول وسيرسل اليه الرد وطلب من محمد على أن يرسل.



الأسطول المصرى فى موقعة نوارين

اليه يوسف بوغوص بك لذ كانته و وعد قبطان باشا بالمجىء الى مصر اذا كان رد الباب العالى بالموافقة . و بعد تبادل هذه الرسائل مع قبطان باشا أمر محمد على باعداد الأماكن اللازمة لنزوله و لرسو أسطوله . وهكذا كانت الهدنة بين الأسطولين

ولما أبطأ رسول قبطان باشا بالمجىء أمر محمد على أسطوله بالعودة الى حالة الحرب فقبض الأسطول المصرى على مركبين من ثلاثة مراكب كانت تنقل « البقسماط » للأسطول التركى من سلانيك وكان محمد على يحاول تخويف قبطان باشا بكل الطرق والأساليب ولعلمه أن قنصل النمسا ينقل الأخبار الى الباب العالى كان يصرح أمامه بأنه سينزل آلايان فى خليج مرماريس و يركب هو ذاته البارجة الجديدة القاهرة و يأمر الأسطول بأن يضرب الأسطول التركى بحراً كما تتولى البطاريات المصرية بقيادة الضابط ريمى الذى اشتهر بحصار عكا براً ضرب الاسطول التركى من البر ولما وصل الى قبطان باشا أن الباب العالى قرر تعيين خلف له فى قيادة الاسطول عاد بأسطوله الى الدردنيل وذهب الاسطول المصرى الى خليج السودا بكريد ثم تلقى الامر بالعودة الى الاسكندرية لاصلاح عدده

وظل محمد على مجداً فى تعزيز أسطوله حتى صارت السيادة على شرقى البحر المتوسط للاسطول المصرى وحده وحرم الترك كل مساعدة من جانب أسطولهم الى أن جمع السلطان فى سنة ١٨٣٩ جميع مافى الدولة من القوات والقوى البرية والبحرية فوجه جيشه ضد ابراهيم وأخرج أسطوله لضرب الاسكندرية بقيادة أحمد فوزى باشا فهدم ابراهيم آخر جيوش السلطان فى « نصيبين » وجاء الاسطول التركى الى الاسكندرية فسلم لمحمد على وظل هناك الى ما بعد عقد الصلح بل كان تسليم الاسطول من أوائل شروط الصلح

وتوفى السلطان محمود وخلفه ابنه السلطان عبد المجيد وهو فى السابعة عشرة من عمره

هذا ولا تزال بقايا أسطول محمد على فى بواخو الشركة الخديوية كما صارت المراسى ملكا لهذه الشركة وأفضى تألب الدول على مصر إلى حرمانها من النصر الجيش والأسطول ورفع علمها فوق البحار وانتهت على تركيا بفقدان جيشها وأسطولها وسلطانها فهل لمصر اليوم أن تستعيد استقلالها وقواتها البرية والبحرية والنيلية بعد ماتركت ٣٩ باخرة فى السودان بعد الجلاء ثم تعززها بالقوة الجوية ؟ ؟

الأمر بيد الأمة بعد الله



باغوص بك يوسفيان

الفصل السادس

آخر المعارك فى أرض سوريا — الزحف على قونية وفتحها — على ابواب استمبول — تحرك السياسة الأوروبية — تدخل اوروبا وفرضها الصلح اتفاق كوتاهية

كانت معركة مضيق ببلان بين حلب وانطاكية فى ٢٩ يوليو أشد المعارك وأخرها فى أرض سوريا . و بعد انتهائها سلمت انطاكية والاسكندرونة ووصلت حامية اللاذقية فسلمت وقد تركها قائدها عايش باشا لاجئاً إلى إحدى الجزر باموإله . وقد عرفنا أن ابراهيم باشا غنم فى ماغنم فى الاسكندرونة حمولة ١٧ مركباً كانت ترافق الاسطول العثمانى بقيادة قبطان باشا وتحمل المؤن والذخائر إلى جيش السر عسكر حسين باشا

على أن عباس باشا ظل يطارد العساكر التركية المنهزمة ومعه الفرسان العرب فلما وصل إلى بياس انتصر على حاميتها وأسر منها ١٩٠٠ رجل

ثم تقدم جيش ابراهيم باشا نحو أدنه لأنها كانت مرمى انظار محمد على لشدة حاجته إلى الخشب لبناء المراكب فاحتل ابراهيم باشا طرسوس ودخل أدنه ذاتها فى ٣١ يوليو ١٨٣٢ وهناك تلقى ابراهيم الأمر من والده بالوقوف لأنه بلغ الغاية التى كان يرمى اليها من الزحف أى الوصول إلى آخر حدود البلاد العربية وأول بلاد الأناضول أى جبال طوروس

وقف ابراهيم عن الزحف ولكنه أرسل الآيين إلى أورفه التى كانت قد قدمت له طاعتها وأرسل مع الالايين قوة من الفرسان العرب ليرقبوا الطريق من أرضروم وسيواس وديار بكر فاحتلوا مدينة مرعش وأرسل قوة أخرى نحو

الفرات — وان لم يكن يخشى أية قوة تركية هناك لأن العراقيين ثاروا على واليهم



الاسطول المصرى فى نوارين

داود باشا فقتلوه وقتلوا معه جميع أنصاره لشدة ظلمه وجوره وكانوا كسواهم من العرب فى صف ابراهيم باشا —

ثم ظل ابراهيم من ٣٠ يوليو إلى ٢١ ديسمبر ف موقف الدفاع لأن محمد على كما قلنا كان يريد جس نبض الدول ليعرف هل بامكانه الاعتماد عليها لتنيله سوريا ويظل تابعاً للسلطان على نحو ما كان قد اقترح على فرنسا وانكلترا بعد دخول جيشه مدينة حلب . وكما كان قد كتب إلى قائد الأسطول التركى ولم يتلق جوابا

أما السر عسكر حسين باشا الذى كان موضع ثقة مولاه السلطان فأغدق عليه انعاماته وجعله قائداً عاماً لجيشه ولقبه بالمشير الأكرم وولاه مصر وكريد وبلاد الحبشة ، فقد كان عند نشوب معركة بيلان واثقاً بالنصر جالساً جلسة الملوك فى خيمته يتلقى مظاهر الاجلال والاكرام ، ولكنه لم تمض ساعتان على نشوب القتال حتى بات طريداً شريداً بين المضايق والآكام . فلم يقفوا له على أثر ولا سمع عنه أى خبر ولكنه شاع عنه الكثير مما لم يثبت منه شىء ، فقال فريق انه استأجر مركباً يونانياً ففر بأمواله وأموال الجيش إلى إحدى الجزر ، وقيل انه لجأ إلى قرية صغيرة فى بورصة ، وقال آخرون ان رجاله فتكوا به وأخفوا أثره

والظاهر أن الباب العالى صدق الرواية الأولى فكلف إحدى السفن الانكليزية أن تبحث عنه فى الجزر وتستعيد منه الأموال . ولكنه ظهر فى النهاية أن الرجل أصيب بالرمد الصديدى وفقد نظره فى إحدى مزارع ولاية بروصة .

كانت عين محمد على متجهة إلى انكلترا وحدها لمعرفته أن فرنسا تؤيده فى أن يكون والى سوريا ، وأن الروسية تظهر العداوة له حتى اقترحت ارسال جيش روسى لقتاله . وأن النمسا تخدم سياسة الباب العالى

أما انكلترا فانها لزمت الصمت التام لأن سياستين قويتين كانتا تشدان أطراف الخطة التى يجب عليها اتباعها . فالخطة الأولى هي أن تدع محمد على يؤسس الدولة العربية الفتية القوية لتكون حاجزاً فى وجه التيار السلافى الذى قضى على الدول بأن تصون تركيا من الضياع لصد ذلك التيار ولكن تركيا ظهرت يومئذ بمظهر الشيخوخة والعجز

والخطة الثانية هى الاحتفاظ بتركيا وتقويتها لتظل ذلك الحاجز وهدم الامبراطورية المصرية النابتة لأنها إذا عاشت تمتلك آسيا وافريقيا وبذلك تقوم حاجزاً قويا على طريق الهند الذى كانت قد زحزحت عنه نابليون فى سنة ١٧٩٨ وجاء محمد على النابغة الأمى — كما يسمونه — ليتم خطة نابليون

تانك هما الخطتان اللتان كانتا تقضيان على انكلترا بالسكوت إلى أن تعرف الجهة التى تتجه إليها

بينما كان محمد على يريد تنظيم عمله على اتجاه السياسة الاوربية — وقد كانت هذه السياسة غامضة من جانب انكلترا للسبب الذى بسطناه — كان ابراهيم يرى السياسة بالحزم وأخذ الأمور بالقوة والقوة فى يده وايقاف الدول أمام الامر الواقع . لذلك كان يستأذن والده بالزحف على قونيه بل على الاستانة و يستأذنه فى أن يحمل خطباء المساجد على القاء الخطبة باسمه فكتب محمد على الى ابنه ابراهيم فى ٨ سبتمبر مايلى

« تقول لى فى كتابك انك تريد أن « تسك المعدن وهو حام » وانك تريد أن يخطب باسمى فى جميع المساجد والمعابد

« فاعلم ياولدى انا لم نصل الى مركزنا الذى نشغله الآن الا بقوة الوداعة وخفض الجانب . فانه يكفينى أن أحمل اسم « محمد على » خالصا من كل رتبة و زينة فهو أكبر لى من جميع ألقاب السلطنة والملك لأن هذا الاسم وحده هو

الذى خولنى الشرف الذى يجللنى الآن فكيف أستطيع ياولدى أن أتركه الى سواه لا ياولدى انى أحفظ اسمى « محمد على » وأنت ياابنى تحفظ اسمك « ابراهيم » وكفى وعليك رحمة الله و بركاته »

ولما عرفت فرنسا بخطة ابراهيم أبلغت المسيو ميمو قنصلها لدى محمد على بأن يبلغه :

« ان الحملة الجديدة بعد نجاح الأولى نجاحا باهراً تفضى الى توزيع نطاق العمل الذى اختطته مصر لنفسها عند تجريد حملة سوريا وتكون نتيجة ذلك جعل مصير تركيا فى كفة الاقدار وهذا مالايخلو من الخطر عليك »

وأبلغت الباب العالى فى الوقت ذاته أن اصراره على القتال لايوصله الى نتيجة لضعف قوته دون قوة محمد على التى تتزايد بحراً و براً

هذا البلاغ أبلغته فرنسا لمحمد على ولكن عين ابراهيم كانت على الترك بعد احتلاله أطنه ومعابر جبال طوروس لأنهم أخذوا بتحصين « تشفت خان وأولو قشلاق » و يبدون النشاط فى كل جهة حتى أن الباب العالى رفض وساطة فرنسا بحجة أنه لايستطيع المصالحة مع وال اعتبره بالأمس ثائراً وعاصياً وأصدر فتوى بكفره

ذلك كان الرد الرسمى مع أنه أرسل إلى محمد على أكثر من مرة يمنيه بالصلح والرضا و يطالب منه الحضور للاستانة فيلمح محمد على فى ذلك الخديعة ونصب الشراك

فقد ذهبت إلى الاستانة زهره هانم أرملة الأمير اسمعيل ثالث أولاد محمد على لزيارة والدها عارف افندى قاضى عسكر الأناضول فقالوا انها رسول محمد على للتقرب من السلطان ورجال الدولة بواسطة والدها وقد توصلت الأميرة إلى معرفة الحقيقة وهى أن السلطان لايريد الصلح وانه لا يستمع نصيحة أحد

فيه لاعتماده على روسيا وانكلترا مع كل أعماله فى هذا السبيل يريد منها المماطلة والتسويف ليؤلف قوته الجديدة وأرسل محمد على السفينة الحربية « النيل » لتعود عليها إلى مصر فأتحفها السلطان بالهدايا النفيسة وتبرع بالمال لرجال السفينة وأرسل معها أحمد فوزى باشا أحد أميرالية البحر فلما وصلت السفينة إلى الاسكندرية تغافل محمد على عن وصول فوزى باشا ولكنه أمر كاتم سره حبيب افندى باكرامه وظل فوزى باشا فى الاسكندرية إلى أن تلقى أمراً من السلطان بالسفر إلى القاهرة ومكالمة محمد على بالصلح وجمع السلطان ديوانه وأبلغهم ذلك فكان جواب أحدهم برتو باشا أن ذهاب فوزى باشا إلى مصر لمقابلة محمد على كذهاب الحمل إلى الذئب الكبير المعمر فى وكره ليعوده و يتمنى له الصحة فهل تكون للحمل من أمنية إلا السلامة من مخالبه ؟

ثم اتفقت كلمتهم على ارسال صارم افندى فلما استدعى فوزى باشا إلى الاستانة أرسل إلى محمد على يقول : « إياك وخفض الجناح لمن يرسل اليك واحفظ عليك نفسك »

ووصل صارم افندى بحاشية كبيرة فاكرم محمد على وفادته وكان يتردد على محمد على ليقنعه أولا بالذهاب إلى الاستانة ثم عرض عليه ولاية عكا وطرابلس فأجابه محمد على أنه يطلب بقاء مافتحه من بلاد الشام فى ولايته وولاية ذريته على أن يدفع الاتاوة لجلالة السلطان

ولما عاد صارم افندى إلى الاستانة تلقى محمد على أن السلطان يوليه مصر وعكا وطرابلس و يولى ابراهيم ولاية الحرمين الشريفين ، فأدرك محمد على أن المراد التفريق بينه و بين ابنه كما أرادوا يوم أنعم السلطان على ابراهيم برتبة فوق رتبة والده مثل هذا التفريق ولكن الخدعتين لم تجوزا على محمد على ولا

على ابراهيم وكان جواب محمد على أنه ينتظر مندوباً من لدن السلطان ليرسل لمناقشته سامى بك و بوغوص يوسف سكرتيره فلم يتلق جوابا

لما احتل ابراهيم باشا أدنه أبقى معه من جيشه فيها ١٢ ألفاً من المشاة والفرسان وأرسل قواته لضبط معابر جبال طوروس وما كان وقوفه فى أدنه إلا إطاعة لأمر والده الذى أراد أن ينهى الخصام والقتال مع السلطان على أن تكون سوريا فى ولايته وعلى أن تكون الولاية متوارثة فى بيته مقابل اتاوة يدفعها فى كل سنة لتركيا

على ان ابراهيم لم يضع الوقت سدى فقد انصرف إلى إصلاح أمور جيشه وتعزيز ذلك الجيش وكتب الموسيو ميمو قنصل فرنسا فى الاسكندرية إلى حكومته فى ٢٤ سبتمبر يقول : « ان الأسباب التى دعت ابراهيم إلى الوقوف فى أدنه و إلى عدم متابعة نجاحه هو انتظار الجواب من والده على بعض المسائل وأن والده ينتظر الجواب على مساعيه لانهاء القتال . ولكن هذا القائد الذى لا مثيل لنشاطه وحزمه يستخدم مدة إقامته فى ذلك الاقليم لاستخراج خيرات غاباته الكثيفة لأن فى احراج أدنه من الأخشاب الصالحة لبناء المراكب ما لايوجد فى سواها ودار الصناعة فى الاسكندرية بحاجة شديدة إلى ذلك وقد أرسل عدد كبير من عمال دار الصناعة لاختيار الأخشاب الصالحة وجمع ابراهيم سكان ذلك الاقليم لقطع الأشجار التى يرى عمال دار الصناعة قطعها ولفتح الطرقات فى أنحاء ذلك الاقليم ونقل الخشب و ينتظر أن تصل إلى الاسكندرية بين ساعة وأخرى مشحونات كبيرة »

« وأما تعزيز الجيش فهو موضوع اهتمامه فاذا استؤنف القتال كان

جيشه ١٢٠ ألفاً حتى قال لى محمد على منذ بضعة أيام انه ينوى أن يجعل جيشه ٢٥ ألايا من المشاة بدلا من ٢٠ ألايا و ١٥ ألايا من الفرسان بدلا من عشرة ولا يدخل فى هذا الحساب فرسان العرب المصريين ولا رجال البدو السوريين وقد أدمج ابراهيم فى جيشه من الأسرى الترك أربعة آلاف أسير »

ظل محمد على ينتظر رد الباب العالى على كتابه الذى كلف قبطان باشا بايصاله فوصل هذا الرد فى ٢٤ سبتمبر بامضاء خسرو باشا إلى قبطان باشا عدو محمد على لأنه أسقطه من ولاية مصر ولم يحمل هذا الرد أحد ضباط الأسطول التركى بل باخرة مالطية وهذا الرد من خسرو باشا إلى قبطان باشا يفهم منه أن الباب العالى يرضى ضم الشام إلى ولاية مصر على الشروط التى عرضها محمد على ولكنه يود أن يعرف الضمانات التى يقدمها محمد على على حسن نيته وعلى تنفيذ عهوده فرد محمد على ان وعده أكبر ضمانة وان كلمته كافية وكرر قوله انه يود وضع حد للقتال وسفك الدماء وانه ليأسف كل الأسف أن يكرهه الباب العالى على أن يذهب إلى ما وراء الحد الذى وضعه نصب عينيه

وفى أثناء وقوف القتال الذى كان شبه « هدنة » كانت الصحف التركية التى تنشر باللغات أوربية تذيع أسوأ الأنباء عن جيش ابراهيم وعن حكومة مصر فكانت أقوال هذه الصحف تترجم لمحمد على فيرد عليها بالتركية ولكنه رأى ذلك غير كاف فأتى ببعض المحررين الفرنساويين من باريز وأنشأ لهم جريدة بالفرنساوية للقيام بهذه المهمة

و بعد وصول كتاب خسرو باشا استدعى محمد على قنصل فرنسا وقال له « نحن لم نتجاوز أدنه عملا بنصيحتكم ونحن نبقى فيها إلى أن نعرف رد الباب العالى إلا إذا حكمت علينا الظروف وللظروف أحياناً أحكام لاترد فنحن نريد السلام فاذا أرادوا الحرب فانى أنهيها كما عرفت أن أبتديها »

أما استامبول فانها كانت تماطل وتسوف حتى يحل فصل الشتاء وتستطيع

تأليف جيش كبير جديد ولكن ابراهيم كان ينتفض لفروغ صبره فأرسل إلى والده يقول له : « انه ليس هناك لقطع الأخشاب و رؤوف باشا يجمع الآن بقايا الجيش التركى فى قونيه » فاستأذنه بأن يزحف على قونيه ببعض الالايات ليفرق بقية ذلك الجيش وحدث محمد على القناصل بذلك وقال لهم « أما الآن فانه لايفعل أكثر من ذلك وهذا الجيش يعود بعد قضاء مهمته إلى أدنه فاذا لم تقبل الوساطة واذا ظل الباب العالى على المطل والتسويف فانه لاتوجد قوة تمنع ابنى المتقد حمية من الوصول الى أشقودره فاذا لم يستطع الوقوف هناك لقلة المؤن فى بلاد خربها الظلم والجور فلا أستطيع أنا أن أقول ماذا تكون النتيجة »

ولكى نعرف الروح التى كانت سائدة فى الأستانة فى ذاك الحين وتحول ولاة الأمور عن رؤية الحقائق نورد خبرا أرسله البارون دى فارين سفير فرنسا الى حكومته فى ١٩ اكتوبر قال :

« جاءنى اليوم الأرمنى كاساس ارتين مدير دار الضرب وهى الدار التى توزع الأرباح الكبيرة على الباب العالى وعلى السراى وهو رجل مقرب وذو يد فى شؤون الدولة وله نفوذ كبير .

فقال لى ان السلطان قال له منذ بضعة أيام ان ابراهيم باشا يريد ابرام الصلح معه ولكنه يشترط لابرام الصلح قطع أربعة رؤوس: رأس السر عسكر خسرو باشا ورأس مصطفى باشا ورأس المفتى الذى أصدر الفتوى ضد والده ورأس كاساس أرتين لأنه منع تداول النقود التى ضربت فى مصر وهو لايعجب من ذلك لشدة اخلاصه للسلطان ولكنه عند ماسمع هذا الكلام من السلطان ذاته طار النوم من عيونه وأرسل إلى المسيو اليون صديقه وسبب نعمته يوسطه لدى لأحول نقمة محمد على عنه وانه لايهمه المال فاذا أنا شئت ارسال رسول الى محمد على فانه يحمله اليه الهدايا فاظهرت له استغرابى من ذلك ولم أصدقه فعاد اليه روعه وشكرنى

وهذه صورة مما يجرى هنا من ضروب الاختراع وطرق الجواسيس وافساد الجو بين محمد على والسلطان

ولما كان الباب العالى يريد الاستناد الى احدى الدول لمقاومة محمدعلى — وهو يخشى روسيا و يخشى ان هو حالفها أن يلقى بنفسه فى فم الاسد — عرض السلطان وعرض ريس أفنـدى — الصدر الاعظم — على سترا فورد كانتج سفير انـكلترا فى ١٢ أغسطس وهو مسافر الى لندن ابرام محالفة دفاعية بين انـكلترا والباب العالى وغرض الباب العالى من هذه المحالفة المساعدة الادبية والمادية ضد محمد على و وصل ماورويانى سفير تركيا فى فينا الى لندن فى ٣ نوفمبر لجدد هذا العرض وزاد عليه أن الباب العالى يتحمل جميع النفقات و يخول انـكلترا جميع الامتيازات التجارية التى تريدها فاجابت انـكلترا أنها لاتستطيع الرد العاجل على هذه الاقتراحات . وفى ١٣ ديسمبر وصل الى لندن نامق بك السكرتير الخاص لجلالة السلطان وهو يحمل مقترحات جلالته فردت انـكلترا أنها لاتستطيع الاندفاع فى عمل عسكرى وانها تفضل الانتظار

* * *

بعد انتظار ثلاثة أشهر بلا عمل ولا حركة فى ميدان القتال و بدون نتيجة من الوجهة السياسية صمم محمد على على ترك ولده ابراهيم يزحف على قونيه لاعتقاده بأن فتح قونيه يفضى الى الثورة على السلطان لذلك أصدر أمره إلى ابراهيم بأن يعود من قونيه بعد دخولها ولـكن ابراهيم لم يكن فى ذلك على رأى والده . فوالده كان يقول بترك الرأى العام يفعل فعله فى الاستانة وأما هو فـكان يقول بقيادة الرأى العام الى مايريد

ففى ٢٢ أكتوبر كتب محمد على فى ذلك إلى ابراهيم فرد عليـه ابراهيم فى ٣ نوفمبر يقول :

« يجب علينا حسب أوامرك أن نتقهقر إلى الوراء بعد الاستيلاء على قونية فالشائع أن الصدر الأعظم يزحف علينا بقوة كبيرة فاذا نحن تقهقرنا عزوا ذلك إلى الجبن والخوف وعلى عجزنا عن مقابلته وفوق هذا كله فان الصدر الاعظم يغنم الفرصة للزحف على قونيه وقد يتجاوزها للحاق بنا مذيعاً خبر تقهقرنا ومن يدرى مايكون من وراء ذلك فقد ينضم اليه الشعب وقد تثور سوريا والأناضول علينا و يظل الغرض من تقهقرنا خفياً لايفهم و بناء على ماتقدم لاينبغى لنا أن ندع الفرصة تفوتنا فنحن نذهب إلى قونيه و نشتت العدو وننتظر فيها وصول الصدر الاعظم لنقهره إذا أراد مهاجمتنا لذلك أطلب منك ياوالدى أن ترسل الايين من المدد فى الحال »

« وسأطلب من خادم الفتوى فتواه فى إعلان عزل السلطان »

فتلقى ابراهيم باشا من والده فى ١٣ نوفمبر الامر القاطع بألا يتجاوز قونيه « لأن التقدم إلى ماوراء قونيه فى الظروف الحاضرة لاتنظر اليه الدول بعين الرضا . وفى ١٦ رد محمد على على كتاب ابراهيم باشا الذى كان قد أرسله اليه فى ٣ نوفمبر فاقره على رأيه ولكنه يحرم عليه تجاوز قونيه لانه لا يعرف بوجه قاطع رأى الدول . أما الفتوى بخلع السلطان فقد قال محمد على لابراهيم انها مناقضة لمصلحة مصر فى الوقت الحاضر

ثم سلم بعد ذلك باستصدار الفتوى على شرط أن تكون صادرة من بلاد السلطان لا من مصر حتى يقال ان الشعب هو الذى أسقط سلطانه « ولا يعترض أحد علينا » ولكن الحجة لم تقنع ابراهيم باشا « لأن الأمة لاتملك المقدرة على العمل فالواجب أن نعمل نحن ثم نطلب ثقتها »

فى ١٤ أكتوبر بدأت طلائع ابراهيم بالاتجاه إلى قونيه فتقدمت فرقة من جيشه النظامى إلى نمرود وأخرى من العربان إلى « تشفت خان » فانسحب الترك بلا قتال إلى اركلى وفى ١٥ أكتوبر دخلت قوة ابراهيم أركلى وظلت فيها إلى

٢٠ نوفمبر ثم نهضت تريد قونيه وقابلتها قوة أخرى من كرمانيا وقبل الوصول إلى قونيه أخلاها الترك فارسل فى أثرهم الفرسان فغنموا الذخائر والمؤن و بعض المدافع و بعد أن دخل قونيه أرسل قوة ومعها فرسان العرب فأدركت القوة المصرية الجنود التركية فى طريق آك شهر فأخذوا بعض الأسرى وعادوا إلى قونيه التى أخذ ابراهيم فى تحصينها

وفى ١٨ ديسمبر ظهرت طلائع الجيش التركى غربى قونيه بقيادة رؤوف باشا فدار القتال بينه و بين ابراهيم باشا ففرق جيش ابراهيم طلائع الترك وغنم ثمانية مدافع وأسر منهم الفين وتجدد القتال فى اليوم التالى فأسر ابراهيم ٧٥٠ مقاتلا ومعهم كريدلى محمد باشا أوغلو وفى مساء ذلك اليوم تقدم ٥٠٠ ارناؤوطى متطوعين فى خدمة جيش ابراهيم و بعد ذلك تلقى ابراهيم باشا الاخبار بأن رشيد باشا الصدر الأعظم قادم بجيش كبير لقتاله فاتخذ الأهبة لملاقاته

وفى ٢٠ ديسمبر تم النصر لابراهيم باشا على جيش رؤوف باشا فلم يبق لذلك الجيش من أثر وأرسل الخبر إلى والده فأمر باقامة الأفراح وإطلاق المدافع ثلاث مرات فى النهار من جميع القلاع والطوابى مدة ثلاثة أيام . ولكن محمد على ظل متردداً فى الزحف إلى الأمام ليعرف رأى انكلترا وكان يعتمد فى ذلك على المستر بريجس صديقه والمستر بريجس كان فى الماضى قنصلا لدولته فى الاسكندرية ولم يكن محمد على يثق بالقنصل المستر باركر و يعده خصما لمصر كقنصل روسيا قبل أن تستدعيه حكومته . وكان يستند فى الأوامر التى يرسلها إلى ابنه ابراهيم بالارتداد عن الأناضول إلى آراء المستر بريجس . وكان محل بريجس فى لندن يقدم لمحمد على حاجاته من انكلترا و يأخذ مقابل ذلك القطن والحاصلات ولما كتب محمد على إلى ابراهيم بألا يعان سقوط السلطان كما كان قد اقترح عليه و بأن يرتد الى قونيه استند أيضاً الى آراء المستر بريجس ، وكان قد وصل الى

ابراهيم ان السلطان عين رشيد باشا صدراً أعظم وولاه قيادة جيش كبير لقتاله فـكتب الى والده فى ٨ رجب ١٢٤٨ يقول :

يا والدى

« انك تصدر الى الأمر المطاع بناء على تقرير المستر بريجس وغضب القومندان الروسى بألا أعلن سقوط السلطان و بأن أقف دون تجاوز قونيه

« فيا والدى ان السياسة السليمة هى قبل كل شئ درس الحالة كما هى وتقدير نتائجها ثم الاقدام بعد ذلك على العمل بكل حزم دون التفات الى زيد أو عمرو .

« فمنذ عشرين يوما أبحت لى اعلان سقوط السلطان والآن تحرمه على فمهما كانت فائدة الرجوع وتغيير الرأى من جانبنا ، لا يجوز لنا أن ننسى أن جيشاً قويا باسلا مثل جيشنا لا يتحمل سياسة التردد وجس النبض وهى السياسة التى لا تعرف الانتفاع من وراء الواقع على أن هذا الجيش لا يستطيع الوقوف دهرا طويلا مكتوف الأيدى ، ونحن ذهبنا الى قونيه اتباعا لأوامرك فكيف يكون باستطاعتنا العودة على أعقابنا بينما الصدر الأعظم يزحف علينا بجيش قوى حسن النظام كثير المدافع

« فهل تظن يا والدى أو ترى أن مصلحتنا فى الوقوف فى قونيه أو فى الارتداد عنها ؟؟ وفى حالة انتصارنا على جيش الصدر الأعظم يكون قادراً على الارتداد الى الوراء ثم لمشمت جيشه والارتداد الينا اذا نحن لم نقتف آثاره بعد النصر ؟ ؟ وهل يجوز أن يخطر بخاطرنا أن يكون الشعب الأناضولى فى جانبنا وقد حكمه الترك ستة قرون اذا نحن ظهرنا بمظهر التردد ؟؟ الا يعد تقهقرنا غلطة عسكرية فظيعة ؟ لقد أمرتنى قبل الآن بأن أقف فى حلب ثم سمحت لى بالتقدم الى كولك بوغاز والى قونيه ، فدعنا الآن يا والدى نهدم جيش العدو الأعظم ، واعلم

أن هذه البلاد وجوها لا تشبه أرض مصر ولا جوها فهى ليست صالحة فى كل وقت للأعمال العسكرية . وفوق هذا ان مايقال فى مصر لايمكن تطبيقه على الحالة الفعلية هنا ، فلا يجوز إذن الأخذ بتقارير المستر بريجس ولا بملاحظات قومندان سفينة

« ومهما يكن من الأمر فانى أرى من مدعاة الأسف ان اضطر مرة أخرى للانتظار عشرين يوماً أى إلى أن أتلقى كتابك وأوامرك الخ »

و بالرغم من هذا الكتاب كتب محمد على إلى بريجس فى ١٢ ديسمبر يقول :

«إن سكوت الانكليز هو من بعض الوجوه مفيد لمصر ولكنهم على مايظهر ليسوا ميالين لتقدم ولدى ابراهيم نحو الاستانة فى الظروف الحاضرة

« ومهما يكن من الامر فانى لاأود أن أعرف هل دخولنا استامبول لايتفق مع نظر الحكومة الانكليزية ؟

فاذا أرادت انكلترا أن نقف فى موقفنا الحاضر فانى قادر على أن أكره النفس على ذلك »

وفى أبان ذلك وصل إلى مصر القومندان بوتينيف الروسى قائد الطرادة باريز يطالب محمد على بمحمول سفينة روسية ضبطها الاسطول المصرى ولما كانت العلائق الرسمية مقطوعة لم يحي الميناء ولم تحيه وقدمه قنصل توسكانا لمحمد على ولما طلب منه ما جاء لأجله أجابه ان الامر متفق عليه مع القناصل بأن نصادر المحمول إذا كان لتركيا وندفع أجرة السفينة وإذا كان المحمول للأفراد كان عليهم اثبات ذلك. فارتضى بالجواب. فغنم محمد على الفرصة و بسط له رأيه فى الاتفاق مع الباب العالى ثم أراه دار الصناعة فقال لمحمد على « ماسمعت بمثل عملك إلا فى القصص والحكايات » وهذا القومندان كان شقيق سفير روسيا فى الاستانة يحمل الرسالة إلى أخيه بل قيل ان أخاه أرسله

ليطلع على أعمال دار الصناعة وأرسل محمد على إلى ابراهيم باشا المدد المتوفر من فرقتين أتمتا تعليمهما ولم يبق من الجيش النظامى فى مصر سوى ثلاث فرق وكان الصدر الاعظم يقول للسفراء أن ابراهيم كلما بعد عن مركزه ضعفت قوته ونحن ننتظر ضعف هذه القوة. وهو الآن على بعد ٢١٠ أميال من مصر — لنضربه الضربة القاضية. وكان يريد بهذه الضربة القاضية تنفيذ المهمة الموكولة إلى السر عسكر الجديد رشيد باشا الذى كان سر عسكر الروم‌للى فطرد من أدرنه مصطفى باشا والى اشقورده الذى شق عصا الطاعة على السلطان وكان الرجل يعيش عيشة عسكرية ولكنه لم يتلق فنون الحرب على الأساليب الحديثة كابراهيم ولنفوذه فى بلاد الألبان والبوسنة أمره السلطان أن يجمع أكبر عدد يستطيع جمعه من البانيا والبوسنة وأن يأتى إلى الأستانة بالآلايات الستة من المشاة والفرسان المحافظين على الولايات تحت إدارته وهذا القائد كان زميل ابراهيم باشا فى حرب المورة ثم وجه اليه خطا شريفاً هذ نصه :

« تعلم أن حسين باشا عين سردار أكرم لقيادة العسكر الشاهانى المرسل الى آسيا ليؤدب التأديب اللازم العاصى محمد على . وان ولايات مصر والحجاز وكريد والحبشةوجهت اليه . ولكن الاقدار لم تساعده فترآى لنا اتخاذالوسائل الفعالة . وأملى بالله أن توفق فى هذه المهمة طبقا لارادتنا الشاهانية كما وفقت فى ألبانيا والبوسنه.

ومنذ برهة من الزمن لم يكن بالاستطاعة الاهتمام بشؤون الرعية والاهالى ويهمنى من صميم الفؤاد راحة رعاياى سكان سوريا وأمنيتى أن جميع الاعمال تقضى على سنن الشريعة المطهرة . وإذا أراد الله بعد ماتعيدون السكينة الى سوريا ترفعون الى عتبتى أسماء الولاة والحكام الذين أحسنوا وقد اخترتموهم لادارة تلك البلاد والآن أعهد بها الى كفائتهم

و بما أنه لم يبق لحسين باشا من عمل فى المعسكر ففى استطاعتكم أن تكتبوا اليه ليعود الى استامبول أعانكم الله بجاه النبي المصطفى »

و بعدهذا الخط سلمه السلطان خطا آخر بولاية مصر والحجاز وكريد والصعيد وحلب وعكا والقدس وخطا شريفا ثالثا بالقيادة وذهب السلطان الى المعسكر باسكودار و وجه الكلام على مسمع من الجيش الى رشيد باشا قائلا « أنقذ الدولة فان شكرى لك ولمساكرك اذا أنت فعلت لايكون له حد »

ثم أصدر السلطان أمره باستدعاء الضباط الأورو بيين من الجيش عندما بلغه خبر تذمر الأرناؤوط وسواهم من وجودهم فيه

وقبل أن يلتقى الجيشان فى ميدان القتال كرر سفير فرنسا على الباب العالى كلمة الصلح على قاعدة اجابة مطالب محمد على وهى المطالب التى كان الباب العالى يعد باجابتها فاجاب الباب العالى انه يعطيه الجواب بعد ثمانية أيام ففهم السفير أن القصد من التسويف انتظار نتيجة المعركة ولماحدث فى ذلك « ريس أفندى » قال له ان المجلس موافق بالاجماع على اقتراحه ولكن الكخيا برتو بك المقرب من السلطان هو الذى يحول دون الاتفاق

وفى الوقت ذاته وصل إلى الاستانة الجنرال مورافيف الروسى وأبلغ السلطان أن روسيا تضع أسطولها فى البحر المتوسط تحت تصرفه لقتال محمد على وانها مستعدة لارسال جيش برى لقتاله .

وفى الوقت ذاته تلقى محمد على من شيوخ ولاية قسطمونى وأعيانها الرسالة الآتية : —

« ان المسلمين الذين عينهم منذ عهد قريب خسرو باشا السر عسكر لحكم هذه الجهات يرتكبون أشد المظالم ويحيط بهم رجال ملحدون مثلهم فهم يلوثون الاسلام . يخالفون أوامر الله وأحكام الشريعة المطهرة ولم يكن باستطاعتنا

احتمال هذا المسلك طويلا فنبهنا الى ذلك متسلمنا فلم يصغ الى كلامنا و زاد مع العمى المحيطين به غلوا وشكا الى الباب العالى الرجال النزهاء المخلصين ثم غادر مع أتباعه المدينة وأوقد الحرب على الأهالى ولم يدع فظيعة لم يرتكبها ضد الأهالى من قتل ونهب واحراق ومثل هذا الجور لم يكن الا ليزيد الاسلام حماسة فى الصدور فسار المؤمنون بقيادة الحاج مصطفى آغا وقاتلوا هؤلاء اللصوص وقتلوا المتسلم وأسروا رجاله وانسحب الباقون الى ثمانى ساعات من هنا والاهالى من كل جهة يسيرون ضدهم وقد استولوا على مدافعهم وذخائرهم وقتلوا كثيرين منهم والباقون منهم خرجوا من الولاية منتظرين المدد من استامبول . فنحن أهالى هذه الولاية عزمنا على أن نترك الحكومة التى لاتستطيع أن تقدم لنا أقل ضمانة للامن والراحة ولا توفير الغبطة والسعادة التى ينعم بها الرعايا الذين أنقذتموهم فنقدم لكم خضوعنا ونلتمس أن نكون تحت حمايتكم وأن تعينوا لنا متسلما يكون الحاج مصطفى آغا المشهور بحبه للانسانية و بنزاهته و بطول خبرته

وأبلغ محمد على هذه العريضة المرسلة اليه من أعيان قسطمونى إلى القناصل ،مبيناً لهم أن المسألة لم تبق مسألة السلطان محمود ومحمد على . وأنه يرى حقناً للدماء وتفاديا عن الخطر الاكبر بذل وساطة الدول لاقناع الباب العالى بالتسليم بالامر الواقع و بين لهم أنه ليس هناك أقل أمل بنجاح رشيد باشا

وكان محمد على يسارع فى الوقت ذاته لارسال الامداد الى جيشه فأرسل بناء على طلب ابراهيم باشا الميرالاى كانى بك على رأس فرقة من ست أورط مشاة وأرسل اللواء محمد بك ناظر الجهادية على رأس فرقة أخرى وعين ابراهيم بك مدير المهمات ناظراً للجهادية والمهمات وكانت دار الصناعة قد أتمت بناء خمسة مراكب حربية فأمر ببناء خمسة أخرى وأرسل الحاج الى أعيان الشام وأرسل ٦٠٠ فارس من عرب الجوازى والفوائد و ٣٠٠ من عربان اولاد على وعين

سليمان آغا قبجى ناظراً لأعمال تحصين عكا وعين احمد باشا يكن رئيساً للقوة العسكرية بالحجاز لاسكان الفتن التى ظهرت هناك واللواء اسماعيل بك محافظاً لمكة وأرسل الى ابنه ابراهيم نشاناً من الألماس كتب عليه « لك عون الله » تذكاراً لفتح قونيه

ولما كانت الجنود المصرية قد تعبت من البرد أمر محمد على معامله بصنع الملابس الصوفية والأحذية وارسالها بلا ابطاء لراحة الجيش فى فصل الشتاء

وهكذا وقف ابراهيم فى قونيه ينتظر وصول رشيد باشا و يدرب قواته على القتال و يمرنها على الطرفات وعلى الخطط التى وضعها مع أركان حربه

لما وصل الخبر الى ابراهيم باشا بأن رشيد باشا يزحف لمقاتلته بجيش كبير لجب . أرسل الى الأمير بشير أميرلبنان بأن يوافيه الى طرسوس وأرسل مركباً حربياً لركوبه فلما وصل أبلغه أمر رشيد باشا وانه بحاجة الى جمع كل قواته من أطراف سوريا فهو يكل اليه أمر تلك البلاد و يطلق يده فى تعيين المتسلمين فعاد الأمير بشير وتولى الأمر بنفسه وعين المتسلمين لصور وصيدا و بيروت وطرابلس واللاذقية من أبناء عمه الأمراء الشهابيين وأبقى ابنه الأمير أميناً لدى ابراهيم باشا ليكون صلة الاتصال بينهم وقبل ابراهيم باشا المتطوعين من بلاد ادنه وكرمانيا وعاد الى قونيه وأخذ يمرن جيشه فى سهول قونيه وجبالها ومعابرها على طرق القتال فيها وعلى تنفيذ الخطة التى وضعها

ولما وصل رشيد باشا الى اق شهر ونزل فى قديم خان وهى على مسيرة ٩ ساعات من قونيه كتب الى الباب العالى أن الجيش المجتمع لديه يبلغ عدده ستين ألفاً وانه عزم على مهاجمة ابرهيم وانه أرسل ٢٠ ألفاً بقيادة سليمان باشا من سيواس لالتف حول ميسرة ابراهيم باشا من جهة كرمانيا وقال فى تقريره ان

جيش ابراهيم باشا لا يزيد على ٢٥ ألفاً وان طلائعه أوقعت الخسارة بمقدمات المصريين ففرحت استامبول لهذه الأخبار

على أن ابراهيم باشا أرسل قوة بقيادة أبو دبوس باشا لاحتلال قيصرية والوقوف فى وجه سليمان باشا

ولما وصل تقرير رشيد باشا الى استامبول صدر اليه الامر بالهجوم فى الحال على ابرهيم باشا فتقدم الى الامام ولما وصل الى يورغان لاديك كتب الى ابراهيم باشا زميله فى حرب المورة يقول:

أخى وعزيزى ابرهيم باشا

انى قد تلقيت من مولانا السلطان الأمر بمهاجمة جيشك وطرده من البلاد التى يحتلها الآن فأنا أسألك باسم الله الذى نعبده جميعاً و باسم ما بيننا من الصداقة والاخاء الا كففت عن إراقة دماء المسلمين فانك تعلم أن تبعة القتال تقع بعد الآن عليك ، فعليك أن تضع حداً لهذه الحرب بانسحابك مع جيشك من بلاد احتلها بدون وجه من وجوه الحق »

فرد عليه ابرهيم باشا بقوله :

« أخى وعزيزى رشيد باشا

لاأقدر أن أصف لك مقدار أسفى لاضطرارى إلىمنازلة رجل أحبه وأجله وقد تسنى لى أن أقدره حق‌قدره ولكن إذا كان صديقى وزميلى رشيد باشا قد تلقى الأوامر بمهاجمتى من سيده ومولاه فان ابراهيم قد تلقى الأوامر ذاتها من سيده وأبيه فهو ليس أقل منه رغبة فى حقن‌دماء المسلمين ولكنه ليس فى الحقيقة سوى خادم مطيع فلا لوم علينا ولا تثريب نحن الاثنين معاً ولسنا نحن ــ أنت وأنا ــ بمسؤولين عن الدماء التى تراق ولكن التبعة تقع على الذين أمرونا به ولا سبيل إلى مخالفة ما أمروا »

بعد وصول هذا الكتاب إلى رشيد باشا زحف بجيشه إلى سهول قونية في ٢١ ديسمبر . وكان ابراهيم باشا يعرف أخلاق رشيد باشا في القتال و يعرف أنه ينقض على خصمه انقضاض الصقر فاتخذ ابراهيم الحيطة ليوقعه في الشراك فتظاهر بالخوف من الاصطدام به وسحب قواته إلى ماوراء قونية في مكان يمكنه من إخفاء شطرين من قوته أحدهما على ميمنة رشيد باشا والآخر على ميسرته أما رشيد باشا فانه زحف بكل حزم وعزيمة صادقة على الصدر وكانت معركة شديدة جداً وكان عدد الفرسان مع رشيد باشا نحو عشرة آلاف انقضت عليهم الجنود المصرية من كمينها على اليمين وعلى الشمال فأخذ أولئك الفرسان على غرة من كل جانب فذعروا وتفرقوا وأحدثوا الاضطراب وهجمت الجنود المصرية واشتدت المدافع المصرية بالضرب حتى إذا مادنت الشمس من الغروب كان جيش رشيد باشا قد تمزق كل ممزق .

قال ادوار جوين : كان الأتراك ثلاثة أضعاف المصريين في هذه المعركة إلا أنهم كانوا أضعف منهم في ميدان القتال لفساد التمرينات العسكرية ولبسالة ابراهيم وسليمان بك و براعتهما في تحريك قوات الجند فقد ترك الترك بعد الانهزام في هذه المعركة اثنين وتسعين مدفعاً وثلاثة آلاف قتيل وعشرة آلاف أسير ووقع الصدر الأعظم وهو السر عسكر وهو مندفع بقوة بسالته وحماسته في ميدان القتال أسيراً في أيدى العربان المصريين وجيء إلى ابراهيم باشا فتلقاه بالاجلال والاكرام . ولما كان هذا القائد يعتقد أنه لن يعيش اذا انهزم جيشه فانه استودع كاتم سره مفاتيح الباب العالى ومفاتيح السر عسكرية ولما أوشكت المعركة ان تنتهى هجم بنفسه للقتال فتقدم منه بعض العساكر الذين خدموا تحت إمرته في بلاد المورة وقالوا له والدمعة تجول في عيونهم يا باشا لقد قضى الأمر ، فأجابهم « تشجعوا ولا تيأسوا مادامت في العروق قطرة دم فلا محل لليأس »

ولما نقل كلامه إلى أحد كبار الشيوخ فى قونية قال « لما كشفت النباتات للقمان عن سر خواصها الطبية . لم يقل نبت واحد منها إن لى خاصة الشفاء من الموت . وقد كان محمد رشيد باشا فى هذه المعركة لقمان ولكن دولتنا كانت الجثة الهامدة الخامدة »

وهكذا فقدت الدولة العثمانية فى أقل من ستة أشهر جيشين كبيرين أحدهما جيش الباشاوات فى حمص والثانى جيش رشيد باشا فى قونيه

وقد قال الترك فى تقاريرهم عن معركة قونيه ان ابراهيم باشا خدع محمد رشيد باشا إذ بلغه أنه سيهاجمه فى ٢٣ ديسمبر فخطر لرشيد باشا أن يتغداه قبل أن يتعشاه فهجم فى ٢١ ديسمبر ووقع فى شراكه

ولقد اضطرب السلطان محمود وجزع لاندحار جيشه ولأسر السر عسكر فكتب إلى قيصر روسيا يطلب مساعدته و إمداده بخمس بوارج وست فرقاطات و ٤٠ الف جندى و إرسال الجنرال مورافيف قبل ذلك إلى الاسكندرية لانذار محمد على وكانت فرنسا وحدها تعارض فى ذلك وتلح على السلطان بقبول شروط محمد على الذى يتحول بعد قبول شروطه إلى أقوى مساعد للدولة

وفى الوثائق المصرية المحفوظة « جورنال » كاتب السر عسكر الى محمد على عن محادثة طويلة فى ٢٦ ديسمبر بين ابراهيم باشا ومحمد رشيد باشا عن خلع السلطان محمود وتعيين ابنه عبد المجيد سلطاناً .

رشيد باشا — ولكن عبد المجيد افندى لا يزال طفلا فهل تظن أنه قادر على تولى الحكم وتصريف الأمور

ابراهيم باشا — إن السلطان محمد الفاتح ارتقى إلى العرش وهو فى السابعة من عمره وعبد المجيد أكبر منه سناً الآن وعندى أن صغر سن الأمير لأفضل للدولة ومستقبلها . لأن أمراء السلطنة لا يتلقون الآن التربية والتهذيب اللذين

يتلقاها أمراء الأمم فهم يربون فى الحريم ويكبرون دون أن يكونوا ملمين بشيء من شؤون الدولة فاذا رقى عبد المجيد إلى العرش وهو فتى يمكنه أن يمرن بواسطة الرجال المدربين فينمو عقله ويصير رجلا كاملا يعرف واجبات الأمة والملك

رشيد باشا — هذا صحيح ولكن إذا بلغ السلطان ذلك قتل الأمراء جميعاً

ابراهيم باشا — الغرض الوحيد أن تنظم شؤون الدولة حسب مصلحتها وبما أنه يجب أن يكون لكل أمة ملك يحكمها فنحن إذا فعلنا ما اقترحه عليك نختار للأمة السلطان الذى نقره على العرش فلا يكون فى وسعه بعد ذلك أن يقول « إن إرادتنا العالية قد اقتضت قتل أو نفى أو إبعاد فلان وفلان » فاذا فعل بعد أن ننصبه على الوجه الذى بسطته لك يكون مسؤولا شخصياً أمام الأمة عن عمله وحينئذ تنفذ إرادة الأمة بعزله

رشيد باشا — أنا أوافق على رأيك ولكن هل الأمة الاسلامية على استعداد لقبول هذا التغيير

ابراهيم — يجب أن ننتظر المعارضة فى أول الأمر ولكن الجميع ينتهون بمعرفة أفضليته على سواه ويدركون أهميته وحينئذ يطلبون هم ذاتهم أن يوطدوا الحكومة والحكم على أساس متين » اهـ . هذه المحادثة كان ابراهيم باشا يقصد منها ضم رشيد باشا اليه فى خلع السلطان

أقام ابراهيم شهرا فى قونيه بعد انتصاره ولم يستطع مواصلة الزحف ومطاردة بقية جيش رشيد باشا قبل وصول أوامر والده اليه والشقة بعيدة وهذا ما كتبه إلى والده فى ٢٨ ديسمبر

« أستطيع أن أصل إلى الأستانة ومعى محمد رشيد باشا وأستطيع خلع السلطان حالا وبدون صعوبة ولكنى مضطر أن أعرف هل تسمح لى بتنفيذ هذه الخطة حتى أتذرع باتخاذ الوسائل اللازمة لأن مسألتنا لا تسوى إلا فى

استامبول فالواجب أن نذهب إلى استامبول حيث نملى إرادتنا و إنى مضطر أن أكرر على مسامعك أن الدعاوة لا توصلنا إلى أغراضنا و إذا أنت رميت من الاشاعات التى تذيعها إلى غرض سياسى بأنا نهدد استامبول لتقبل شروطنا كان من العبث أن نقف فى قونيه فلا نتقدم منها إلى الامام . فان قونيه بعيدة عن رجال الاستانة فهم لا يقبلون عقد الصلح معنا إلا إذا دخلنا عليهم فى العاصمة كذلك هم فعلوا مع الروس فانهم لم يقبلوا إبرام الصلح معهم إلا بعد وصولهم إلى جلجة بضاحية استامبول . فالواجب إذن أن نواصل الزحف حتى بورصه على الاقل مع احتلال المدن الواقعة على بحر مرمرة وجعل هذه المدن مراكز تموين لجيشنا فى البحر حينئذ فقط نستطيع أن نذيع الأخبار التى قد تقضى إلى عزل السلطان و إذا نحن لم نفلح فى إسقاط السلطان توصلنا على الأقل إلى ابرام صلح يحقق أمانينا وأنا لولا الأمران الأخيران اللذان تلقيتهما منك لكنت الآن على أبواب استامبول و إنى لأسائل نفسى ما هو الداعى الذى دعا إلى إصدار تلك الأوامر إلى ؟؟ أهو الخوف من أوربا أم هو شىء آخر لا أعرفه ؟؟

التمس منك أن تنيرنى فى هذه المسألة قبل انفلات الفرصة من أيدينا . نعم إنى التمس إبلاغى أمركم القاطع بهذا الصدد »

فلما وصل هذا الكتاب إلى محمد على سلم بنظرية ابنه ابراهيم وأذنه بالتقدم فنهض بجيشه من قونيه فى ٢٠ يناير وكان برد الشتاء على الجيش المصرى شديداً فقسمه ابراهيم شطرين ولم يصل هذا الجيش إلى كوتاهيه إلا فى ٢ فبراير أى بعد ٥٦ مرحلة ولم يبق بينه و بين استامبول سوى ٥٠ مرحلة وقبل وصوله إلى كوتاهيه تلقى الأمر من والده بأن يقف عن الزحف وأن يكون وقوفه ساعة وصول الكتاب إليه فوقف فى كوتاهيه وهو يعلم أنه ليس للسلطان جندى واحد فى طريقه إلى استامبول وأن السلطان أرسل خليل رفعت باشا إلى والده ليتفق معه ولكنه لم يكن يعتقد باخلاص السلطان فكتب إلى والده كتاباً مطولا فى ذلك

الفصل السابع

الجيش المصرى على أبواب استامبول

المساعى لوقف الزحف ــ ما يطلب ابراهيم باشا لمصر

بعد تدمير جيش محمد رشيد باشا فى قونيه تحولت المسألة من عسكرية إلى سياسية ، فالسلطان ذعر لوصول خبر الانكسار . وروسيا أرسلت الجنرال مورافيف ليعرض على السلطان مساعدتها البرية والبحرية لخوفها من تقلص سلطانها ونفوذها على الاستانة وانكلترا بعد رفضها مساعدة تركيا أعربت للنمسا عن خوفها من أن تنتهى المسألة بتقسيم تركيا . وتقسيمها يضيع الموازنة بأوربا ويفضى إلى الحرب بين الدول . ورجال تركيا كانوا يكرهون طلب المساعدة من روسيا عدوتهم ، لذلك انحازوا إلى رأى فرنسا بمخاطبة محمد على بالصلح على أن يتنازل له السلطان عن ولاية عكا ودمشق وطرابلس وعلى هذا سافر خليل رفعت باشا إلى الأسكندرية ، وكان الجنرال مورافيف قد تقدمه لا للصلح بل ليطلب من محمد على أن يجلو جيشه عن تركيا وأرسل فى الوقت ذاته بالمهمة ذاتها ياوره الضابط دوهامل إلى ابراهيم .

أما ابراهيم فانه عند ما زحف بجيشه من قونيه إلى كوتاهيه كتب إلى والده الكتاب الآتى :

« اليوم (٢٠ يناير١٨٨٣) بدأ الجيش ووحداته بالزحف من قونيه تتقدمه شراذم صغيرة لشدة البرد ولقلة عدد الجمال للنقل . والذى يستخلص من البرد الواردة من استامبول أنه لا توجد فى طريقنا أية قوة تقاومنا . حتى استانبول ذاتها ليس فيها حركة الاستعداد للمقاومة وهذا يدل الدلالة الكافية على أنهم

قد وضعوا الآن جميع آمالهم بالصلح . ولأجل هذا الصلح أرسلوا إليك خليل رفعت باشا ولكنى أرى جهد مايصل إليه علمى الضعيف ، أنه ما دام السلطان محمود المشئووم على العرش لا يمكن أن يكون هناك صلح صحيح ولا نهاية للأزمة لأنه سيكون عرضة للظروف ينتهزها للانتقام و يعمل لها كما كان فى الماضى وللجور على هذه الأمة الاسلامية التعسة وظلمها . فبحق حبنا لهذه الأمة . و بحق غيرتنا الدينية أرى من الواجب المحتم علينا لا العمل لمصلحتنا فقط ولكن العمل فوق كل شىء وقبل كل شىء لمصلحة هذه الأمة كلها ومن أجل ذلك يجب علينا أن نرجع إلى القرار الأول أى خلع هذا السلطان المشئووم ووضع ابنه ولى العهد على العرش حتى يكون ذلك بمثابة محرك يحرك هذه الأمة من سباتها العميق .

فاذا اعترضت على بأن أوربا تعترضنا قلت لك اننا لا ندع لها الوقت للتدخل و بذلك نتقى الخطر من ذلك الجانب لأن مشروعنا ينفذ قبل أن يعرف و بذلك نضع أوربا أمام الأمر الواقع . و إذا كانت أوربا تغتنم الفرصة لاشباع مطامعها من هذه الدولة فأية تبعة تقع علينا ؟ وهل باستطاعتنا أن نمنعها عن تحقيق خطة تسعى لتحقيقها منذ ٨٤ سنة ؟ ؟

الا إنا نسأل الله العون والمدد ومهما يكن من الأمر فان الأفضل أن يقع اليوم ما لا بد عن وقوعه فى يوم من الأيام . ومع الاستعانة بالله لتحقيق ذلك عزمت على التقدم إلى بورصة ومودانيا فلا وقت إذن عندى لتلقى شىء منك أو من استامبول يحرم على التقدم . أما أنا فاذا بقيت هنا فانى لا أجد أقل وسيلة لتموين الجيش لفقر البلاد فلم يبق لى إلا الذهاب إلى بروصة ومن هناك أرسل إليك رسولا بما نكون قد قررناه تبعاً للظروف »

وقبل أن يصل إلى بروصة تلقى الأمر من والده بأن يقف وكان هذا الأمر

بعد وصول الجنرال مورافيف إلى الاسكندرية .

وصل هذا الجنرال إلى الاسكندرية فى ١٣ فبراير وقابل محمد على فلم يقدم له إنذاراً كما كانوايقولون بل أعرب له عن رغبة القيصر فى أن يتفق مع السلطان ولابأس من أن تكون فرنسا الوسيطة فأجابه محمد على باشا بأن هذا الذى يطلبه منه قد عرضه على السلطان منذ شهر نوفمبر ولكى يثبت للجنرال مورافيف حسن قصده وقع أمامه الأمر الذى أصدره إلى ابنه ابراهيم بالوقوف عن الزحف من قونيه . وقبل أن يغادر الجنرال مورافيف الاسكندرية وصل خليل رفعت باشا مندوب الباب العالى . وكانوا يظنون أنه يحمل شروط الاتفاق ، ولكنه ظهر أنه يحمل إلى محمد على عفو السلطان عنه وولاية عكا وملحقاتها . ولكن محمد على كان على صداقة وولاء مع خليل رفعت باشا فاتفق معه على شروط الاتفاق وهى أن يعطى محمد على ولاية سوريا وأدنه وأن تبرم بينه و بين خسرو باشا محالفة تعاون تضع حداً لنزاعهما وأن يكون الاثنان بمثابة قيمين على املاك الدولة أحدهما فى مصر والآخر فى استامبول

أما ابراهيم فقد أرسلوا إليه من الأستانة ثلاثة رسل : الأول رسول الباب العالى ليبلغه أنهم أرسلوا إلى والده رسولا للاتفاق والثانى رسول الجنرال مورافيف والثالث رسول سفير فرنسا .وقد روى بودوليا رسول سفير فرنسا أنه وجد ابراهيم يعيش فى معسكره عيشة بسيطة وليس معه حريم ولا له حرم فهو فى هذه العيشة يشبه نابليون وقد كان يقول انه يود ان يذهب إلى استامبول ليشرب القهوة مع السلطان ولايهمه أمر الروس ولما طلب منه الجواب على إيقاف الزحف كتب فى ١٧ يناير إلى المسيو دى فارن سفير فرنسا:

« أنا لست سوى قائد عام موكول إليه القيام باعمال عسكرية . أما ما عدا ذلك فانى أرجع فيه إلى السلطة التى أنا تابع لها فانا من أجل ذلك سأتابع زحفى

ولكنى أرجع فى الأمر إلى والدى فى الأسكندرية »

وكان إبراهيم يعتقد أن الاتفاق بين خليل رفعت باشا و بين والده محمد على أمر ممكن ولكنه كان متمسكا برأيه ولا يخشى الروس ولا يعبأ بقتالهم وكان يعتقد فوق ما تقدم بأن الصلح الذى يبرم مع السلطان محمود هو صلح غير دائم بل يكون بمثابة هدنة حتى يتمكن السلطان من العودة إلى القتال لذلك كتب إلى والده فى ٣ فبراير يقول :

« أرى أن يكون الاستقلال مقدماً على كل شىء فى المناقشات التى تدور بينك و بين الرسولين — مورافيف وخليل باشا — فمسألة الاستقلال مسألة حيوية تقدم على كل شىء ، و بعد الاعتراف بالاستقلال يجب أن نطلب اضاليا وأدنه وجزيرة قبرص وأن يضم إلى مصر — إن كان ذلك فى الامكان — تونس وطرابلس . ذلك أقل ما يجب ان نطلبه ولا نتساءل عن أى شىء كان مهما كان الامر لأن مصلحتنا تقضى به ٠ أما إصرارنا على الاستقلال فلكى نوطد مركزنا ونحوطه بالضمانات فاذا لم ننل الاستقلال ذهبت جميع مجهوداتنا ضياعا ومكثنا تحت يد هذه الحكومة الخبيثة التى توقرنا بمطالبها الدائمة و بطلب المال. فمن الآن يجب أن نتخلص من الأعباء المبهظة ولا نجد خلاصاً إلا بالاستقلال

أما السبب الذى يدعونا لطلب أضاليا وأدنه فهو شدة حاجتنا إلى الخشب . لأن مستقبل أسطولنا معاق على ذلك ما دامت بلادنا محرومة من الخشب وأنت تذكر أن انجلترا منعت ورود الخشب إلينا فاضطررنا أن نلجأ إلى النمسا التى أزعجنا رفضها إزعاجاً لا نستطيع نسيانه ٠ وهل من حاجة بى لأبين شدة حاجتنا إلى الخشب ؟ فأنت أنت ذاتك قلت لى فى الأمر الذى أصدرته حديثاً « كما أنه يجب عليك أن لا تهمل وسيلة من الوسائل لصد الجيش التركى كذلك يجب

عليك أن تعمل كل ما باستطاعتك عمله للحصول على الخشب »

أما ضم قبرص إلى مصر فهو أيضاً لازم لا مندوحة عنه . لسببين : الأول ليكون مركزاً لأسطولنا ، والثانى لمنع الباب العالى من أن يكون له طريق إلى أملاكنا . وإذا شئت أن تطلب بغداد فلا مانع من طرح هذه المسألة على بساط البحث على أن تتنازل عنها فى المستقبل لأن هذه الولاية لاتنفع شيئاً وهى كسنار بعيدة جدا عن مصر وتتطلب نفقات باهظة

هذا ما أعرضه على مسامعك وأوجه اليه مع منتهى الاحترام أنظارك »

أما محمد على فانه كان يكتفى بسوريا وادنه بينما ابراهيم كان يتعرض إلى تأليف دولة بحرية قوية . كان محمد على يرى بمصر وسوريا و بلاد العرب والسودان دولة كبيرة و بعيدة عن الاحتكاك بأوربا خلافاً لابراهيم الذى لم يكن يخشى الاحتكاك بالدول الأوروبية

وفى ٣٠ يناير وصل الخبر إلى الأستانه بأن ابراهيم قام من قونيه إلى كوتاهيه فأمر السلطان ريس أفندي بأن يقابل المسيو بوتيف سفير روسيا و يطلب منه انجاز الوعد الذى وعد به القيصر وهو إرسال ٢٠ إلى ٢٥ ألف جندى ، ولما وصل إبراهيم إلى قره حصار أى على مسيرة ٤٠ ساعة من بروصة طلب السلطان من سفيرى فرنسا وانجلترا إيقافه عن التقدم فاشترط سفير انكلترا أن يسترد السلطان الطلب الذى طلبه من الروس ولكن محمد على كان قد أمر إبراهيم بالوقوف فى كوتاهيه فأبلغ إبراهيم ذلك للقائمقام ولسفير فرنسا ووصل الجنرال مورافيف إلى استامبول من الاسكندرية وأبلغ الباب العالى أن محمد على أصدر أمره إلى إبراهيم بالتوقف أمامه ولكنه نصح الباب العالى بأن لا يغتر بذلك وبأن يتخذ الحيطة ولكن سفيرى انجلترا وفرنسا استندا إلى جهر محمد

على بالخضوع للسلطان و بأمره إبراهيم بالوقوف فطلبا استرداد الطاب الموجه إلى قيصر روسيا ولـكن الباب العالى لم يعدل عن ذلك

وقام الأسطول الروسى من سيبستابول فى ١٤ فبراير وصدر الأمر إلى الجنرال كيسليف باجتياز الروملي بجيشه إلى الاستانة وصدر الأمر إلى قومندان أوديسا بحشد جيشه

وفى ٢٠ يناير وصل الأميرال روسين الفرنساوى بأسطوله إلى الدردنيل وأبلغ الباب العالى أنه يدافع عن مصلحته أمام ابراهيم باشا إذا هو استرد طلبه من روسيا ، ولـكن الأسطول الروسى وصل إلى البوسفور فى ١٩ فبراير فأبلغ الأميرال الفرنساوى الباب العالى أن وصول الاسطول الروسى يذهب عن الباب العالى كل استقلال وأن وجود السفير الفرنساوى أصبح عبثاً

ولما وصل ذلك إلى ريس أفندى أرسل رسله إلى الأميرال يقنعه بأن يكون الوسيط بين ابراهيم ومحمد على والباب العالى على أن يعطى محمد على ولاية عكا وطرابلس والقدس ونابلس وأن الزيادة غير ممكنة لبقاء السلطنة . فارتضى الأميرال الوساطة على هذه الشروط وعلى شرط خروج الأسطول الروسى من المياه التركية وكانت حجة الاميرال أن الباب العالى لا يستطيع التنازل عن ولاية دمشق لأن التنازل عنها يضعف ساطة السلطان الدينية أما أدنه فان السلطان بحاجة كمحمد على إلى أخشابها

ولما وقع الاميرال و ريس أفندى مشروع الاتفاق على ذلك فى ٢١ فبراير كتب الأميرال إلى محمد على و إلى إبراهيم كتابين قاطعين وطلب من محمد على ان يستدعى فى الحال جيشه لا باسم مصلحته فقط بل بحكم خلاصه و إنقاذه لأن « الاعتدال صار لازماً لك والاصرار على مطالبك يوقع

عليك مصائب إذا زادت جزعت لها . ففرنسا تتمسك بالعهود التى أنا قطعتها وهى تملك القوة وأنا ضمين إرادتها »

وأرسل إلى إبراهيم باشا بأنه يجب عليه أن يعتبر الصلح مبرماً على الشروط التى بحثها الباب العالى ولا يمكن تغيير أى شىء فى أساس هذه الشروط بل الواجب قبولها و إيقاف القتال

و بعد ذلك طاب الباب العالى من سفير روسيا شكر القيصر على المساعدة التى قدمها وأبلغه أن سفير فرنسا قد توسط للصلح الذى كاد أن يتم على يديه

الفصل الثامن

موقف الدول من مصر الفائزة – محمد على يرفض مطالبها الثمينة خوف انجلترا على طريق الهند

ظن الأميرال روسين الفرنساوى أنه بكتابة العهد الذى وقعه فى ٢١ فبراير بأن يبرم محمد على الاتفاق مع الباب العالى على أن يعطى عكا وصيدا وطرابلس ونابلس قد أنهى المسألة وقد أبعد الروس عن الاستانة ، لأن همه الوحيد انحصر بابعادهم فقط عن عاصمة تركيا . وظن أن الباب العالى صادق بوعده بأن يطالب من الروس العودة من حيث أتوا وكانت سياسته مضمخة بريح البارود أى التهديد والوعيد بقوة فرنسا ففشل فى كل ذلك لأن الباب العالى لم يطلب من روسيا إلا أن ترسل أسطولها إلى ميناء قريب من البوسفور حيث ينتظر وصول القوات البرية وغضب قيصر روسيا لعمل الأميرال روسين حتى قال لسفير فرنسا لديه إذا أرادت فرنسا منازلتى وقتالى فانا مستعد ولا أسمح أن تحل مسألة من مشاكل الشرق دون مشاركتى لأنى أقرب الدول إلى الشرق والشرق يهمنى ويكفى محمد على أن تكون حدوده جبال طوروس

ورفض محمد على ورفض ابراهيم الشروط التى وقعها روسين باسم حكومته

وقد عرفنا أن الأميرال روسين كتب إلى محمد على بأن يستدعى قواته من الأناضول « لابحكم مصلحته فقط بل لأجل سلامته » فكان فى ذلك كمن يأمر أمراً

وأرسل مع مندوبه إلى الاسكندرية كتاباً إلى قنصل فرنسا لدى محمد

على المسيو ميمو « بأنه لايصدق بأن ابراهيم يتعرض للتبعة الهائلة التى تقع عليه إذا هو تقدم ، هذا إذا لم يتقهقر ، والواجب أن يرسل اليه والده بريداً ليأمره بالوقوف »

وأغرب مافى موقف الأميرال روسين أن حكومته لم تكل اليه سوى الوساطة الودية بين الخصمين وكانت منذ أوائل ١٨٣٢ تقول باعطاء محمد على سوريا كلها خلافا لما فعل مندو بها ، ولم يكتف الأميرال روسين بما تقدم بل خطر لها أن يصدر الأمر إلى قسم من الأسطول الفرنساوى بأن يذهب إلى المياه السورية ويقطع المواصلات مع ابراهيم باشا بحراً ولما طاب من زميله الانكليزى ماندفيل أن يحذو حذوه أجابه السفير الانكليزى انه يقره على مافعل لأنه يتفق مع سياسة انكلترا ، ولكنه يعتذر عن إصدار الأوامر إلى الأسطول

أما ابراهيم باشا فانه رد على كتاب الأميرال روسين بقوله « انه يقيم حيث يقيم الآن فى كوتاهيه بأمر والده وانه لايتقدم ولا يتأخر على هواه بل طبقاً للأوامر التى يتلقاها من مصر وحدها »

وكان ابراهيم قد وقف فى كوتاهيه وأرسل جنوده فاحتلوا القرى والمدن الواقعة على الميمنة والميسرة وفى ١٩ فبراير ذاع فى ازمير أن جيش ابراهيم باشا مقبل عليها فسلم واليها طاهر بك مقاليد الأمور إلى أحد أعيانها أمين افندى الذى تولى الحكم باسم ابراهيم باشاووصل الخبر إلى الأستانة فى٢٤ فبراير فكان الجزع شديداً واغتنم الروس الفرصة لابقاء أسطولهم فى البوسفور « دفعاً للخطر الداهم » وأرسل السلطان صنيعته احمد بك لزيارة الأسطول الروسى تملقاً إليه

ولكى يثبت الأميرال روسين للسلطان بأنه متمسك بشروطه على مصر . أمر قنصل فرنسا فى ازمير أن ينزل علم القونصلاتو وحذا حذوه قناصل انكلترا

والنمسا و بروسيا. فلما رأى ذلك أمين افندى الذى يتولى الحكم باسم ابراهيم باشا أعاد مقاليد السلطة إلى الوالى طاهر بك .

—

استعاد حزب الروس قوته فى استامبول بعد تعيين رؤوف باشا صدراً أعظم لأن روسيا الدولة الوحيدة التى تستطيع مساعدة الباب العالى . فغضب لذلك الأميرال روسين وكتب إلى حكومته ان الدواء الوحيد لخلاص تركيا لايكون إلا بخلع هذا السلطان وقال إن الشعب فى سبات عميق فهو أعجز من أن يفعل ذلك . وفى ١٥ مارس أبلغ الأميرال الفرنساوى الباب العالى أنه إذا لم يبتعد الأسطول الروسى بعد ٢٥ ساعة عن البوسفور فلا يكون مسؤولا عن اتفاق ٢١ فبراير . ومن أجل هذا البلاغ جمع السلطان ديوانه وكلف ريس افندى أن يذهب إلى السفارة الروسية وأن يبلغ الجنرال مورافيف والأميرال لازاريف أن الاتفاق قد أبرم مع مصر فهو يأمل إعادة الأسطول الروسى إلى روسيا ، فأجابه الجنرال أن ابراهيم باشا لايزال على مسيرة خمسة أيام من استامبول وأن باستطاعته أن يهجم عليها فأجاب ريس افندى أن لدى الدولة وسائل المقاومة وهذا ما أبلغه الباب العالى إلى الأميرال روسين ثم ظهر أنه لم يكن صحيحاً . أما نظر انكلترا إلى اتفاق ٢١ فبراير فكان نظر الارتياح فكتب بالمرستون إلى و ياليام كامبل سفير انكلترا فى كابل يقول .

« إن الشروط المعروضة على محمد على باشا حسنة جداً مادامت هذه الشروط تحرمه من دمشق وحلب وهما الطريق إلى العراق ؛ وفوق هذا يجب أن يثبت فى كل سنة فى ما أعطى له وان كان تثبيته فى ولاية مصر دائماً .

وقد كان قصده تأليف مملكة عربية لجميع بلاد العرب والمشروع جليل الشان بذاته لولا أنه يقضى بتقسيم تركيا فلا يمكننا أن نسلم به .

« أضف إلى ماتقدم أن تركيا أفضل دولة تملك طريق الهند فهى أفضل

من أى ملك عربى يقوم على هذه البلاد نزوعا للعمل كثير الحركة .

فالواجب علينا أن نساعد السلطان على أن يعيد تنظيم جيشه وأسطوله وماليته فاذا استطاع أن يعيد النظام إلى تلك الولايات الثلاث استطاع البقاء » اه

أما « فيينا » فانها قابلت خبر اتفاق ٢١ فبراير بالارتياح وإن كان مترنيخ اتهم الأميرال روسين بأنه عمل بلا حساب وبحكم الحسد ، الأمر الذى يجرح روسيا ولولا اشتراط الأميرال روسين سفر الأسطول الروسى من استامبول لغادرها ذلك الأسطول بعد الاتفاق ولا يمكن أن تسكت روسيا على الجرح الذى أصابها .

أما روسيا فكان جوابها أن القيصر لم يكن يحاول جراية منفعة ، أما بعد الآن فان تركيا باتت فى قبضة روسيا ولا قيمة لاستقلالها بعد احتلال الأسطول والجيش أملاكها .

وارتبكت السياسة الفرنساوية لأن الاميرال روسين تجاوز التعليمات فأوقفها موقف العداء تجاه روسيا وموقف الخصام لمحمد على ولم يكن باستطاعتها أن تتجاوز عن كرامتها فتعلن استنكار عمل ذلك السفير الذى نفذ سياسته الشخصية لاسياسة حكومته كما قال الملك لويس فيليب لكاوت بك عند ماقابله ليبسط له خطأ سياسة الأميرال روسين مع محمد على صديق فرنسا . ذلك ما كان من أمر الدول فى اتفاق ٢١ فبراير

أما فى مصر فان الفكر السائد بعد وصول خليل رفعت باشا كان على أن الصلح قد تم ولكن وصول رسول الأميرال روسين يحمل اتفاق ٢١ فبراير وكتب التهديد منه لمحمد على وابراهيم . وقع وقوع الصاعقة .

فالكبتن أوليفيه وصل إلى الاسكندرية فى ٣ مارس على البارجة مزانج وفى اليوم ذاته قدمه القنصل ميمو إلى محمد على فقدم نص الاتفاق وكتاب

الاميرال روسين إلى محمد على وصورة من كتابه إلى ابراهيم . ففى الجلسة ذاتها أمر محمد على أمين سره بوغوص بترجمة ذلك وكان محمد على يقاطع المترجم بعبارات الاستياء والاستنكار ولما ذكر المترجم « عكا وطرابلس والقدس » هز محمد على رأسه وضحك ضحكة الاستهزاء . ولما انتهى بوغوص من تلاوة الاتفاق والكتب قال محمد على :

« إذا كانت الدول التى يهمها أمر مصر أكثر من سواها قد تخلت عنى بهذا الشكل فأنا أعتبر ذلك منها حكماً على بالموت . ولكنى أعرف كيف أموت شريفاً وكيف أجعل موتى مجيداً كما كانت حياتى مجيدة . وإنى أقابل الحكم وسيفى فى يدى وإذا أنا قبلت مثل هذا الثمن بعد نصرى فان الباب العالى يعود بعد سنة أو سنتين إلى إصلاح قواته و إلى دس الدسائس التى أكون ضحيتها فالافضل أن أعرف كيف أموت منذ اليوم »

وكان الاميرال روسين يهدده إذا لم يقبل شروطه باستدعاء الضباط الفرنسيين من جيشه البرى ومن أسطوله . و يقول المسيو ميمو انه هو والكبتن أوليفيه تعبا فى إقناعه بان فرنسا التى عاونته وهى تعجب به لا تريد به شراً . فظل على قوله « انه ضحية مكيدة يراد منها هلاكه » إلى قوله لهما بكل شدة :

« انه متمسك بالمقترحات التى سلمها لخليل رفعت باشا وانه لايحيد عنها قيد شعرة وهى اعطاؤه سوريا كلها وأدنه وانه هو وابراهيم ابنه يعرفان كيف يسقطان فى ميدان المجد والشرف »

قال المسيو ميمو : وعدت اليه فى اليوم التالى و بينت له أن نتيجة الرفض ستكون سيئة لأن فرنسا تستدعى من جيشه وأسطوله جميع ضباطها وان الأسطولين الفرنساوى والانكليزى يطوفان السواحل المصرية والسورية . واستحلفه بأن يقبل الصلح فأجابه :

« ان ظهور الأسطول الروسى فى الاستانة مكيدة مدبرة بين رجال المابين والروس الذين اشتروهم بالمال . وهم غنموا فرصة وصول الأميرال روسين الذى يعرفون خلقه وتسرعه ليدفعوه فى ما اندفع فيه . وخسرو باشا هو عدوى وقد طلب الروس لاستامبول بينما كان مندو به يفاوض هنا بالاتفاق . أما الآن فقد انتهى كل أمر فكيف تدخلت الدول الأورو بية الآن مع أن المتفق عليه معها كان ترك هذا النزاع العائلى وشأنه بل كيف يوقعون اتفاق ٢١ فبراير و يضمنون تنفيذه بغياب أحد الخصمين وكيف يجوز لهم أن يعتبروا الغالب مغلوبا ؟ أنا لا أصدق أن فرنسا وانكلترا تقدمان على هدم دولة تعد كل واحدة منهما وجودها مفيداً لها . وظهور الأسطولين الفرنساوى والانكليزى على سواحل مصر لا يمنع وجود الأسطول الروسى تحت سراى السلطان محمود »

« والظاهر أن أوربا تجهل مسألة مصر . فهم يظنون أنى أطلب الاستقلال وأنت تشهد أنى لم أطلب ذلك بل كان قصدى وغايتى النهوض بالسلطنة وتوطيد أركانها وأن أزيد أراضيها وأن أضاعف قوتها بمضاعفة القوة المصرية و بهذه الوسيلة نحول دون غزوات روسيا وننهض بالأمة الاسلامية لندفع عن بلادها التى يستولى عليها عدوها الطبيعى قطعة قطعة وشطراً شطراً »

رفض محمد على كما رفض ابراهيم قبله التسليم باتفاق سفير فرنسا والباب العالى وسلم محمد على فى ٨ مارس للكبتن أوليفيه رده على كتاب الأميرال وقد قال فيه :

« إن الأمة كلها فى جانبى و إذا أنا أردت اثارة روملى والأناضول فانا قادر بالاتفاق مع الأمة على كل شىء . وقد بسطت سيادتى على جميع البلاد وانتصرت فى جميع المعارك ولما جاءنى من لسان حال الأمة ومن الذين يتكلمون باسمها أنهم يولوننى حكم سوريا أوقفت جيشى عن الزحف حقناً

للدماء ولمعرفة ميول السياسة الأوروبية . فهل يكون اليوم ثمن الموادة التى عملت بها بعد تلك الضحايا الكبيرة من أجل أمة دعتنى اليها وانضمت إلى وأنالتنى النصر بعد النصر ، ترك البلاد التى احتللتها وأن يطلب منى سحب جنودى إلى مقاطعة صغيرة تسمونها الولايات الأربع ؟ ان هذا لايكون وان فى هذا الحكم على بالاعدام السياسى »

فى ٨ مارس عاد خليل رفعت باشا من القاهرة إلى الاسكندرية فابلغه محمد على أنهم يريدون أن يكرهوه على قبول شروط وقعوها هم . فهو قد صمم على المسير حتى النهاية فلم يبق لخليل باشا إلا العودة حالا إلى الاستانة . فتبرأ خليل باشا من هـذه السياسة ودافع عن الباب العالى واستسمح أن يرسل رشيد بك معاونه إلى استامبول فسمح له . فسافر يحمل انذار محمد على بأنه لايقبل أقل تعديل بشروطه وانه أعطى ابنه ابراهيم الساطة المطلقة للمفاوضة وتوقيع الصلح باسمه إذا أجيبت مطالبه . وحينئذ يعيد جيوشه إلى البلاد التى تعطى له و إذا لم تجب شروطه وأصروا على اتفاق ٢١ فبراير فابراهيم حر فى أن يواصل زحفه وأن يعمل مايرى عمله بلا قيد ولا شرط تبعاً للظروف

عاد الـكبتن أوليفيه رسول الأميرال روسين سفير فرنسا فى الاستانة إلى محمد على ورشيد بك معاون خايل رفعت باشا رسول الباب العالى من الاسكندرية إلى استامبول وهما يحملان انذار محمد على للباب العالى ورفض الاتفاق الذى وقعه الأميرال روسين وتخويل ابنه ابراهيم الساطة المطاقة بأن يوقع الصلح إذا أجيبت جميع مطالبه أو يواصل الزحف على الاستانة إذا شاء و إذا رفضت تلك المطالب جميعا أو رفض شيء منها وهذه المطالب هى اعطاؤه سوريا وولاية أدنة

ولما وصل الرسولان إلى استامبول فى ١٣ مارس كانت الحالة قد تغيرت تغيراً كلياً فالباب العالى لم يطلب من الروس استدعاء اسطولهم والأميرال روسين

صار فى حل من تنفيذ اتفاق ٢١ فبراير ولكن تحرج الحالة حمل الأميرال روسين على أن يكتب إلى وزير الخارجية يقول : « إذا أرادت فرنسا وأوربا انقاذ السلطنة كان فرضاً واجباً عليها إيقاف محمد على ولو بالحرب ، ولقد يكون الوقت قد فات، لأن ابراهيم سيكون فى استامبول بعد ثمانية أيام فلا يجد السلطان بدأ من أن يعطيه سوريا كلها ولكن هل تسمح له روسيا بذلك ! ؟ »

أما الباب العالى فانه عند ما تلقى انذار محمد على تملكه الجزع والقلق الشديد فطلب الوزراء من سفير روسيا بأن يعجل بطلب خمسة آلاف مقاتل لحماية العاصمة وبأن يستعجل زحف الجنود الروس. ولكن ريس افندى كان يعرف أن الجنود الروسية لاتصل قبل انقضاء شهر ، مع أن ابراهيم يستطيع أن يصل إلى الاستانة فى عشرة أيام . فأمام « هذا الخطر الداهم » رأى الباب العالى استشارة السفراء ، فقابل ريس افندى سفير روسيا والجنرال مورافيف فقال له المسيو بوتنيف « إن من الصعب على الأجنبى بذل النصيحة ، فالوزراء الترك هم يعرفون مالديهم من القوة للمقاومة . أما الامداد الروسية فانها تصل متأخرة لأنهم لم يرتضوها عند ما عرضت عليهم » ولما خرج الجنرال والسفير من عند ريس افندى ذهبا إلى خسرو باشا السر عسكر الذى تظاهر أمامهم بشدة السخط على محمد على دون الآخرين وقال : إن من رأيه مواصلة الحرب وان باستطاعته جمع ٢٥ ألف مقاتل تامى العدة

ولما سئل سفير فرنسا رأيه قال « إن إعطاء محمد على سوريا وأدنة أخف شراً من دخول الروس الاستانة »

أما سفير انكلترا فكان قوله « انه لايستطيع أن يبدى رأيا رسميا ولكن إذا كانت لدى الباب العالى قوة للمقاومة فلا ينصحه بالتسليم وإلا فالأفضل اختيار أهون الشرين وأهونهما اعطاء محمد على طلباته »

فأجاب ريس أفندي: ان الباب العالى مستعد أن يعطى حلب ودمشق لمحمد على ولكنه لا يستطيع التنازل عن أدنة فاذا أيده سفيرا فرنسا وانكلترا فى ذلك يصعب على ابراهيم باشا الرفض

وفى ٢٩ مارس اتفق الأميرال روسين والباب العالى على إرسال المسيو فارين وكيل سفير فرنسا فى الأستانة مع رشيد بك مندوب الباب العالى إلى كوتاهية للاتفاق مع ابراهيم باشا على إعطاء ولاية سوريا كلها لمحمد على وعلى تخفيف الشروط بشأن أدنة جهد ماتصل إليه الطاقة. وحمل الرسولان إلى ابراهيم باشا كتابى الأميرال روسين والمستر ماندفيل بمعنى ماتقدم

وفى الوقت ذاته أرسلت فرنسا إلى محمد على المسيو بوالكنت أحد مديرى وزارة الخارجية ليقنع محمد على بالجلاء عن الأناضول وأصدر اللورد بالمرستون أمره إلى البحرية بتعزيز أسطول البحر المتوسط وبارسال هذا الأسطول إلى مياه الاسكندرية فاذا وصل الأسطول إلى المياه المصرية، ولم يكن الاتفاق بين محمد على والباب العالى قدتم، فيقدم الأميرال للقنصل كامبل كل المساعدة التى يطلبها فاذا كان تطور المفاوضات يتطلب اتخاذ الوسائل القاهرة إلى أن يتم الاتفاق يقطع أميرال الأسطول جميع المواصلات البحرية عن جيش ابراهيم باشا، وإذا هو التقى بالأسطول الفرنساوى يطلعه على هذه التعليمات ويدعوه لمشاركته فى حدود التعليمات التى يكون قد تلقاها. وإذا ظهر أسطول روسى أمام الأسكندرية يعامله الأسطول الانكليزى معاملة الصديق ويدعوه للاشتراك معه. ويقول وزير خارجية فرنسا فى رسالته عن ذلك إلى الأميرال روسين « إن الذى دعا انكلترا لأن تضغط على محمد على هو خوفها من أن يملك العراق وطرق مواصلات الهند وسواحل سوريا والخليج الفارسى »

كل هذا لم يخف محمد على الذى قال لقنصل فرنسا « إنى قد تعلمت من

أوروبا الآن أن الخضوع لا يكون لغير القوة » ولكن تعلمه هذا الدرس جاء متأخراً لأنه لم يشأ سماع نصيحة ابنه ابراهيم ورأيه منذ ستة أشهر مضت

أما الباب العالى فظل على سياسة تأليب دولة على أخرى . فبينما هو يرسل رشيد بك والمسيو فارين إلى ابراهيم بأنه قابل شروط محمدعلى يطلب من الجنرال مورافيف فى ٣٠ مارس استدعاء الخمسة آلاف روسى من أودسا . وقال ريس افندى المسيو بونتيف فى ٣١ مارس « نحن نعلم أن خمسة آلاف مقاتل لاتكفى لقتال جيش ابراهيم ولكنها تحمينا من المباغتة والاخطار فى بلاد الأناضول ضدنا »

أما ابراهيم فانه أصدر أمره فى أول ابريل بالزحف على الأستانة تنفيذا لأوامر والده ولكنه لما تلقى خبر قدوم المسيو فارين ورشيد بك أمر بايقاف الزحف ووصل الاثنان إلى كوتاهية فى ٥ ابريل وفى اليوم ذاته وصل إلى الأستانة الخمسة الآلاف روسى مع الفرقة الثانية من أسطول القيصر ولكن ذلك لم يحسن الحالة بل زادها سوءا لأن وصول الجنود الروس الى العاصمة أغضب المسلمين ولا سيما العلماء والوزراء وبدأت الاضطرابات بين الجمهور ورفض المفتى إصدار فتواه بتصويب عمل الباب العالى فى طلب الأمداد الروسية ورفض أيضا إبعاد طلبة الدين الذين كانوا يعلنون فى المساجد اراءهم ضد الافرنج والروس على وجه التخصيص وكان عددهم ثلاثين ألفا

ولما احتل الروس استامبول اشتد الاضطراب فى لندن فاقترح تاليران وزير فرنسا أن تتفق فرنسا وانكلترا وروسيا والنمسا على قطع العهد بينها بالا تطمع واحدة منها بامتلاك أرض من تركيا فوافقت انكلترا على مايلى :

أولا — التعهد بالا تجزأ تركيا

ثانياً — موافقة الدول الأربع على أن كل اتفاق بين الباب العالى ومصر يصون سيادة تركيا

ثالثاً — تعهد الدول الأربع بانه فى حالة رفض محمد على قبول ذلك تتفق هذه الدول على الوسائل التى تتذرع بها لحمله على القبول

ولكن النمسا والروسيا احبطتا المشروع فعدلت عنه انكلترا وتدخلت روسيا فى أمر مهمة الموسيو دى فارين ورشيد بك لدى ابراهيم باشا فأبلغت الباب العالى «أن الصلح على الشروط التى حملاها إلى ابراهيم باشا محقرة له . و إذا صدقت فرنسا بأنها توقف ابراهيم باشا عن الزحف فليكن ذلك على أحكام الشروط التى أملاها الباب العالى وحملها خليل باشا إلى محمد على لا على التنازل عن سوريا كلها »

فأرسل الباب العالى فى ١٠ ابريل رسولا الى الأميرال روسين بأن يصدر تعليماته إلى المسيو دى فارين بان يلزم فى مفاوضته ابراهيم باشا حدود اتفاق ٢١ فبراير والعدول عن مكالمته على قاعدة التنازل عن حلب ودمشق. فرد الأميرال روسين بانه إذا تغيّر حرف واحد من اتفاق ٢٩ مارس بينه و بين الباب العالى على أن يتنازل الباب العالى عن حلب ودمشق فان فرنسا تستدعى المسيو دى فارين وتنفض يدها من هذه المسألة . فتدارك ريس افندى الأمر وأبلغ الأميرال أنه لايغير شيئاً من اتفاق ٢٩ مارس

وفى ١٠ ابريل كتب المسيو دى فارين « ان رشيد بك أبلغ ابراهيم باشا بان الباب العالى يعطى محمد على سوريا كلها ولم يبق من صعوبة إلا فى أمر المقاطعات الأخرى لأن ابراهيم لايطلب أدنه وسلفكى فقط بل أورفا وديار بكر. و بعد مناقشات طويلة ارتضى ابراهيم أن يرجع عن طلب ديار بكر وأورفا وأن يكتفى بأدنه التى لايتنازل عنها بحال من الأحوال . فاذا ارتضى الباب العالى ذلك فان ابراهيم يرسل إلى والده بان الصلح قد تم و يأمر سليمان بك بان يعيد إلى قونيه الفرق التى غادرتها إلى كوتاهيه »

ولما وصل هذا الكتاب . طلب ريس افندى من سفير انكلترا أن يكتب

إلى إبراهيم باشا بأن الباب العالى ارتضى التنازل لوالده عن حكم أدنة أيضاً والسبب الذى حمل ريس افندى على أن يطلب ذلك من سفير انكلترا فهو أن هذا السفير كان يعارض أشد المعارضة فى إعطاء حكم أدنة لمحمد على وأيد هذه الفكرة الاميرال روسين فكتب إلى إبراهيم باشا أن فرنسا لا تتساهل فى مسألة أدنة وحجته فى ذلك أن إعطاء ولاية أدنة لمحمد على يضع فى يديه الاخشاب ومسالك الطرق فى جبال طوروس وطريق استامبول وكان رأى الاميرال روسين أن تتفق الدول جميعاً على ذلك و إن أفضى الاتفاق إلى إكراه محمد على بالقوة لأن الباب العالى قد يسلم بمطالبه تحت ضغط إبراهيم

وفى ١٥ أبريل صدرت التوجيهات وهى جدول أسماء الولاة والحكام المثبتين فى ولايات الدولة وفى هذه التوجيهات أن ولايات مصر ودمشق وحلب وعكا و بيروت وطرابلس الشام وكريد والقدس ونابلس قد حولت إلى عهدة محمد على وأن ولاية الحبشة وجده ومكة إلى عهدة إبراهيم باشا . وأما ولاية أدنة موضوع الخلاف فانها تظل تابعة لخزانة الدولة

ولما أبلغ ذلك إلى إبراهيم ، صاح صيحة الغضب والسخط وقال للرسول « كيف أستطيع الآن أن أكتب إلى والدى أن الحكومة التركية لا تنفذ عهودها ؟ ؟ فليكتب الباب العالى ذلك إلى والدى . أما أنا فانى أوقف كل حركة إلى الوراء » لأنه كان قد أصدر أمره إلى احدى الفرق بالعودة إلى قونيه ولكن الثلوج منعتها عن السفر .

وفى ٢٣ وصل كتاب القايمجى إلى الباب العالى بان ابراهيم باشا يلح فى أن يعين حاكما لأدنه ومعنى ذلك أنه يرفض التنازل عن هذه الولاية .

فاجتمع الوكلاء وقرروا أن يطلبوا من ابراهيم باشا أن يرسل إلى الأستانة

إما عثمان بك و إما باقي بك من رجاله المقربين للمباحثة في مسألة أدنة ففهم ابراهيم أن المقصود المماطلة والتسويف حتى تصل الأمداد الروسية وهي بين ٦ آلاف و ٧ آلاف مقاتل وعشر سفن حربية فضلا عن أن الأميرال روسين الفرنساوي كان يهدد محمد علي بقوة أوربا . ولكن وزير خارجية فرنسا كتب إلى هذا السفير « ان الوصول إلى الصلح أغلى من أدنه ثمناً »وحاول الأميرال روسين الاستعانة بالجنرال مورافيف والمسيو بولتيف فرفضا ووصل في أول مايو اللورد بونسو بي سفير انكلترا إلى استامبول فأدرك أن الباب العالي يميل إلى اعطاء أدنة إن كانت انكلترا وفرنسا تسمحان له بذلك . وفي الوقت ذاته سأل سفير روسيا الديوان عما يريد أن يفعل الجيش الروسي الذي وصل إلى نهر الدانوب وعدده يتراوح بين ٣٠ ألفا و ٤٠ ألفا ؟ أهو لحرب يواصلها أم تسليم شؤون تركيا اليه ؟ فاجتمع الوكلاء واتفقوا على الاستعفاء إذا طلب الجيش الروسي . فصدر بعد ذلك بثلاثة أيام خط سلطاني بالموافقة على قرار الوكلاء . وهكذا انتصر الميل إلى الصلح .

وكان ابراهيم باشا قد أبلغ الباب العالي أنه يكتفي بأن يكون « محصل أموال أدنه » كأي محصل آخر وأن هذا يرضي والده و يريح الباب العالي وهذا ماقبله الديوان وقرره .

كان وصول ابراهيم البطل الفاتح إلى كوتاهية سبباً لاهتمام الدول في مسألة تركيا ومصر فأوفدت فرنسا والنمسا وانكلترا مندوبين سياسيين إلى مصر هم بوالكنت من مديري الشؤون الخارجية الفرنساوية والكولونيل كامبل من سياسي انكلترا والهر بروكس أوستن من سفراء النمسا . وأوفدت إلى الاستانة الأميرال روسن الفرنساوي واللورد بونسو بي الانكليزي والجنرال مورافيف والكونت أورلوف الروسي

وكانت سياسة روسيا ترمى إلى بسط حمايتها على تركيا وسياسة النمسا حل المسألة بالاتفاق مع روسيا وسياسة فرنسا وانكلترا إبعاد روسيا عن تركيا والحيلولة دون أن يؤلف محمد على الأمبراطورية العربية. لذلك كان رأى اللورد بونسوبى بعد درس المسألة أن ينصح — بالاتفاق مع الأميرال روسين —. السلطان بقبول الحل الذى حله إبراهيم باشا وذلك بأن يعين محصلا أى مديراً لأموال أدنة باعتبارها جفلكا سلطانياً وكان سخط العلماء وطلبة الدين وعددهم ثلاثون ألفاً ظاهراً باديا فى الاستانة لاستدعاء السلطان الجيش الروسى والأسطول الروسى لاحتلال عاصمة السلطنة. ولما خرج السلطان للصلاة فى اليوم الثالث من أيام عيد الاضحى بدا له سخط الشعب لهذا السبب ولشدة الضائقة من قلة الغذاء، لأن جيش إبراهيم قطع المواصلات مع بلاد الاناضول التى تغذى الاستانة ولأن الروس زاحموا الأهالى على ماعندهم من المآكل. فلما عاد إلى القصر السلطانى سلم باعطاء إدارة أدنة لابراهيم وهكذا انتهت المفاوضات التى بدأت فى ابريل بقبول شروط محمد على فى ٣ مايو ولم يشأ محمد على أن يطلب قبرس لفقرها « لأن الأتاوة التى يطلبها الباب العالى ستة آلاف كيس (٣ آلاف جنيه) وهى عاجزة عن دفع هذا المبلغ مع أن كريد صالحة للتعمير والاستثمار » وهو إذا ملك كريد وأدنة وسوريا ومصر ألف من ذلك كله وحدة قوية وغنية معاً ومما قاله محمد على لمندوب النمسا. « إن امتلاك أدنة لازم لى لأن الباب العالى لا يستطيع التجاوز عن عملى معه فالواجب أن تكون بيدى الضمانة مفهون غدره. ضعيف الآن ولكنه يستطيع أن يستعيد قواته بعد ست سنين وهو يحكم ستين مليوناً وأنا لا أحكم سوى أربعة ملايين فلا بد لى من بلاد تدافع هى عن نفسها »

أما السبب الذى دعا اللورد بونسوبى إلى نصيحة الباب العالى بأن يعطى

ابراهيم باشا أدنة ، مع تصريح اللورد بلمرستون قبل ذلك بان انكلترا لا تسلم بقيام دولة عربية فتية على طريق الهند ، فهو أن تستعين انجلترا بالصلح بين مصر وتركيا على إخراج الروس من الاستانة ثم تستغل بعد ذلك حفيظة الباب العالى على محمد على حتى ينهض بعد إصلاح شؤونه لأخذ الثار ومنع التوسع المصرى

ولما وصل السكونت أورلوف الروسى إلى الاستانة فى ٥ أبريل بلغه أن الصلح بين السلطان ومحمد على وضع فى اليوم السابق لوصوله فقال « إن هذا الصلح ليس سوى هدنة لا تدوم أكثر من خمس سنين إلى ست سنين » وهذا ما وقع بعد ذلك ولم يكن اتفاق كوتاهية معاهدة صلح تضمنها الدول ولكنه كان محضراً بين إبراهيم ومندوب السلطان نفذ بصدور فرمان الولاية لمحمد على على مصر وكريد وسوريا و بتعيين ابراهيم محصلا أو مديراً لأدنة ووالياً للحجاز الخ

ووصل خبر الاتفاق إلى الاسكندرية فى ١١ ابريل . وفى ١٦ أبريل وصل الأميرال سليم بك من قواد جيش ابراهيم وكان قد غادر كوتاهية فى مساء ٩ أبريل وقابل محمد على فى دار صناعة السفن بحضور القناصل فصاح بوغوص بك بأعلى صوته : « لقد أبرم الصلح » فتغير وجه محمد على وضحك ضحكة عصبية لأنه لم يستطع تمالك نفسه . ورأى الحاضرون دمعتين تنحدران على خديه من عينيه رغم رزانته ومهابته

ولكن الرد على مسألة أدنة أبطأ فأخذ مندوبو الدول يلحون على محمد على بأن يتحول عن طلب أدنة وكل واحد منهم يقرن طلبه بالتهديد ان يسلم لهم ، إلى أن وصلت سفينة حربية فى ٥ مايو تحمل من ابراهيم خبر تسليم الباب العالى بأدنة فأمر محمد على بأن ترفع المراكب والسفن زينتها كاملة و بأن تطلق القلاع والطوابى فى جميع أنحاء البلاد مئة مدفع ومدفعاً . وقرر السفر إلى القاهرة وتفقد

المزارع بطريقه حتى لا يقابل مندوب السلطان برتو بك ـ الذى يحمل اليه الفرمان ـ فى غير العاصمة

وهذا هو نص الفرمان السلطانى الصادر فى ٦ مايو إلى الوزراء والميرميران والمللا والقضاة ونواب الشرع والمتسلمين والكبراء والأعيان والوجوه والموظفين فى أنحاء بلاد الأناضول :

« إن تأكيد الأمانة والاخلاص الذى قدمه فى العهد الأخير والى مصر محمد على باشا وولده إبراهيم باشا ، قد لقى الحظوة لدينا فنوجه اليهم رضانا العالى الشاهانى وأثبت فى ولاية كريد ومصر محمد على باشا . ونظراً لالتماسه الخاص ، وليته مقاطعات دمشق وطرابلس الشام وصيدا وصفد وحلب واقليمى القدس ونابلس وحراسة الحج وقيادة الجردة ونال ابنه من جديد من عطفنا الشاهانى لقب شيخ الحرم المكى وولاية جده وفوق هذا قد أجبت ملتمسه بشأن إدارة مقاطعة أدنة التى يديرها إدارة الجفالك الشاهانية وذلك بلقب محصل

« و إنى لما طبعت عليه من الانصاف والشفقة والحلم أصدر أمرى هذا لجميع من فى بلاد الأناضول بالا يحاسبوا أحداً من السكان والاعيان عن الماضى وأن ينسوا جميع الحوادث التى وقعت وأنتم جميعاً تبلغون من فى دائرتكم عفوى وتبذلون جهدكم لتطمين الخواطر من هذا الوجه وتعملون كل ما باستطاعتكم لرفع الأدعية لشخصنا الشاهانى من كافة الشعب الذى هو أمانة من الله فى يدنا »

« ولأجل إعلامكم أصدرنا فرماننا هذا طبقاً لخطى الشريف فأبلغوا إرادتى السامية لكل من عندكم وطمنوا الاهالى وحثوهم على الدعاء لى وابذلوا الجهد لتنفيذ إرادتى دون أن تسمحوا لأحد باهانة أحد ومخالفة مقاصدى السامية »

وهذا كتاب إبراهيم باشا إلى جلالة السلطان محمود فى ١١ مايو من معسكر كوتاهية بعد البسملة

« الحمد لله القوى الجبار والذى تتعالى قوته عن كل شبيه ومثيل أسأله وهو خير مسؤول أن ينعم بالغبطة التى لا تنهى و بالسعادة التى لا تزول على صاحب العظمة السامية والحلم المتناهى والجلالة مولانا القدير العظيم الشأن الذى غمرتنا وغمرت العالمين مبراته و إحساناته وأسأله بسط ظله الوارف الذى يستظل به سائر العباد على عبده هذا سائلا الله إجابة دعائى بجاه المصطفى سيد الرسل والانبياء »

« أما بعد. فقد تفضلت نعمة الجلالة الشاهانية بأن منحت هذا الخادم المطيع لقب محصل حكومة أدنة وشملت شمس أنظاره هذا العبد الذى غمرته النعمة فردت اليه الحياة حتى تتصاعد مع أنفاسه الدعوات بطول حياته و بدوام سلطانه و إنى ما بقيت حياً لأكون وقفاً على خدمته ولتمسكى بواجب الاخلاص الذى لايعتريه أقل فتور أسأل الله وحده أن يمد بعونه وحوله عبد عظمتكم الذى لا أمنية له إلا أن يقف حياته على شرف خدمتها فى كل ما ينطبق على مشيئتها السامية »

واذا تعلق الى مسامع عظمتها رفع هذه العريضة الى مواطىء عرشها السامى لشكرها على حلمها وانعامها الذى لاحد له يتنازل مولاى و ولى نعمتى و نعمة العالمين جميعا فيأمر بما يروق له . وله على كل حال أن يأمر و يشمل هذا الخادم الأمين بتعطفاته التى لاحد لها »

وكتب ابراهيم الى الصدر الاعظم كتابا قال فيه انه تلقى الفرمان الذى حمله اليه مفتش الذخائر الحربية فدله ذلك على ان الالتماس الذى رفعه على يدقاصيجى أفندى قد تفضلت جلالته بقبوله فاولته مهمة محصل حكومة أدنه . الى قوله

« انه حال وصول الفرمان وتلقى ماابلغ اليه شفويا أمر الجنود بأن تسافر من مرابطها وانه سيسرع بالذهاب الى ادنه دون الوقوف فى الطريق

وكتب مثل هذا إلى أحمد باشا أحد كبار المقر بين من السلطان

كان عدد الجيش التركى عند توقيع اتفاق كوتاهيه الذى جعل حدود حكم محمد على جبال طوروس ٣٦١٩٧ جنديا منها ١١٢٦٠ جنديا هم حرس السلطان من فرسان ومشاة والباقون موزعون على ٢٠ محطة ومعسكر. وسلاح هذا الجيش ثمانى بطاريات من المدافع

بينما جيش الباشاوات الثمانية الذى هزمه ابراهيم باشا فى معركة حمص فى ٨ يوليو ١٨٣٢ كان ٨٠ ألفا وجيش حسين باشا الذى هزمه فى معركة بيلان فى ٢٩ يوليو ٦٠ ألفا وكذلك كان عدد جيش محمد رشيد باشا الذى هزمه ابراهيم فى قونيه فى ٢١ ديسمبر ١٨٣٢ وهو الجيش التركى الثالث والأخير

أما الجيش المصرى فكان مجموع عدده فى شهر مارس سنة ١٨٣٢ مع فرسان العرب المصريين وهم ثمانية آلاف أى بعد اتفاق كوتاهية ٩٣٩٣٢ ضابطا وجندياً بحرياً وبرياً وهم موزعون على الوجه الآتى : —

١٦٧٨٥ فى البحرية الحربية

١٣٢٢٣ فى بلاد الحجاز

٥٣٥١١ فى قلاع القاهرة والأقاليم

٩١٦٣ في كريد

٧٤٦٠ فى بلاد النوبة والسودان

٨٢٩٤٤ فى معسكرات الميدان

٨٣٥٨ جنود عمال بدار الصناعة وملحقاتها

١٥٢٦ أركان حرب مدرسة قصر العينى

١٢٥٠ أركان حرب مدرسة البحرية بالأسكندرية

٣٠٠ ياوران وحرس

٤١٢ أساتذة وتراجمة وطلبة

ففى ١٤ مايو انتهى القتال والعداء . ولولا تألب الدول بقواتها بعد ذلك على مصر لعرف هذا اليوم بأنه اعظم يوم فى تاريخ مصر الحديث ولكان يوم تأليف الأمبراطورية العربية من جبال طوروس إلى بحر الهند لخط الاستواء ولكى يقف القارىء المصرى على بطولة ابراهيم ننقل عن الموسيو دوين شهادة أحد مارشالية فرنسا فى حروبه قال :

« ان حملة ١٨٣٢ تشرف ابراهيم وتعلى شأنه ويقينى أن الملمين بالشؤون العسكرية والخبيرين بها يعترفون معى بأن تلك الحملة لايتناولها أقل انتقاد وان قيادتها بنيت على أسلوب حكيم وقاعدة متينة وهمة عالية والنقد الوحيد هو انه فى المعارك الثلاث الكبرى بينه وبين الترك استخدم منذ بدء القتال صفوفه الثانية وجيوشه الاحتياطية ولكن يدفع هذا اللوم عنه ويجعله فى جانبه يقينه برداءة نظام الجيوش التركية .

وقد وفق ابراهيم فى الحوادث المفاجأة كما وفق بكفاءة سليمان بك (الكونل سيف) صاحب الدراية العالية فى تسيير الجيوش » اه

لم يضع اتفاق كوتاهية حداً للمشاكل بين محمد على والباب العالى بل كان هذا الاتفاق فى وقت واحد هدنة حربيه وفاتحة مشاكل جديدة أولها الحدود وقد أثارها ارسال ابراهيم باشا جنوده إلى اورفا — الرها — لصد غارات البدو من الصحراء على البلاد العامرة وثانيها الاتاوة التى يدفعها محمد على عن البلاد التى تم حكمها إلى حكم مصر . وقبل أن نتبسط فى وجوه الخلاف نعود إلى الأصل أى إلى الأتاوة التى كان يدفعها محمد على ذاته عن مصر .

ففي سنة ١٨٠٦ صدر الفرمان السلطاني بتعيين محمد علي والياً على مصر إجابة لطلب علماء مصر واعيانها وتعهد محمد علي يومئذ بأن يدفع للباب العالي مبلغ أربعة آلاف كيس في السنة — والكيس ٥٠٠ قرش — أي أنه تعهد بدفع عشرين الف جنيه . ولكن الولاية كانت تسمى في ذاك الحين ولاية القاهرة . و ولاية القاهرة كانت تشمل الوجه البحري ومصر الوسطى فقط . لان صعيد مصر كان مقسما اقساما عديدة وكل قسم يتولى حكمه مملوك من المماليك . وكانت الاسكندرية والشطر الاكبر من مديرية البحيرة ولاية مستقلة يعين لها الباب العالي واليها من استامبول . فلما طرد محمد علي الانجليز من رشيد والاسكندرية في سنة ١٨٠٧ رضى الباب العالي أن يضم إلى ولاية القاهرة - أي إلى ولاية محمد علي - ولاية الاسكندرية ولم يكن دخل ولاية محمد علي سوى ١٧٥ الف جنيه ولكنه صمم على توحيد حكم البلاد كلها سياسياً ومالياً فتخلص من المماليك في سنة ١٨١١ ونال فرمان ولاية الصعيد وزاد الاتاوة التي يدفعها للباب العالي عن مصر كلها الى ١٢ الف كيس أي إلى ستين الف جنيه وهكذا كون محمد علي مصر وهكذا جعلها تحت حكم واحد .

ولما رأى الباب العالي نمو ثروة مصر بفضل أعمال محمد علي واصلاحاته طلب في سنة ١٨١٤ أبان حرب الوهابيين وفي سنة ١٨٢٤ أبان حرب المورة زيادة الاتاوة مع ان مصر تحملت النفقات لتوطيد حكم السلطان في بلاد العرب والبلقان حتى قالوا ان حملة المورة وحدها كلفت محمد علي عشرين مليون فرنك وثلاثين الف رجل فوق نفقات الأسطول ورجاله ، كذلك قل عن كريد التي أخمد محمد علي ثورتها ثم تولى منذ ١٨٣٠ حكمها والانفاق على حاميتها وهي من ٨ آلاف إلى ٩ آلاف مقاتل .

فلما عقد اتفاق كوتاهية أرسل الباب العالي إلى مصر مندوبه أدهم افندي

ليتفق مع محمد على . فقبل محمدعلى أن يدفع للباب العالى ٣٢ الف كيس فى السنة ابتداء من مايو ١٨٣٤ فاستصغر الباب العالى المبلغ وقال إنه لايتفق مع دخل مصر وسوريا وجزيرة كريد ، فأجاب محمد على انه متنازل عن جزيرة كريد فأخذ الباب العالى بهذا القول ولكن فرنسا وانكلترا وروسيا أقنعته بالايتمسك بعرض محمد على و بان يدع كل شيء على حاله .

وكانت مالية محمد على مرهقة فى ذاك الحين لكثرة المال الذى أنفقه على حملة سوريا . فقد أنفق عليها مليوناً ونصف مليون جنيه . وكانت ميزانية مصر فى سنة ١٨٣٣ فى عجز كبير فهبطت إلى ٨٢٥ الف جنيه وفى ١٤ مايو تم الاتفاق بين أدهم افندى ومحمد على على أن يقبل محمد على أن يدفع عن مصر ما تعهد بدفعه وعلى أن يدفع عن ولايات سوريا وكريد ما كانت تدفعه قبل أن يتولى حكمها وهو :

٢٠٠٠ كيس عن كريد

١٨٠٠٠ كيس عن سوريا وأدنه

وأن يكون مجموع الاتاوة التى تدفعها حكومة مصر عن البلاد التى تحكمها ٣٢ الف كيس أو ١٦٠ الف جنيه . ولكن هذا الاتفاق لم يرض الباب العالى الذى كان يطلب ٩٠ الف كيس أو ٥٠٠ الف جنيه مقابل الاتاوات التى تأخرت ابان الحروب . ولأجل تسوية الحساب على هذه القاعدة أرسل الباب العالى إلى الاسكندرية الدفتردار فوصل اليها فى ٣٠ يوليو وكان محمد على غائباً فى زيارة كريد .

وقد غادر الاسكندرية فى ٢٧ يوليو فوصل إلى تلك الجزيرة فى ٣ اغسطس و بعد المفاوضات الطويلة تم الاتفاق فى شهر اكتوبر على أن يدفع محمد

على للباب العالى ٣٢ الف كيس وعلى أن يسحب ابراهيم باشا جنوده من أودفه

وكان الباب العالى قد أبرم مع روسيا معاهدة بل محالفة تجعل تركيا تحت حماية القيصر فبعد هذه المعاهدة أراد الباب العالى نكث عهده والغاء اتفاق كوتاهية ولكن اللورد بونسوبى قاوم هذا الرأى ليظل مستنداً على مصر لتقوية نفوذه فى الاستانة فأبلغ الباب العالى « أن محمد على يدفع الآن للباب العالى أكبر مبلغ يصل اليه من جميع ولاياته وأن من مصلحة السلطان الآن أن يستبقى مودة هذا الوالى وأن ولاية محمد على تنتهى بانتهاء حياته وأن من مصلحة هذا الوالى ألا يدع سلطة روسيا تبسط على استامبول وقد لايكون الوقت الذى يحتاج فيه السلطان إلى جميع قوات السلطنة بعيداً ليصون استقلاله من روسيا . فمن حسن السياسة أن يربح السلطان مودة محمد على له سواء كان بالانعامات أو بسواها استبقاء لثقته »

ولما قدم ترجمان السفارة الانكليزية هذه النصائح فى ٢٩ مايو لريس افندى قال له هذا « أنا أعلم ان فرنسا وانكلترا هما صديقتا الباب العالى وأنا ابوح لك بأنى لا أفهم كيف صار عدونا القديم روسيا صديقنا المخاص لنا اليوم

وأما محمد على فانه لايكون فى حجر السلطان إلا الثعبان الذى يدفأ فى هذا الحجر .

وهذا القول يدل على الدسائس التى أخذ الباب العالى يدسها لمحمد على فى بلاد سوريا وعلى جده فى استعادة قوته . ولكن فكرة الامبراطورية العربية كانت متأصلة فى نفوس العرب وفى نفس ابراهيم حتى كتب الكولونل تايور قنصل انكلترا فى بغداد الى الكولونل كامبل قنصل انكلترا فى الاسكندرية فى ٦ نوفمبر ١٨٣٣ من بغداد يقول « إن هذه الولاية هى الآن فى أشد حالات البؤس والضيق تحت حكم على باشا الذى كان قبل مجيئه إلى بغداد والياً على

حلب . وانظار الشعب العربى متجهة فى هذه المحبة نحو ابراهيم » والحقيقة ان سياسة ابراهيم منذ الساعة الأولى كانت غير سياسة محمد على حتى كتب بروكس أوستن إلى الكونت مترنيخ فى ١٦ يوليو ١٨٣٣ يقول :

« ان أسباباً عديدة تثبت أن فكرة تأليف الأمبراطورية العربية لاتزال حية ولا تزال موجودة ولكنى أرى إلى جانب العقل المدبر عقل محمد على ، المطامع الواسعة والهمة العالية فى صدر ولده وخليفته . فابراهيم ابن هذا العصر وقد تربى تربية عصرية عالية وتنزه عقله عن الانطباع على الخضوع للسلطان بحكم المبادىء الدينية و إنى لأرى إلى جانب ضعف الباب العالى وهزاله جيشاً عربياً قويا ممرناً على أحدث مبادىء القتال ، وأرى أسطولا قويا . وكلا الجيش والأسطول يسهل مضاعفتها . أضف إلى هذا كله يقظة الروح العربية بعد سباتها ، فمحمد على يتمتع بحسن السمعة والصيت الحسن فى جميع الأقطار العربية

والظاهر أن مندوب النمسا استند إلى تقرير قدم إلى محمد على قبل ذلك وهذا التقرير وجد فى سجلات وزارة خارجية انكلترا وهو بنصه :

« ان أصدق ترتيب وأفضل تنظيم هو أن تؤلف المملكة العربية من مصر و بلاد النوبة وسنار ودارفور وكردوفان فى افريقية ومن بلاد العربية كلها حتى الخليج الفارسى ومن الشاطىء الشرقى لنهر الفرات مع دخول سوريا كلها فى هذه المنطقة »

« فاذا تم ذلك يحييكم العالم العربى كما يحيى الثائر للخلافة الاسلامية وللخلفاء الراشدين وكما يحيى الرجل الذى أرسله الله لانقاذ الاسلام وكل عربى ينظر اليه اليوم كمتجه أمانيه وآماله .

« وهذه الروح الدينية والسياسية قد تحولت كل التحول عن الانسانية اليكم وهذا شريف مكة هو أول المعجبين بقوتكم وعظمتكم والرأى العام يرافقكم

و يؤيدكم بأصدق أمانيه ودعائه ولا ريب ولا شك فى أفضلية وسائلكم على ماعند الباب العالى .

« ولبلوغ الغرض يجب النداء بمفاوضة أعيان بغداد وزعماء الشعب على الشاطىء الشرقى من الفرات والانكليز لايمارضون بالتقرب من الأئمة فى الخليج الفارسى وتستطيع سعادتكم بتوطيد نفوذكم هناك فى حماية التجارة والصناعة والدين ونحن نثق بقرب حلول نكبة فى استامبول ، فانكلترا وفرنسا لاتستطيعان الحيلولة دون ذلك والنمسا وروسيا لا تريدان هذه الحيلولة .

ومن أجل ذلك تكون خطة سموكم الدفاع فتدع تركية أوروبا وشأنها وما هو واقع وراء جبال طوروس لما تقرره أوروبا .

ومما لاشك فيه ولا ريب الآن أن الباب العالى يحاول أن يستعيد سوريا . لذلك كان محتما عليكم العمل السريع .

وجيشكم فى الشام تنقصه الآن معدات الدفاع . فهو محتاج إلى ٢٠ بطارية وفرقتين من المهندسين و ٣٠٠ مستشفى وعدد من الأطباء كاف وأن يكون عدد الجيش العامل ١٣٠ ألفا ماعدا العربان المتطوعين والواجب التمسك بصداقة رشيد باشا والولاة الآخرين » اه

الفصل التاسع

بعد اتفاق كوتاهيه — أعمال ابراهيم باشا فى البلدان التى فتحها

بعد اتفاق كوتاهيه الذى أسميناه « هدنة للحرب وفاتحة للمشاكل السياسية » عاد ابراهيم باشا إلى أنطاكية واتخذها مركزاً له يشرف منه على بلاد الأناضول ليرقب حركات الترك لأنه كان واثقا من إقدام الباب العالى على الدسائس وعلى استعادة قوته لسلب محمد على وابراهيم ما أعطاه مكرها

ولولا سياسة أوروبا ضد مصر خوفا من أن تؤلف الأمبراطورية المصرية فتحرم اوروبا مغانم الاستعمار بالشرق لكان حكم الناموس الطبيعى فى نظر علماء أوروبا ذاتهم أن تخاف مصر فى ذاك الحين تركيا وأن تقوم فى العالم الاسلامى مقامها . فاوروبا ساعدت تركيا للحيلولة دون حكم الناموس الطبيعى أن يسير سيره

وإليك نص الحديث الذى ألقاه ملك فرنسا لويس فيليب إلى الدكتور كلوت بك مفتش صحة الجيوش المصرية فى مقابلته له فى ٢٨ نوفمبر ١٨٣٢ . قال كلوت بك فى مذكراته عن ذلك الحديث :

« بعد محادثة خاصة بشؤون مصر انتقل الملك إلى الكلام فى الحرب الناشبة بين ابراهيم باشا والباب العالى فقال : « إنه كان يعتقد مع فولنى — المؤرخ والجغرافى الشهير — ان الثورة التى تهدد وجود تركيا لا مندوحة عن اشتعالها فى مصر التى هى الطريق الطبيعى إلى استامبول . فمحمد على لم يكن إذن إلا الأداة فى قبضة الحوادث الطبيعية المتوقعة والتى لم تكن عنها مندوحة » إلى قوله

« ولما ساح الدوق دورليان فى أميركا قابل هذا الباحث المدقق فولنى وحدثه

فى ذلك . وكان الفرنساويون يحتلون يومئذ مصر فأعرب له فولنى عن هذا الرأى بيقين قوى لأن مصر هى البلد الوحيد الذى احتك بالمدنية الأوروبية الحديثة دون بلاد الشرق . وهى البلد الوحيد القادر على أن يستمد من المدنية الحديثة قوة تزلزل عرش استامبول . ولسوف تعمل مصر كل شىء لهضم هذه المدنية الأوروبية الحديثة » . ثم قال الملك « فليس إذن غريباً أن نرى اليوم ماهو واقع بين مصر وتركيا ولا مندوحة عن الوصول إلى النهاية بعد أربع أو خمس سنين على الأقل و إذا لم يكن ذلك فالنهاية لا يشك فيها أحد لان الهيئتين السياسية والدينية اللتين كانتا دعامة عرش استامبول ، قد فسدتا والقوة العسكرية التى كانت تسند العرش والمنبر معاً قد تضعضعت. وهذه روسيا تتقدم فى عشر سنين خطوة نحو البوسفور وكل خطوة تخطوها لاتقل عن ٥٠ مرحلة ؛ فيوم استقلال الولايات البعيدة عن استامبول قد دنا وحقيقة الواقع أن مصلحة الدول تقضى عليها بابقاء تركيا ولكنها فى النهاية ستنحل لأنها فقدت الدين والدنيا معاً ومصر فى مركز مادى وأدبى وفى حال تقضى بخروجها من تحت النير التركى إما آجلا و إما عاجلا وعندما تحررضفاف النيل لاتلبث ضفاف الفرات أن تحذو حذوها وتؤلف الثنتان بعد ذلك ، المركز الذى تقوم فيه الخلافة الجديدة وقد جددت شبابها بعلوم أوروبا وقوتها »

وقبل أن نبسط فى أعمال ابراهيم باشا فى سوريا مع رقابته تدبيرات تركيا فى الأناضول ننظر إلى معاملة جيشه للأهالى . فقد بسطها سليمان باشا الفرنساوى رئيس أركان حرب ابراهيم بكتابه إلى البارون دى فارين وكيل السفارة الفرنساوية فى استامبول وكان قد كتب البارون إليه يستحلفه باسم فرنسا قبل اتفاق كوتاهيه فى أن يقنع ابراهيم باشا بايقاف الزحف فرد عليه فى ١٧ يناير سنة ١٩٣٣ يقول :

« لقد أصبت فى حكمك على . فانى أحب فرنسا وأجلها فلا أسمع مرة اسم وطننا الجميل دون أن أحس فى طيات نفسى بهزات ذكراه الجيدة . وقد تكلمت فى موضوع كتابك مع الأمير القائد العام ، والظاهر أنه لا يستطيع أن يتحمل تبعة إيقاف الزحف بمحض إرادته والذى كتبه إليك هو كل ما يستطيعه (وكان ابراهيم باشا قد رد على البارون دى فارين الذى طلب منه إيقاف الزحف لأن الباب العالى قد أوفد إلى الاسكندرية خليل باشا — بأن ذلك فوق حدود سلطته ومخالف للأوامر التى تلقاها وأنه قائد عام فقط ومهمته الأعمال العسكرية)

« فالأمير يود الوصول إلى الصلح من صميم فؤاده وقد أمضه أن يرى وقوع هذه الحروب ويسره أن يرى الأمة متحدة باخلاص وسائرة فى طريق المدنية التى عمل والده للوصول إليها كثيراً جداً

« ولم أستطع أن أكلم الأمير عن العبارات التى يفوه بها الباب العالى بشأنه لعلمى أنه لا يعبأ بهذه الصيغ البالية من صيغ الاستبداد العتيق ، لأن الأمير يحب الحرية ويضحى حياته وثروته فى سبيل الوصول إلى أن تحكم بلاده بأحكام القوانين التى تنظم بلادنا الجميلة فرنسا

وهل تظن أن القائد العام يرضى أن يدل الشعب على مصالحته مع الباب العالى بمظاهرات خلابة كاذبة ؟ فأنا أؤكد لك أن هذا إذا وقع ، لا يكون له أقل تأثير فى الولايات لأن جميع سكان الولايات فى قنوط ويأس شديدين من أعمال الجيش التركى الذى لا نظام له ولا قانون . فهو ينهب ويحرق ويقتل الخ

أما جيشنا فهو على عكس ذلك ، لأنه خاضع لنظام صارم كنظام جيش فرنسا فهو يدفع ثمن كل شىء يأخذه نقداً وهو يحترم كل الاحترام أموال الناس وأملاكهم وهو قد نال بين الأهالى سمعة حسنة يعد من الخطل إضاعتها بابلاغهم أنهم باقون تحت النير التركى الخ »

هذا ما كان يعمله جيش ابراهيم فى البلاد التى اجتازها . ولأجل هذا أحبه الأهالى لأنهم قابلوا بين مسلكه ومسلك خصمه . وكان ابراهيم ينشط الزراعة و يشجع الأعمال الصالحة . والآن ننظر إلى الاصلاحات التى أجراها ابراهيم فى إدارة البلاد ولا تزال آثارها باقية حتى الآن . فقد ذكر كلوت بك أن جيشه الذى كان عدده ٨٥ ألفاً وزعه على ١٧ معسكراً » وأوقف أكثره على حدود تركيا ولم يبق معه سوى ١١٥٢ جنديا فجعل حامية أدنه ٦٤٧٩ جنديا وأنطاكية ٢١٣١ جنديا وحلب ١٣١٣٠ جنديا وحماه ٤٢٩٧ ودمشق ٣٤٨٩ ومرعش ٥٢٣٨ الخ

أما التنظيم الادارى فانه جعل القاهرة السلطة العليا وكان ابراهيم جامعاً بين القيادة العليا للجيوش والحكم العام لسوريا وكيليكيا . وضم فلسطين إلى ولاية دمشق وجعل واليها شريف بك الذى كان قبل ذلك حاكما لسوريا كلها . وجعل متسلماً لعكا الشيخ حسين عبد الهادى من أعيان نابلس وولى سليمان باشا الفرنساوى ولاية صيدا الحاقها ببيروت وصلة بيروت بالتجار الأورو بيين واسماعيل بك من أولاد عمه ولاية حلب واحمد منكلى باشا ولاية أدنه الخ . وعين يوحنا البحرى مديرا لحسابات الولايات كلها والف فى كل مدينة عدد سكانها عشرون الفاً فما فوق ديواناً للمشورة ينتخب أعضاؤه من أعيان المدينة وتجارها و يمثلون جميع المذاهب وسن لهم نظاماً للعمل دقيقاً وجعل قراراتهم نافذة إلا إذا هى استؤنفت إلى المجلس الأعلى اما فى دمشق أو عكا . و يجوز تمييزها بعد الاستئناف إلى القاهرة .

وأبطل الاقطاعات فى انحاء البلاد .

وكان ابراهيم باشا فى أول الأمر شديد الوطأة على الموظفين الذين يحيدون عن جادة العدالة .

واتبع فى تنظيم القضاء طريقة فرنسا ولـكنه أبقى سلطة القاضى الشرعى فى الشؤون الدينية والشخصية فكان قاضى المدينـة ينظر فى القضايا الجزئية والمعاملات التجارية ويسجل العقود وكانت القضايا الـكبيرة تحال إلى المحاكم العليا وهى مؤلفة من قاضيين أو أكثر وكانت الأحكام تستأنف إلى قاضى القضاة . أما اختصاص المشورة فكان النظر فى الأموال الأميرية وقضايا ملـكية الأراضى واعطاء المقاولات والالتزامات ووضع النظم للمالية والجمارك وسواها .

ويقول المسيو لانى ترجمان قونصلاتو النمسا فى مصر ان مركز ابراهيم فى داخل البلاد كان النجاح مضموناً له . فهو فضلا عما كان له من السلطة والهيبة قد تمـكن من أن يضم إلى جانبه الأسر صاحبات النفوذ فى البلاد والتى كانت قبل عهده مهضومة الجانب بان قدم عليها خصومها

اضرب مثلا لذلك أسرة عبد الهادى فى جنوب سوريا فقد كان لها النفوذ الـكبير على تلك البلاد الـكثيرة الاضطراب فأنزلت من مقامها ورفعت فوقها أسر أخرى من نابلس إلى أن جاء الحـكم المصرى فصارت مدينة باستعادة منزلتها إلى إبراهيم باشا . وحديثاً عند ما مات الشيخ حسين مدير ايالة صيدا عين إبراهيم باشا أخاه محموداً خلفاً له ورقى ابنه صالحـاً إلى رتبة أميرالاى فى الحرس وأسدى إلى جميع أفراد هـذه الأسر المناصب والرتب حتى صارت مخلصة للحكومة المصرية

وتركت الحـكومة المصرية لحليفها الأمير بشير الشهابى استقلاله فى ادارة لبنان . ولبنان ظل فى كل وقت بفضل طبيعته الجبلية وحزم سكانه وشدة مراسهم ملجأ للحرية المضطهدة وحامى الاستقلال . فهو فى سوريا مثل بيمونتى فى ايطاليا فالأمير فخر الدين المعنى (١٥٨٥ — ١٦٣٥) كان قبل الأمير بشير أول

من أوجد وحدة حكم لبنان الكبير وأنقذه بالحيلة واللين والدهاء من حكم الباب العالى باستناده إلى أوروبا

أما الأمير بشير فانه وجه نظره إلى مصر أم المدنية ومهد النهضة الحديثة فى الشرق » اه

ولقد ذكرنا فى فصل سابق تأليف ديوان المشورة فى دمشق من ٢٢ عضواً يمثلون جميع المذاهب أما ديوان مدينة بيروت فكان مؤلفاً من ١٢ عضوا مراعاة لعدد السكان وهم ستة من المسلمين عبد الفتاح حماده ناظر الديوان وعمر بك بيهم وأحمد العريس وحسن البربير وأمين رمضان وأحمد جلول وستة من المسيحيين وهم جبرائيل حمصى . و بشاره نصر الله . والياس منسى . وناصيف مطر . و يوسف عيروط . وموسى بسترس

وكان لكل مدينة متسلم يتولى إداراتها و يقوم بأعمال قاضى الصلح والمجلس البلدى ثم مباشر يتولى وظيفة مدير المال

الفصل العاشر

الفتن والثورات فى فلسطين وسوريا — أسبابها ونتائجها

اتحاد انجلترا مع تركيا ضد محمد على والدولة المصرية

إن نقصان دخل البلاد ابان الحروب وكثرة النفقات على الجيوش أحوج محمد على إلى الأموال .ثم إرسال الباب العالى رشيد باشا إلى حدود سوريا من جهة الأناضول وحشده الرجال والاتيان بالسلاح ، أحوج محمد على إلى الرجال فأخذ بالبحث عن هذين الموردين لأن مصر أعطت كل ما كان بامكانها إعطاؤه . ففكر فى عقد القروض فى أوربا ولكن أصحاب الأموال والدول اشترطوا أن يوافق الباب العالي على تلك القروض لأن محمد على كان والياً على مصر وسوريا فلا يكون القرض صحيحاً إلا بموافقة السلطان ولا يأمن أصحاب المال على مالهم إلا بتقديم الضمانة وهذا أيضاً ما كان يطلبه أصحاب الأموال ولا يسلم به محمد على وكانت الأموال التى يتوصل إليها محمد على من الخارج هي عبارة عن « ساف » على القطن . فمحل بريجس ونور بون ومحل غوتيه و باستره هي المحلات التجارية التى كانت تقدم الساف على القطن المصرى . فمحل باستره قدم لمحمد على سلفة ٣٠٠ ألف ريال ابان حصار عكا ولما عرضت فرنسا فى سنة ١٨٣٣ تقديم قرض كبير مقابل ضمانات يقدمها محمد على أبى تقديم الضمانات لأنه كان يطلب سلفا لمدد قصيرة لا قروضا لمدى بعيدة طويلة لذلك رفض ما عرضه عليه روتشلد وهو إقراضه مئة مليون فرنك وعرض عليه قرض آخر على أن يكون ضمانته دخل الحكومة فرفض أيضاً وأصدر أمره إلى إبراهيم باشا بتحصيل الأموال وتجنيد الرجال من البلاد التى

فتحها وتولى حكمها . فغالى الولاة والحكام فى ضرب الضرائب وطلب التجنيد فكان ذلك سبباً للفتن والثورات فى تلك البلاد بل قد لا ترجع تلك الفتن إلى سبب واحد انما إلى عدة أسباب :

الأول إزالة نفوذ أصحاب الاقطاعات فى تلك البلاد وحكمها حكماً نظامياً أغضبهم لأنه قطع أرزاقهم وسلطتهم على الشعب

الثانى — وقوف رشيد باشا بجيشه الجديد على الحدود و إرساله الرسل إلى أولئك الناقمين وحثهم على الفتن لاستعادة سلطتهم بمساعدة الباب العالى والدول

الثالث — ثقل حمل الضرائب والرسوم و إفراط الحكام بالتحصيل وتجنيد الشبان بالقوة

الرابع — خلف الوعد مع اللبنانيين بترك سلاحهم لهم وعدم التعرض لاستقلالهم وعدم زيادة الضرائب و الاصرار على تجنيد الدروز و إهانة شريف باشا شيوخهم

الخامس — ظهور الانجليز بمظهر العداء لمصر ونشرها الدعوة ضد محمد على الخ ...

أما الضرائب التى ضربت فهي احتكار حاصلات الحرير فى سوريا كاحتكار حاصلات القطن فى مصر . فطلبت انكلترا من الباب العالى إصدار أمر بالغاء هذا الاحتكار فزاد ذلك فى الاضطراب . ثم ضريبة الفردة وهى ضريبة يدفعها كل رجل من سن الخامسة عشرة إلى سن الستين وأقلها ١٥ قرشاً على الفقير و ٥٠٠ قرش على الغنى وصدر الأمر بعد ضربها بأن تحصل على سنتين ثم رسم الدخولية بين ٦ ونصف و ١٢ بالمئة على البضاعة التى ترسل من مدينة أخرى ورسم التسريح على الحاصلات المحلية التى تنقل من بلد إلى بلد آخر ورسوم المواشى كالغنم والمعزى والجمال وضريبة الشونة وهى أن يقدم الأهالى

للجيش فى جهتهم كل حاجاته ثم رسم الطاحون . على أن إبراهيم باشا لم يكن راضياً عن ثقل الضرائب ولكنهم كانوا يكتبون إليه من القاهرة بأن الضرورة تقضى بذلك ولا مرجع عنه ومع ذلك لم يكن دخل سوريا يكفي للانفاق عليها

أما التجنيد فلم يكن أهل سوريا قد ألفوه ، لأن الحروب والاشتراك بها كانت على وجه عام دائمة ولكنها كانت حروب محلية ولما تقرر التجنيد أخذوا ينفذونه بالقوة بحصار المدن والقرى ، والتقاط الشبان ، كذلك نزع السلاح من الأهالى .

كانت الفتنة الأولى فى فلسطين فان ابراهيم تلقى أوامر والده وهو فى يافا مع أركان حربه بضرب الضرائب التى ذكرناها فأذاع ذلك بمنشور وأوامر أصدرها إلى الحكام فاتفقت أسرة طوفان وأسرة الجزار من جبال نابلس مع أسرة أبى غوش بين القدس ويافا على مقاومة ذلك . وسبب اتفاق هذه الأسر أن الأولين كانوا الحكام على عهد الترك فاسقطهم ابراهيم وأحل محلهم آل عبد الهادى وأما أسرة أبى غوش فكانت تقطع الطريق على الحجاج وسواهم وتأخذ منهم (الخوة) وهى ضريبة على كل مار بالطريق بتناحر أو بمواشى مابين يافا وغزة وبئر سبع فضرب ابراهيم على أيديهم وأبطل تلك المظالم وسجن فى سجن عكا كبيرهم

ولما بلغ ابراهيم تآمرهم أسرع إلى القدس وطلب أعيان البلاد وحتم عليهم تنفيذ الأوامر فوعدوا بابلاغ قومهم ذلك ، وانصرفوا ولكنهم انصرفوا لاضرام نار الفتنة وإذاعة الأخبار عن زحف جيش رشيد باشا من سيواس ، فانتقض العربان فى جهة البحر الميت ، وقبيلة أبى غوش وأهالى جبل نابلس وتحرج موقف الحامية فى القدس . ولما أرادت الانسحاب إلى يافا اعترضتها فى الطريق قبيلة أبي غوش فأكرهتها على العودة إلى القدس والاعتصام بالقلعة . وأرسل

ابراهيم باشا الايا من يافا امداداً للقدس فصدّ عن غرضه . ووصل إليه فى الوقت ذاته أن الثوار فتكوا بحامية الخليل وانهم مقبلون لحصار القدس وقد نهبوها فقام من يافابستة آلاف مقاتل ، فقهر فى طريقه قبيلةأبي غوش ودخل القدس وظل القتال دائرا بين الثوار وجيشه إلى أن وصل محمد على إلى يافا فى ٢٩ يونيو سنة ١٨٣٤ ومعه جيش قوى فغنم ابراهيم الفرصة وتغلب على الثوار بالوسائل السياسية .

وكان أهالى صفد قد ثاروا ونهبوا أموال اليهود وأملاكهم وفتكوا بهم فطلب محمد على من الأمير أمين ابن الأمير بشير الذى أوفده والده لتحية محمد على عند وصوله إلى يافا أن يبلغ والده أن يسير إلى صفد رجاله ويؤدب ثوارهاويرد المسلوبات لليهود فنهض الأمير إلى صفد وقبل أن يدخلها قابله قاضيها وعرض عليه طاعة أهالى صفد ووعدهم برد الأسلاب فقبل طاعتهم وأرسل إلى صفد الأمير افندى حاكم راشيا ليستلم قلعتها ويعيد المسلوبات إلى اليهود فنفذ أمر الامير وقبض على الذين اعتدوا على اليهود وسلبوا أموالهم ، وأرسلهم إلى سجن عكا .

وكان ابراهيم باشا قد أرضى أسرة غوش باخراج زعيمها من سجن عكا وتعيين ابنه متسلماً للقدس وسار ابراهيم باشا إلى جبال نابلس فأخمد الفتنة وقبض على كثيرين من الثوار ثم سار إلى الخليل وقاتل الثوار وكسرهم ثم اتجه إلى الكرك والسلط وأخمد الفتنة وعاد محمد على إلى مصر فى ٢٩ يوليو أى بعد أن استتب النظام فى فلسطين وعاد الأمير بشير إلى لبنان .

وظل ابراهيم يطارد زعماء الثوار الذين لجأوا إلى عرب عنزه فأرسل إلى رؤساء تلك القبيلة ليسلموا زعماء الثورة وأهمهم الشيخ قاسم احمد فسلموهم وحكم عليهم بالاعدام .

ووصل ابراهيم بجيشه إلى دمشق فبلغه من شريف باشا حاكمها أنه لما بلغ أهلها خبر فتنة فلسطين بدت عليهم علائم الاضطراب فأرهبهم بالقبض على المهيجين وجمع منهم نحو خمسة آلاف بندقية وسيف . وامر ابراهيم بمضاعفة الطلب وظهرت بوادر الفتنة فى طرابلس حيث اكتشفوا مؤامرة على حاميتها وعددها ٤٠٠ جندى فأرسل محمد على قبل سفره من يافا إلى الأمير بشير أن يرسل ابنه الأمير خليل ليتحد مع المتسلم سليم بك على تاديب الثوار ولما وصل الأمير خليل برجاله إلى طرابلس ، قبض على ٢٥ رجلا من الجانحين إلى الفتنة واعتقلهم بالقلعة . ووصلت الأوامر من ابراهيم باشا وهو فى دمشق باعدام زعماء الثورة فأعدم ثلاثة عشر منهم واتجه الأمير خايل ومتسلم طراباس إلى بلاد عكار وصافيتا فقبضوا على الزعيمين أسعد بك المرعب وأسعد بك الشديد وعلى ولدين من أولاد محمد بك القدور وعلى ٣٠ شخصاً من الأعيان وهكذا فعلوا فى جهة صافيتا واللاذقية فهدأت الفتن فى هذه الجهات .

بعد أن انتهت فتن فلسطين وصافيتا وعكار للاسباب التى بسطناها وعلى الوجه الذى بيناه وصل الى ابراهيم باشا ، وهو فى المزيريب قاصداً إلى دمشق ، أن النصيرية هاجموا آلايا من جيشه وهو ذاهب من اللاذقية إلى حلب فهزموه وفتكوا بنصف رجاله فى كمين كمنوه له فى الطريق وأكرهوه على التقهقر إلى الساحل وانهم هاجموا بعد ذلك مدينة اللاذقية فنهبوا أملاك الحكومة والمسيحيين وحصروا المتسلم سعيد آغا العينتابى فى داره فأصدر أمره إلى سليم بك بأن يقوم بقوته من طراباس إلى اللاذقية لتأديب العصاة وكتب إلى الأمير بشير الشهابى بأن يرسل أحد أولاده بقوة لبنانية لاخماد الثورة فأرسل الأمير بشير ابنه الأمير خليل على رأس جيشه وأرسل بعض أبناء عمه الأمراء مع رجالهم من وادى التيم للغرض ذاته . ولما وصل الأمير خليل إلى قرية

البهلولية فر النصيرية من وجهه فغنم مواشيهم وما يملكون وأحرق ١٥ قرية من قراهم وتقدم سليم بك من هناك فصدمه الثوار صدمة شديدة فارتد عنهم وأرسل إلى الأمير خليل لينجده فأرسل إليه النجدات وعلى رأسها أحد أولاد عمه الأمير جهجاه فقهروا الثوار وأحرقوا ثلاثين قرية من قراهم ثم تقدم الأمير خليل ومعه فرسان العرب المصريين من عرب الهنادى فطاردوا الثوار مطاردة شديدة اضطرتهم أن يلجأوا إلى قلعة صهيون حيث جاءتهم الامداد فضيق عليهم الأمير خليل حتى اضطرهم إلى طلب الأمان وأرسل الأمير بشير ٥٠٠ رجل من أهالى زحلة و بسكنتا نجدة لابنه فقابل النصيرية تلك النجدة وكانت معركة شديدة عند جسر السن وصل خبرها إلى الأمير خليل فأرسل قوة لانقاذ اللبنانيين فأنقذتهم وطردت النصيرية وطاردتهم فى كل مكان حتى خضدت شوكتهم وقدموا جميعاً طاعتهم وكان ابراهيم باشا قد وصل إلى حمص فأمر باعادة اللبنانيين إلى بلادهم و باعادة الجنود إلى مرابطها وهكذا انتهت الفتن التى قامت فى سنة ٣٣ و ٣٤ وكان أشدها ثورة بلاد النصيرية .

كان الباب العالى هو الذى حرك هـذه الفتن فى سوريا لأنه كان ينوى استخدام معاهدته مع روسيا لاستعادة تلك البلاد من محمـد على بقوة الروس .

و يحدثنا الدكتور محمد صبرى فى كتابه « الأمبراطورية » المصرية عن أعمال الباب العالى فيقول : ان رشيد باشا الذى أرسله الباب العالى إلى سيواس لحشد الجيوش بحجة إخضاع القبائل الكردية حشد الجنود وجمع المدافع على الحدود السورية استعداداً للهجوم على المصريين وهو فى الوقت ذاته كان يدس الدسائس لاثارة الاضطرابات والقلاقل فى بلاد تسهل فيها إثارة الفتن المتفقة مع طبائع أهلها

ولما وصل خبر اتقاد الفتن إلى استامبول فى شهر يوليو اتفق رأى السلطان ورأى بعض رجال الديوان على ن يرسلوا الأوامر إلى رشيد باشا ليساعد الثوار

السوريين وقرروا فى نفس الوقت إرسال الأسطول التركى لمهاجمة محمد على بحراً وأكد ريس أفندى لسفيرى انجلترا وفرنسا أن روسيا لاتشترك فى القتال فى سوريا فأجاب اللورد بونسونبي والأميرال روسين أن السلطان إذا أقدم على قتال محمد علي يعرض تاجه وعرشه للخطر . فهذا القول حمل السلطان على التردد ولكنه ظل يرسل الأموال إلى رشيد باشا . وادخل سفير انكلترا فى صدر السلطان الوسواس بقوله له ان من مصلحة روسيا أن يقوى محمد على لأن ذلك يعود بالوهن والضعف على تركيا وأيد ذلك فى صدر الباب العالى والسلطان رد روسيا على الباب العالى ، وقد طلب منها مساعدته لتأييد الثوار السوريين ، بأن المعاهدة بينهما معاهدة دفاعية وأنها لاتستطيع امداده إذا كان هو المعتدى والمهاجم

أما محمد على فانه كان يرى ذلك كله ولا يخطو خطوة واحدة للتحكك بالباب العالي وقد روى قنصل فرنسا فى الاسكندرية فى كتابه إلى وزير الخارجية «أن محمد على يشبه السلطان برجل يحمل على رأسه اناء من الفخار فهو إذا ظل يمشى وحده قد لا يقع الاناء الى أن يصطدم بأى شخص أو يدنو منه أى شخص فيقع الاناء و يتحطم » فمحمد على لا يريد ان يحطم ذلك الاناء ولكنه لا يريد أن يضمن سلامته وكل ما يريده الآن أن يكون بمعزل عن أى عمل سياسى أو غير سياسى فى الشرق

ولكن السلطان ظل مجداً فى سعايته ضد محمد على . فأرسل فى ١٣ سبتمبر ١٨٣٤ أمير ساموس فوغوريدس بك إلى سفير انكلترا ليعرب له عن رغبة جلالته فى أن تكره انكلترا وفرنسا محمد على على التضحية وعلى أن يكتفى بولاية مصر و باشاوية عكا »

فهذه الأعمال كلها كادت تدعو محمد على إلى العودة لطلب الاستقلال

التام فكتب إلى ابنه ابراهيم فى ٢٤ أغسطوس يذكره بسعى الباب العالى لدى الدول لاكراهه على ترك سوريا وأدنه و بالاستعداد للهجوم عليه ابان الثورة السورية » إلى قوله

« ولنا الأمل بأننا إذا فهمنا الدول الأوروبية سوء نية الباب العالى وخطته العدائية نتمكن من تحطيم هذا القيد ، قيد العبودية الذى نحمله الآن فى أعناقنا » و ينبهه فى هذا الكتاب إلى اتخاذ الحيطة والاستعداد للأزمة التى قد تقع فى المستقبل

فرد ابراهيم باشا على والده يحذره من كل مسعى يسعاه فى هذه الظروف للوصول إلى الاستقلال مخافة أن يتخذ الباب العالى ذلك وسيلة للهجوم عليه لا من أجل الفتن فى سوريا كما كان يريد ، بل من أجل مسلكه معه وأن الجيش المصرى ، بعد طول الحرب ومكافحة الفتن ، قد تولاه التعب والملل فهل هو يستطيع الآن منازلة الجيش التركى ؟؟ وهل الحالة السياسية العامة موافقة لطلب الاستقلال ؟ إلى قوله فى ذلك الكتاب

« إنك تقول لى فى كتابك المؤرخ ٣٠ سبتمبر ١٨٣٤ انه يجب علينا الآن أن نتمكن من تحطيم هذا القيد قيد العبودية الذى نحمله الآن بأعناقنا « وأن نحمله نحن لرجال استانبول » فهل تذكر ياوالدى ومولاى أني ابان الحرب الأولى طلبت منك أن تلقى نير العبودية فاجبتنى أنك تكتفى باسم محمد على ؟ فاذا كنت ترى أن الوقت قد حان الآن لالقاء هذا الغل من أعناقنا فانا أرى أن هذا المسعى ليس من السهل تحقيقه بل أرى الأمر على عكس ذلك أى انى أراه صعباً جداً . فعند الترك رجال أبطال كرجالنا أو هم أكبر بطولة ومهاجمة أسطولهم للسواحل تضر بك أكثر من اضرارها بى »

فلم يرتح محمد على إلى هذا الجواب وعزاه فيما كتبه بعد ذلك إلى ابراهيم ،

إلى تعب أعصابه تعباً قضى عليه بالا يدرك مغزى كتابه ومرماه فلم يمعن فكرته قبل الجواب . فأجاب ابراهيم بما يلى

«تقول لى فى كتابك فى ٢٧ سبتمبر ان عبارتك كانت منحصرة فى ضرورة تحطيم نير التابعية . و إنى أنا فى كتابى عزوت اليك لا حب تحطيم القيد بل دفعه على أعناق الترك وأن هذا الخطأ منى مرجعه إلى عدم فهمى كلامك

«والحقيقة انى أدركت فهم الفاظك وعبارتك و إذا كنت قد زدت عليها كلمة «تحميل القيد لأعناق الترك» فانى قد تعمدت ذلك واليك البيان والسبب

«ان السلطنة التركية تدعى تبوء عرش الخلافة لأنها تملك الأرض المقدسة والحرمين الشريفين على أن الحجاز فى قبضة يدنا الآن فاذا نحن نلنا استقلالنا سقطت حجة تركيا من تلقاء نفسها وسقطت الخلافة عنهم لأنهم لايستطيعون أن يقولوا بعد ذلك فى المساجد عن السلطان انه خادم الحرمين الشريفين لأن الحرمين والأراضى المقدسة تكون فى أيدى الحكومة المصرية وحينئذ وعلى هذا الوجه أجزت لنفسى أن أقول «يحمل الترك نير العبودية بدل مصر»

وليس تبادل الكتب بين محمد على وولده ابراهيم منذ البدء فى حملة سوريا على ما اطلع القراء إلا الدليل على اختلاف طريقة الابن عن طريقة الأب . فابراهيم كان يقول منذ الساعة الأولى بالعمل الحازم و بوضع أوروبا أمام الأمر الواقع قبل أن تسترد نفسها وتعمل فكرتها وتنظم خطتها . ومحمد على كان متردداً يرقب جو السياسة ولا يريد أن يخطو خطوة واحدة غير أمينة العاقبة وزيادة على ماتقدم لتأييد هذا الرأى نورد نص كتاب ابراهيم إلى والده يزيد فيه التبسط فى الموضوع الذى أغضب محمد على قال :

« تذكر ياوالدى أنى عند ماوصلت إلى قونيه الححت بكل خضوع بأن نكسب الفرصة لاعلان استقلالنا فرددت على فى الحال بانك تكتفى « باسم محمد

على » وكنا فى ذاك الحين منتصرين وكانت الفرصة سانحة فلم ترد ، فهل بعد سنتين من تسوية المسألة و إقامة الحدود تطالب الاستقلال ؟ ؟ ان الترك أبرموا فى هذه الفترة معاهدة مع الروس وشروط هذه المعاهدة تقضى بان كل خطوة نخطوها وراء الحدود تعتبرها روسيا اعتداء تدفعه عن تركيا ولكنهم لم يشترطوا منع تركيا عن الاعتداء علينا . فالترك عندهم الضمانة منا ولكنهم أحرار فى أن يهاجمونا ولا تعترض دولة من الدول عليهم

« ولما وثقت الآن من أن الباب العالى يوقد الثورات فى سوريا جنحت إلى الاستقلال مع أن الظروف غير موافقة وهذا الاعلان الذى تعلنه أتم افساد الصلات بيننا و بين الترك مع أنى كنت قد وجهت نظرك إلى خطورة مثل هذا العمل فا كتفيت بان رددت على بأنك « أعلنت إرادتك بالاستقلال »

«وغرضى الوحيد من ذكر ماتقدم هو تذكر الاخطاء الماضية حتى لانتسرع فى المستقبل بأى عمل من الأعمال وحتى نقدر لكل عمل من أعمالنا نتائجه »

وسبب هذا الكتاب الذى أرسله ابراهيم باشا بهذه اللهجة هو أن محمد على أبلغ الدول سراً أن فى نيته اعلان الاستقلال التام فى الوقت الذى أخذت فيه تركيا تستعد وتكسب عطف الدول عليها بينما الجيش المصرى منهوك القوى من الحروب والخزانة فى عجز

فلما رأى محمد على أن الباب العالى يثير الفتن و يحشد الجيوش و يستنجد روسيا لاخراجه من سوريا أبلغ الدول انه عزم على طلب الاستقلال وأرسل إلى ابنه ابراهيم ليكون على استعداد وأهبة فلم يقر ابراهيم هذا الرأى كما ذكرنا . وهاهو نص الكتاب الذى أرسله بوغوص بك الذى كان يتولى إدارة ديوان الخارجية إلى قنصل النمسا .

« لا شك فى أنك عرفت الميول العدائية التى أظهرها الباب العالى حديثاً

ضد مصر. فهو يجمع منذ بضعة شهور و بدون سبب ظاهر جيشاً ضخما فى سيواس بقيادة الصدر الأعظم رشيد باشا مع أن سموه أرسل مندو به لاتمام المباحثات بشأن الجزية التى تدفع و بشأن الجلاء عن أورفا التى أمر ابراهيم باحتلالها موقتاً ليصد بعض القبائل البدوية المتمردة . وفى خلال ذلك أخذ الباب العالى يوزع الأموال بواسطة عبد الله باشا الذى كان حاكما فى عكا لاثارة الثورات والفتن فى جبل نابلس وخليل الرحمن والقدس وقد عمت الثورة تلك الجبال وتطلب إخمادها مجهوداً استنفد ثلاثة أسابيع . ولما وصل إلى محمد على باشا خبر هذه الحركات العدائية أبلغ قناصل الدول أنه قد يرى نفسه مضطراً لاعلان استقلاله لأن الباب العالى لا يرضيه إلا هدمه سياسياً والجميع يعرفون أن سموه لم يطلب فى حين من الأحيان استقلاله ولكن التفرقة التامة والدائمة بين الوطنين العربى والتركى هى الآن الضمانة الوحيدة العاصمة من النتائج المهلكة من جراء الحرب الأهلية الدائمة ومن غزوة أجنبية .

« و إذا اعترف باستقلال سموه فانه يستطيع بعد هذا الاعتراف أن يحصر همّه فى تنظيم ماليته وحشد ١٥٠ ألف مقاتل منظمين تنظيما تاماً فيتمكن من القيام بالمهمة الكبرى وهى المبادرة لانقاذ تركيا من روسيا »

ولما اطلع مترنيخ وزير خارجية النمسا على هذا الكتاب كتب إلى سفيره فى بطرسبورج « إنا نستنتج من اعتراف محمد على انه يريد أمرين : استقلاله التام عن الباب العالى و إنشاء الدولة العربية » وكان إنشاء الدولة العربية هاجساً مقلقاً من هواجس مترنيخ فكان يطلب اتفاق الدول الأربع للحيلولة دونه ولكن انكلترا كانت ترفض كل ارتباط دائم يحول دون حريتها عملا بسياستها التقليدية ولكن نظرها شزراً إلى محمد على بدأ من يوم فتح الحجاز واليمن وطرد الانكليز من مخا وازداد بعد اتفاق كوتاهية ولم تجب محمد على الذى طلب

محالفتها ووضع جيشه قيد إرادتها ولا أجابت على عرضه أن يفتح قناة للتجارة من القاهرة إلى السويس ولا على طلب مشورتها فى إرسال حملة ضد أحد ضباطه الذى ثار فى بلاد اليمن وأخذ السفن الانكليزية مع الوعد بأن يعيد تلك السفن وكان صمتها عن كل ذلك فصيحاً

والذى يبين لنا وجهة نظر الانكليز تقرير قنصلهم فارن فى دمشق فى سنة ١٨٣٤ فقد قال فى هذا التقرير ان تجارة انكلترا لا تتمتع فى بلد من بلاد العالم تمتعها فى تركيا وان الرعايا الانكليز لايميزون فى بلد تميزهم فى بلاد السلطان وان محمد على وحكومته لايمكن أن يعطوا الانكليز هذه الامتيازات وفوق ذلك ان محمد على ينشىء المعامل وهو الآن يورد مصنوعاتها إلى سوريا وكذلك من الوجهة السياسية فان الاتفاق مع الباب العالى أفضل

وهكذا اتحدت انكلترا مع تركيا منذ سنة ١٨٣٤ لمكافحة محمد على وطلبت منه انكلترا خدمة لتجارتها فى مذكرة قدمها إليه الكولونل كامبل فى ٢١ اكتوبر ١٨٣٤ بأن ينشىء طريقاً للمركبات من انطاكية إلى الفرات بطريق حلب وأن ينشىء مستودعاً للبضائع فى ازمير وأن يأذن بعض الانجليز بانشاء حياض على الفرات فى الجهة التى يختارونها و بأن يعين ألاياً لحراسة الحياض والمستودعات و بأن يرسل من لدنه من يوثق صلات المودة مع قبائل البدو حتى لا يعتدوا على المراكب الانكليزية التى تنقل البضائع

وكان رئيس العمل أحد ضباط الطوبجية الانكليزية يريد نقل قطع مركبين حربيين من انطاكية إلى الفرات ، ومعهما شرذمة من الجنود الانكليز مع إنشاء طابية وحصون فى بيره جك ، فرد محمد على بواسطة وزيره بوغوص أن المسألة خطيرة والواجب أن يستأذن السلطان بشأنها لأن محمد على لايزال تابعاً له فسعى الانكليز سعيهم لدى السلطان فأصدر لهم فرماناً بذلك ولكنه اشترط فى هذا الفرمان أن يكون والى بغداد

ووالى سوريا حرين مخيرين بالتنفيذ ، ولما صدر هذا الفرمان مال محمد على إلى تناسى كل شىء بينه و بين الباب العالى والاتفاق معه للحيلولة دون مشروع الانكليز واحتلالهم العسكرى . و إليك رأى ابراهيم باشا فى الرد على كتاب والده فى هذا الموضوع العظيم الشأن :

« مما لاشك فيه انه إذا توصل الانكليز إلى إقامة المعاقل والحصون على مجرى الفرات وحققوا الأمر الذى نخشاه كثيراً جداً ، فقد يعرف الحقيقة القليل من الناس ويدركون انك لست السبب فى ذلك . ولكن عامة الشعب الاسلامى الذى يجهل بواطن الأمور سيقولون ان هذه الأعمال التى تمت على حدودنا إنما كان اتمامها برضانا وتسليمنا . وأما الاتفاق الآن مع الباب العالى على ذلك فهو من الأمور المستحيلة لأن الحرب حفرت هاوية بيننا و بين الترك وقلوبهم ملأى بالحميظة علينا ، زد على ذلك أن طلب الاستقلال الذى وجهته إلى الدول إبان ثورة جبال نابلس ، قد أزال من نفوسهم كل مابقى من الثقة بنا فهم يرفضون كل اتفاق معنا وهم يقولون « إذا نحن اتفقنا مع الانكليز بقيت لنا على الأقل بورصة واستامبول ولا تهدم السلطنة العثمانية ، أما الاتفاق مع محمد على فهو الفناء التام فلم يبق إذاً من شك فى أن الباب العالى يخشى على وجوده و كيانه من وراء الاتفاق معنا »

و يقول الدكتور صبرى فى كتابه « الامبراطورية المصرية » ان محمد على لم ينتصح بنصيحة ابنه ابراهيم بشأن الاتفاق مع الباب العالى على مقاومة المشروع الانكليزى الذى يمس الاسلام فى الصميم . فوسط الروس بينه و بين الباب العالى فغنم الباب العالى الفرصة وأبلغ مسعاه السرى إلى الانكليز ليوقع بينه و بينهم إذ كتب بوتنيف سفير رسيا فى الاستانة إلى زميله الانكليزى بونسونبى فى ٦ نوفمبر ١٨٣٥ انه قدم للباب العالى باسم محمد على اقتراحاً سرياً بالمعنى الآتى —

« ان محمد على يعلن أنه مستعد لأن يقيم العراقيل بكل مالديه من الوسائل ليحول دون نجاح البعثة الانكليزية إلى الفرات على شرط أن يأمره الباب العالى بذلك »

« وهـذا البلاغ مصدره السر عسكر ومن الممكن الوثوق به دون أقل حيطة » .

ولم يفلح المشروع الانكليزى لأن أمره افتضح لدى الدول حتى كتب بونسو دى بورغو إلى سفير روسيا فى الاستانة فى ٥ ديسمبر ١٨٣٢ يقول كما جاء فى سجلات الباب العالى « إن هذا المشروع الانكليزى شديد الخطر على السلطان لأنه إذا سمح بتسيير المراكب الانكليزية على الفرات تبع ذلك طلب آخر يحتم حق استخدام وسائل حماية تلك المراكب وهذا يتطلب إقامة المعاقل والحاميات ولاتكون هناك مندوحة عن ذلك لاسيما إذا نحن نظرنا إلى مايملكه الانكليز من الوسائل فى بلاد الهند

« أما إذا سمح باشا مصر للمراكب الانكليزية أن تأتى إلى السويس فانه لايعرض نفسه و بلاده لأقل خطر لأنهم مضطرون للوقوف على الساحل ولكن الأمر فى الفرات على الضد لأن شواطئه وما حوله من البلاد تؤخذ وتمتلك فى المستقبل »

وهكذا أظهر الانكليز العداء الكامن فى نفوسهم نحو محمد على وهكذا ظهرت مقاصدهم فى أن يملكوا طريق الهند قبل حفر قناة السويس . وقد حدث أمر آخر وهو احتكار محمد على لحرير سوريا حتى يغذى بهذا الحرير معامل القاهرة ودمشق وحلب وقرر أنه بعد تناول هذه المعامل حاجتها يصير بيع الباقى حراً لتجار أوروبا وعين التجار والخبراء لتحديد سعر الحرير ودفع ثمنه نقداً فأثار عليه الانكليز الثوائر بحجة انه احتكر الحرير لنفسه ، ولما

اعترض الـكولونل كامبل على ذلك أمر ابراهيم باشا فى أول سبتمبر ١٨٣٥ بأن تكون تجارة الحرير حرة من كل قيد ونال الانكليز بعد ذلك فرمانا من السلطان بالغاء احتكار الحرير وغنموا فرصة صدور هذا الفرمان ليحطوا من شأن محمد على أمام الشعب وليثيروا عليه ثائرته

وحدث أن شاه ايران أراد توثيق الروابط الودية مع محمد على فأرسل إليه مع سفير خاص ميرزا جعفر كتاباً يحيي فيه « هادم الالحاد وخادم الأماكن المقدسة والحرمين الشريفين » وزاد الشاه على ذلك أنه يهنئه « بميوله وأفكاره المضمرة » أى الاستقلال

فلم يرق عمل الشاه فى نظر سفير انكلترا فسعى لدى الشاه ليعدل عن إرسال مندوبه وكتابه إلى محمد على وعالل ذلك فى كتابه إلى حكومته « بان مطامع الشاه هى أن يوسع أملاكه بالاتفاق مع محمد الطامع الطمع ذاته »

ولما أراد ابراهيم احتلال بيرجك على مجرى الفرات ليحول دون غزو البدو كتب فارن قنصل انكلترا فى دمشق فى ٢٢ أكتوبر ١٨٣٥ « ان هذا الاحتلال يجعل لمحمد على النفوذ الكبير على بلاد العراق وإذا هو وصل العراق بدمشق بمرابط عسكرية فانه يضع لجاماً للقبائل »

وأرسل الكولونيل تايور من بغداد يقول « ان الدير شطر من ولاية بغداد»

وتلت ذلك كله حملة صحف لندن على وزارة الخارجية لأنها ساعدت محمد على أو سمحت له بأن يوسع دائرة حكمه وقد جاء فى وثائق دار السفارة الروسية فى الأستانة أن اللورد بلمرستون ندم على خطأه الذى أخطأه بترك محمد على وشانه

وقد كان محمد على فى كل ما عرضه على الأنكليز يريد اتقاء عداءهم حتى لامه قنصل النمسا عند ما عرض على انكلترا وضع جيشه تحت إشرافهم لأنه

يصبح تابعاً صغيراً لهم بدلا من أن يكون وزيرا خطير الشان فى تركيا فاجابه محمد على : « ان هناك مغامرة خطرة ولكنى رأيت أنه لا مندوحة عن المرور بهذا الخطر »

أما الانكليز فانهم كانوا على أشد الحذر منه وقد كتب قنصلهم فى الاسكندرية يصف محمد على و إبراهيم بقوله :

« أما إبراهيم فانه يعتمد فى كل أعماله على القوة والعمل الفاصل ليبلغ غرضه وأما محمد على فانه عند الاضطرار يستخدم المال والمداهنة والوعود الخلابة والدسائس والحيلة المفتعلة وهو ينبوع لا ينضب فى كل مازق وحرج وهو قادر على التملص مهما ساء موقفه حتى موقف اليأس »

منذ اتفاق كوتاهية أخذت انكلترا تقف فى وجه محمد على لتحول دون تأليف الدولة المصرية الكبيرة من شطر من آسيا وآخر فى أفريقيا ولكن القلوب كانت تهوى إلى مصر من كل جانب فقد عرفنا أنهم بذلوا كل جهدهم ليحولوا دون مجيء رسول الشاه إلى مصر يحمل رسالة الود والولاء من مولاه وحدث قبل ذلك أن اللورد بلمرستون كتب فى أول يوليو ١٨٣٣ إلى الكولونل كامبل قنصل انكلترا فى مصر كتاباً يقول له فيه :

« أرسل إليك مع هذا كتاباً من المستر فرازير قنصل انكلترا فى بونا وقد أرسله إلى وزارة المستعمرات وهو يتعلق بعريضة وجهها — على ما يقال — سيدى على بك مغتصب طرابلس الغرب إلى محمد على يطلب مساعدته فانا أكل إليك أن تتخذ الوسائل لتعرف هل هذه العريضة أرسلت إلى محمد على أم لا ؟ فاذا كانت قد أرسلت إليه فوجه إلى محمد على التنبيه حتى لايتدخل فى هذا النزاع

ولما أراد محمد على فى سنة ١٨٣٧ معاقبة الحبشان الذين اعتدوا على

الأراضى المصرية فى السودان وتوسيع ملكه فى تلك الجهة تلقى من انكلترا انذاراً تقول له فيه « إن الحبشة هى المملكة المسيحية الوحيدة فى أفريقيا وقد أعلنت انكلترا مراراً وتكراراً الأهمية الكبرى التى تعلقها انكلترا على بقاء هذه المملكة سليمة من كل مساس »

أما من جهة العراق وسوريا و بلاد العرب فقد تلقى الكولونل كامبل من اللورد بالمرستون في ٨ ديسمبر ١٨٣٧ البلاغ الآتى :

« إنى أكلفك بأن تبلغ باشا مصر بان حكومة جلالة الملكة تلقت التقارير عن حركات الجنود المصرية فى سوريا و بلاد العرب وهى تدل على أنه ينوى أن يبسط سلطة مصر إلى جهة الخليج الفارسى و ولاية بغداد فأبلغ الباشا بكل صراحة أن الحكومة الانكليزية لاتستطيع أن تنظر دون اكتراث إلى تنفيذ مثل هذه المشروعات

وفى ٢٠ يناير ١٨٣٦ قال ريس أفندى للموسيو بوتنيف سفير القيصر « إن الباب العالى أدرك فى الأيام الأخيرة كل الادراك أنه يستطيع الاعتماد فى المستقبل على مساعدة انكلترا لوضع شكيمة لمطامع باشا مصر فبادر بارسال التعليمات إلى نورى أفندى عند سفره إلى لندرة فى سنة ١٨٣٥ بالسعى لتسيير انكلترا فى هذا السبيل » ولم تفتر تركيا من يوم احتلال محمد على سوريا من إرسال الوفد تلو الوفد والمندوب تلو المندوب إلى لندره لتستعين بها ضد محمد على

أما فرنسا فانها تحولت إلى محمد على تقدم له ما يحتاج من المساعدة وكان كل همها النهائى أن توفق بين محمد على والباب العالى فكان الباب العالى يتظاهر بموافقتها على أن يعطى محمد على حكم مصر و يجعله فى سلالته و يترك له قوة كافية من الجيش. ولكن الظاهر انه كان يقصد مخادعتها بدليل أن وزير خارجية تركيا أرسل فى ١٠ أكتوبر ١٨٣٦ إلى سفير تركيا فى باريس تلغرافا يقول فيه عن

اقتراح سفير فرنسا والتظاهر بقبوله « ان الغرض من هذا التظاهر مجاراته و إرضاؤه فقط دون أن نطلعه على خفايا نفسنا فنحن قد نسلم باعطاء محمد على صيدا وعكا إذا كان هذا الاعطاء يرفع يده عن البلاد الأخرى على شرط أن يرضى ذلك الانكليز ولكى نزيد فى إخفاء ما نضمره قد أرضينا سفير فرنسا بتوقيع الاقتراح الذى اقترحه »

« وعلى انتظار حل هذه المسألة نخادع محمد على ونداهنه جهد الطاقة »

وللوصول إلى هذا الغرض أرسل إلى محمد على باشا صارم افندى ليفاوضه فى ما يرضيه وقد كتب خلوصى باشا عن مهمة صارم افندى يقول « إن القصد الوحيد من إرسال صارم افندى هو الوقوف على مقاصد محمد على ولكنه لم يؤذن له بأن يتفق معه أو يفاوضه انما أفهمه تلميحاً أن الباب العالى قد يرضى باثباته فى حكم مصر مضافاً إليها عكا ولكنه ظهر أن محمد على يريد البقاء فى جميع البلاد التى يحكمها »

ولما ظهرت لمحمد على مهمة صارم افندى قال لأحد القناصل « إن رجال الباب العالى هم الذى أرسلوا يفاوضونى ولكنهم يريدون أن يظهروا للملأ أنى ارتميت على أقدامهم لأطلب منهم بعض الشيء فما فتحته بسيفى لا ينازعنى فيه منازع لا أنا ولا ابنى أما سلالتنا فانها تعمل ما يكون بامكانها للمحافظة على حقوقها »

وكتب سفير فرنسا إلى حكومته يقول : « ان غرض الانكليز الآن هو أن يستولوا هم على مصر وهذا لا يتفق مع مصلحة فرنسا لأنهم إذا هم احتلوا مصر استحال على فرنسا أن تظل فى الجزائر فمن مصلحة فرنسا حل مسألة مصر باعطائها لمحمد على وسلالته بعده »

هـذه كلها هى الأسس التى بنيت عليها سياسة الدول فى ذاك الحين وظهرت آثارها اليوم

كل هذه المشاغل والمتاعب السياسية لم تشغل محمد على وابراهيم عن تنظيم بلاد سوريا فأول هم ابراهيم كان توحيد شعب سوريا بازالة الفوارق الدينية ففتح أبواب دمشق للأوروبيين وكان دخولها محرماً عليهم وقرر المساواة بين المسلمين واليهود والنصارى فأعلن الأهالى أن اليهود والنصارى ليسوا أحط من المسلمين مقاماً حتى ينزل النصرانى عن دابته إذا قابل فى الطريق أى شخص مسلم ولا أن يحرم عليهم لبس الحذاء الأحمر ولا أن يكرهوا على ارتداء الملابس السوداء والزرقاء وأذن للتجار الأجانب بأن يبتاعوا و يبيعوا فى داخل البلاد وقد كان محظوراً عليهم الاتجار مع غير بعض الموانى فى الساحل وأمر باحصاء الأهالى ليعرف حاجاتهم والأعمال التى يقدرون على القيام بها فكان عددهم على وجه التقريب نحو مليونى نفس وهو :

٩٧٧٠٠٠ مسلم

٣٤٥٠٠٠ ارثوذكسى

٢٦٠٠٠٠ كاثوليكى ومارونى

١٧٥٠٠٠ يهودى

٤٨٠٠٠ درزى

٤٢٠٠٠ نصيرى

١٥٠٠٠ متوالى و يزدى

وأخذ ابراهيم يولى غير المحمديين الوظائف فى الحكومة وألف المحاكم المدنية كما ألف دواوين المشورة من الأعيان ووجه نظره إلى القضاء على وجه

التخصيص حتى كتب الكولونل كامبل قنصل انكلترا فى الاسكندرية إلى حكومته فى سنة ١٨٣٧ يقول :

« ان القضاء فى سوريا قد سار فى مدة قصيرة سيرته فى مصر بعد طول الاختبار فيها فقد كان القاضى الشرعى يحكم فى جميع القضايا وكان الباب العالى يعين المفتى فى كل سنة والمفتى يعين القضاة وهؤلاء يحكمون بأحكام الشريعة ولا تقبل شهادة المسيحى إلا فى حالة عدم وجود الشاهد المسلم ولا يستطيع الانسان أن يتصور الفساد والرشوة حتى أنهم كانوا يعرفون فى استامبول قهوة للشهود الزور يقاول الواحد منهم على شهادته وعلى مدة الأيام التى يستخدم فيها لأداء هـذه الشهادة وقد يتمكن المفتى فى مدى السنة التى يعين فيها من جمع ثروة طائلة لأن تعيين القاضى لبس بالجدارة والاستحقاق بل بالثمن و إذا لم يكن بامكان محمد على إزالة ذلك كله دفعة واحدة إلا أنه خفف منه كثيراً جداً وأكبر عمل عمله هو انه لا يسمح للمحكمة بنظر القضية إلا إذا تلقت إذناً بذلك من الحاكم فالى الحاكم تقدم مذكرة بموضوع القضية وهو يصدر بعد ذلك الاذن والحاكم لا يمنع نظر أية قضية ما عدا القضايا الجنائية . أما قضايا الأحوال الشخصية وقضايا الملكية والمذهب الخ فان الحاكم يدرس مذكرتها ثم يحيلها إلى القاضى بقرار يانخص فيه الموضوع أما قضايا الضرائب والتجارة والديون الخ فانها تحال على ديوان المشورة »

وكافح ابراهيم الرشوة بما أحله بالقضاة من العقاب حتى استقام أمرهم وساروا على منهاج العدالة والانصاف ولم يكن للقضاة رواتب فقرر أن يعطى القاضى فى العام من ٥٠ إلى ٦٥ جنيهاً وعين الرواتب لجميع الموظفين وكانوا يتناولون أجورهم من أصحاب القضايا وعمم مجالس المشورة فى عكا و بيروت ودمشق وحلب وعنتاب وكلليس وجعل الديوان العالى فى دمشق وكان بحرى بك رئيس هـذا

الديوان الذى ينقض الأحكام أو يقرها بأمر الحاكم شريف باشا ولم يتخذ ابراهيم لنفسه مقراً ثابتاً لأنه صمم على أن يشرف بنفسه على جميع الشؤون فكان ينتقل من بلد إلى آخر وكان يطلع فى كل بلد على شؤونه ورقابة حكامه والموظفين فيه وكان يعامل الموظفين الكبار إذا خرجوا عن جادة العدالة بكل صرامة » اه

و إليك ما كتبه المستر فيرى قنصل انكلترا فى دمشق إلى حكومته :

« ان ابراهيم باشا فتش أثناء إقامته هنا أعمال الحكومة والحكام فوجد فى أعمالهم مايوجب المؤاخذة والعقاب فطرد عدداً كبيراً من الموظفين وأنزل رتب البعض وحكم على أحد حجاب شريف باشا الحاكم العام بالسجن خمس سنين فى عكا وذهب بنفسه إلى ديوان المشورة ولم يسمح لأعضاء هذا الديوان بأن يغادروا عملهم مدة عدة أيام إلى أن أتموا الأعمال التى كانت متراكمة فيه »

ولما قامت فتنة فلسطين وجبال نابلس فى شهر يونيو من سنة ١٨٣٤ قصد محمد على إلى تلك البلاد ليباحث ابنه ابراهيم فى تنظيم إدارتها وليقف منه على كل شىء وليعاونه على إخماد الفتن ولكنه لم يقم هناك سوى شهر واحد أى من ٢٩ يونيو إلى ٢٩ يوليو وعاد إلى مصر وواصل ابراهيم عمله فى اخماد الفتن فى الجهات الأخرى يعاونه الأمير بشير الشهابى . وألف محمد على مجلساً لادارة الشؤون فى مصر مدة غيابه برياسة عبدى بك أحد المتخرجين من مدارس فرنسا العليا فى التدبير السياسى وجعل أعضاء هذا المجلس العالى من رؤساء الدواوين ومن اثنين من كل مديرية وأن يقسم المجلس أقساماً فيختص كل قسم بما خصص له أعضاؤه و ينفذ الرئيس القرارات

و بعد أن أطفأ ابراهيم الفتن استدعاه والده من سوريا ليستريح وليتفق معه على إدارة شؤون تلك البلاد ولا سيما مسألة جبل لبنان فاقام ابراهيم فى القاهرة من يناير إلى أغسطوس ١٨٣٥ و بعد عودته إلى سوريا أخذ ينفذ الخطة

التى اتفق عليها مع والده وهى تجنيد اللبنانيين ونزع سلاحهم لأنه و إن كان الأمير بشير حليف محمد على إلا أنه كان يخشى اللبنانيين إذا ظلوا مساحين فطلب ابراهيم باشا من الأمير بشير ١٨٠٠ شاب من الدروز ليجندوا فأبى الدروز تقديم شبانهم وأوهم المسيحيين أنه سيعفيهم من التجنيد ونزع السلاح . وجاء حنا بحرى لاقناع الدروز بتسليم السلاح فلم يقنعوا فزحف ابراهيم باشا بجيش كبير فأرسل الأمير بشير أولاده وأحفاده ليجمعوا السلاح من الدروز و بعد ذلك طلب السلاح من النصارى وترك دروز حوران وشأنهم وكان الكثيرون من شبان الدروز قد غادروا لبنان إلى حوران وانتهي الأمر بعد أخذ سلاح الدروز والنصارى بأنه أمر بارسال ٦٠٠ شاب من الدروز إلى عكا ومصر ليدربوا على الاعمال العسكرية ثم أخذ ابراهيم باتمام تنظيم الشؤون فى انحاء تلك البلاد تنفيذاً للبرنامج الذى حمله من مصر وهو يتناول كل فرع من فروع الحياة القومية فى تلك الاقطار وكان مذهب ابراهيم فى إدارة تلك البلاد هو مذهب نابليون « بأن الشورى للجماعة والتنفيذ للفرد » لذلك حاول أن يكون حوله جميع الذين يستطيعون الخدمة وخدمة المصلحة ولكنه حال دون مرامه أمران: الأول فقر البلاد بالرجال الصالحين لتولى العمل والثانى فساد الموظفين وأخذهم بالطرق القديمة وقد كتب عنه المستر يانس فى كتابه تاريخ مصر الحديث « إن هذا الأمير كان محباً للعدالة ولما كان متوليا أمور سوريا لم يهمل وسيلة من الوسائل لكبح جماح الموظفين وقمع فسادهم فأنزل قيمة الفوائد المالية والربا الذى كان يحصله الصراف والمرابون وفتح بابه لكل سائل ومتظلم وكان الناس يغنمون فرصة خروجه من باب ديوانه ليبسطوا له ظلاماتهم ودون شاهد عيان أن جبليا اعترض ابراهيم باشا فى طريقه ليبسط له ظلامته فلما ضاق صدر الباشا قال له : « ياعزيزى لقد طالعت اليوم مائتى عريضة وأود أن ارتاح قليلا فثق بأن

عريضتك ستكون موضوع عنايتى » وحدث مرة أخرى أن أهالى الناصرة تظلموا من سلب الحاكم الأموال ، فأمره ابراهيم بان يقدم حساباته بلا إبطاء فظهرله أنه زاد مبلغ ٦٠٠ قرش على الضرائب ولما كان هذا الموظف لم يصرف فى الخدمة سوى ١٢ شهراً فأمر بسجنه فى سجن عكا ١٢ شهراً كاملا

وكتب الكولونيل كامبل إلى حكومته سنة ١٨٣٤ يقول : « كان من عادة أعيان سوريا أن يقدموا فى شهر رمضان الهدايا للولاة والحكام ، وقد أمر ابراهيم بمنع هذه الهدايا لأنها لا تخلو من معنى الرشوة ، وكان ابراهيم يحب الزراعة فأنشأ المصرف الزراعى لإعطاء الفلاحين مايحتاجونه من المال لزرع أرضهم ووقاهم شر البدو الذين كانوا يعتدون على المزارع » وكتب إلى حكومته فى ١٥ ابريل سنة ١٨٣٤ يقول « لا تزال إلى الآن مساحة كبيرة من الأراضى بورا ولكى يشجع ابراهيم الفلاحين على الزرع عين صرافا فى حلب وآخر فى ادنه وثالثاً فى دمشق ووضع تحت تصرف كل صراف ألف كيس « ٥ آلاف جنيه » يعطون منها اصحاب الأملاك حاجتهم وبما أن غرضه تنشيط الزراعة فانه وجه إلى الولاة اللوائح بهذا الشأن وقبل نظام ابراهيم كانت الفائدة ٥٠ للمائة ومع ذلك فالفائدة التى يتناولها الولاة اليوم عالية لأنها ٢٠ للمائة ، وكانت نتيجة عمل ابراهيم ونظامه أن تضاعفت حاصلات تلك البلاد ثلاثة أضعاف ، وحل اليسر محل العسر وعمرت الأرض » . وكتب هذا القنصل ذاته فى سنة ١٨٣٦ « إن ابراهيم أنفق أموالا طائلة على الزراعة ، وقد كان الأهالى هجروا كثيراً من القرى فعادوا إليها وزادت حاصلات الحرير » وكتب مولينوا قنصل سردينيا فى حلب « ان الفلاح السورى قد أثرى فى ظل الحكم المصرى »

وكتب قنصل فرنسا فى القاهرة « ان النهر الجارى من عينتاب إلى حلب قد طهره ابراهيم ونظفه فرادت مياهه الجارية ، وهو صارف جهده لتنشيف المناقع حول الاسكندرونة وسيصبح النهران اللذان يجريان بطرسوس صالحين لسير المراكب وقد أنشأ هناك الطرقات على الساحل وفى الجبال لنقل الحاصلات والأخشاب وكل الشكوى كانت من أن الفلاحين كانوا يقتلعون فى الليل ما يغرسونه فى النهار ، وقد عزوا ذلك إلى الجهل ولكن المسيو لورين قنصل فرنسا علل ذلك بجور الموظفين ، وقد قال فى تقريره عن سنة ١٨٣٩ ان زيادة الأرض المزروعة بلغت ٨٠ ألف فدان فى سنتين ، وغرسوا آلافا من شجر التوت والزيتون ولكن رجال الميرى لم يفرقوا لجهلهم وغطرستهم بين النبت القديم والحديث فضربوا الضرائب عليهما جميعاً ، لذلك اقتلع الأهالى الغرس الجديد ولما وصل الخبر الى ابراهيم باشا استنكر عمل موظفى الميرى ، وأمر محمد على بمعاقبتهم ولكن الضرر كان قد وقع وعدل الأهالى عن الزرع »

وأمر ابراهيم كما جاء فى تقرير قنصل انجلترا فى حلب بالغاء أخذ الخمس من الحاصلات الزراعية ووزع ٤٤٦ شمبل من البذار (والشنبل ٧٥ أقة) و ٣٢٠٤٠٠ قرش على الفلاحين وزرع ٢٤٧ الف شجرة توت و ٥٢٤٥٥ شجرة زيتون و ٢٦٤٩٠٠ غرسة عنب ووزع ٦١١ محراثاً وكان قد وزع قبل ذلك ١٧١٨ محراثاً

وكتب بورفيل قنصل فرنسا فى حلب سنة ١٨٣٦ : « ان المجهود الذى يبذله ابراهيم ليعزز مركزه فى سوريا لهو مجهود لايعرف التعب اليه سبيلاً وهو يظهر حزماً عجيباً وإذاحدثته أظهر عطفه الكبير على الأهالى وهو يود من صميم فؤاده نشر المدنية بينهم

وروى عنه القنصل كامبل عند مازاره فى برية حلب وهو منهمك بابادة

الجراد فقال وجدته نازلا فى خيمة قديمة كاحد العساكر وهو فى أثواب تكاد تكون رثة ويجلس على سجادة قديمة ويتكىء على سرج جواده ، ولم يكن عنده سوى كرسى واحد قدمه لى وحدثنى عن الجراد فقال إنه يأمل إبادة بيضه قبل أن يفقس ويضر بالزرع وقد وزع عساكره العشرة الآلاف على عدة مناطق وقال لى انا أحرقنا حتى الآن ١٦ الف اردب » والذى يؤخذ من تقارير القناصل ان ابراهيم أدخل زراعات جديدة فى انحاء سوريا كلها وأتى بأنواع النبات والأشجار من أوروبا ولما خرج المصريون من سوريا كتب قنصل انكلترا يقول ان كل مافعله ابراهيم قد أهمل وبار حتى القرى التى أنشاها لتحضير البدو قد تهدمت

أما الصناعة فكان تقدمها فى المدن كبيراً فكتب المسيو بوالكنت يقول ان كل مدينة من مدن سوريا تختص الآن بنوع من الصناعة فدمشق تصنع الآن ٤٠٠ الف ثوب من الحرير الممزوج بالقطن يبلغ ثمنها ستة ملايين فرنك وحلب تصنع المقصبات من الحرير والذهب ومصنوعاتها أفضل من مصنوعات ليون وأمتن وأرخص وطرابلس تصنع الأحزمة والزنار وأهالى القرى قد تعلموا نسج الحرير واشتهرت دمشق فى كل انحاء الشرق بصنع سروج الخيل وطرابلس والقدس ونابلس ويافا والرملة تعلمت صنع الصابون والخليل تصنع المصابيح الزجاجية وانطاكية ودمشق تتقنان الآن دبغ الجلود وطرسوس تصنع أشرعة المراكب التجارية ولحماية هذه الصناعات زاد محمد على الضرائب الجمركية على مثيلاتها ٣ بالمئة بحجة أن الدول الأوروبية تحارب مصنوعات بلاده فى أملاكها وقد راجت المصنوعات السورية فى بلاد العرب وإيران وما وراءها وتركيا كلها

ويقول الكولونل كامبل ان ما استنفدته معامل حلب ودمشق وحماه وطرابلس ودير القمر وصيدا من حرير البلاد السورية بلغ فى سنة ١٨٣٦ الفا و ٢٠٠ قنطار

وأنشأ ابراهيم معملا لنسج الصوف فى صيدا يكفى سكان الجبال الباردة حاجتهم كما أنشأ معاصر لزيت الزيتون فى طربلس وأتى بالآلات والعدد من فرنسا

واستخدم محمد على علماء المعادن للبحث عنها فى أراضى لبنان وسوريا فوكل إلى المهندسين الفرنساويين البحث عن الرخام وامثاله وإلى الانكليز البحث فى لبنان وفلسطين عن الفحم الحجرى وإلى النمساويين البحث عن الرصاص والفضة والنحاس والذهب والحديد فى بلاد النصيرية

وزادت بعد ذلك تجارة سوريا زيادة كبيرة جداً فقد بلغت ٣١ مليون فرنك فى سنة ١٨٣٣ وأخذت بالنمو حتى وصلت إلى ٤٨ مليوناً فى سنة ١٨٣٥ كما جاء فى تقارير قناصل الدول وأهمها تقريرا كامبل قنصل انكلترا ولورين قنصل فرنسا وصارت دمشق — وعدد سكانها ١٢٠ ألفاً — مركز تجارة الشرق ، وحلب تجارة الأناضول والعراق واهتم ابراهيم بطرق المواصلات فأنشأ الطرفات وبنى ٣٠ مركباً للنقل من انطاكية فى نهر العاصى فاتهمه قنصل انكلترا بأنه يريد من ذلك فتح بغداد ولكن ابراهيم كان يود أن يعيد لإنطاكية مجدها القديم لأنها كانت عاصمة الشرق يوم كانت رومة عاصمة الغرب .

هذا هو المجهود الذى بذله ابراهيم باشا لتعمير سوريا وتحضير البدو وتلك هى النتائج الباهرة التى وصل اليها فى سنين قليلة وقد عرفنا من الوجهة السياسية ان اتفاق كوتاهية كان هدنة فقط وان سياسة انكلترا نحو مصر تغيرت كل التغيير بعد ما استخلصت تركيا من نفوذ الروس لنفسها ولنفوذها فصار همها هدم محمد على ونفوذه كما يستدل من نص التعليمات التى أصدرها اللورد بلمرستون الى القنصل الانكليزى فى حلب بأن يثير ثائرة الأهالى على محمد على و بأن ينشر دعاية السلطان محمود وقدحدث اللورد بونسونبى سفير انكلترا فى الاستانة

فى سنة ١٨٣٤ البارون ستومر سفير النمسا عن محمد على فقال

أما الآن فانى لا أخشى محمد على لأنه فوت الفرصة الوحيدة التى عنت له وكان باستطاعته أن يلعب دوراً فى منتهى الأهمية ، وأن يجعل نفسه رجلا هائلا وهذه الفرصة التى فاتته لن تعود ولن ترجع ثانية ، فقد كان عليه أن يأتى هو ذاته على رأس جيشه الى استامبول لا أن يرسل ابنه ابراهيم ولو انه فعل لعزل السلطان وجلس على عرشه اذا هو أراد . وقد كان كل شىء معداً كما تعلم أنت وأعرف أنا . لأن السخط على السلطان كان عاما وجميع الانظار والآمال تتجه الى محمد على و بما أنه لم يجد فى نفسه القوة للانتفاع من افتراض كهذا ، كانت جميع دلائله فى جانبه ، فلم يبق أمامنا شىء نخشاه »

وكان يضاعف فى سخط بلمرستون على محمد على انه يكاد يؤلف امبراطورية من آسيا وافريقيا وهذه الامبراطورية اذا تركت وشأنها فانها تكون أكبر حاجز فى وجه التجارة الأوروبية والانكليزية على وجه التخصيص لأن الأرقام دلت على ما جاء فى تقرير قنصل انكلترا أن الصادرات من مصر الى انجلترا زادت زيادة كبيرة على الواردات من انجلترا الى مصر وسوريا وهذه الحالة فى تزايد متواصل

واذا أردنا أن نعرف سبب الفتن والثورات فى سوريا عدنا الى أقوال قناصل الدول ذاتهم قبل العودة الى الوثائق المصرية . فبعد فتنة نابلس أرسلت انكلترا قنصلها فى الاسكندرية الى فلسطين للتحقيق عن أسباب هذه الفتنة فكتب يقول ان الثوار هم فى الأصل الترك من جبال نابلس بزعامة الشيخ عيسى بن عمر وأهل جبال القدس بقيادة ابراهيم أبو غوش انضم اليهم أربعة آلاف من عرب عنزه لأن ابراهيم أبو غوش الذى سجن ابراهيم والده فى عكا زوج بنت أمير عنزه وسبب سجن أبو غوش هو انه ظل يطالب الأتاوة من أديرة الرهبان فى القدس رغم تحريم ذلك ولم ينقطع عن سلب الحجاج ونهبهم ومنع ابراهيم

البدو من التعدى على املاك الحضر وعزل الموظفين الترك وكانوا جيشا جرارا وعين لهم الرواتب التى تكفيهم فحدث ان شابا تركيا ذهب من يافا الى نابلس حيث صنع صليبا من الخشب وصعد الى مأذنة الجامع الكبير فى نابلس و بيده ذلك الصليب فأخذ يصيح من فوق المأذنة : هل ذهب دين محمد وانقضى ؟ ؟ هل ارتفع الصليب على الهلال ؟ من كان منكم مسلما فليقاتل هذا النصرانى ابراهيم باشا

و يقول الكولونل كامبل ان فى ذلك أكبر شهادة لابراهيم لأنه حرم النهب والسلب وحمى اليهود والنصارى مما كانوا يلقون من الاضطهاد و بسط ظل الأمن فى البادية

وأرسلت روسيا قنصلها دى هامل الى سوريا للغرض ذاته فقابل هذا القنصل الأمير بشير الشهابى وسأله عن سبب الفتنة فقال له الأمير « ان الباشوات الذين كانت ترسلهم إلينا تركيا لم يكونوا حكاماً وولاة ولكنهم كانوا مدمرين هدامين لهذه البلاد ، و إذا أردت برهانا فانظر إلى هذه السهول الخصبة التى ما كان يزرعها أحد ولا يسكنها أحد وانظر إلى هذه القرى وكان قد هجرها أهلها وسكانها فابراهيم باشا يبذل الجهد ليلاً هذه القرى بالسكان من عرب البادية ومنذ بسطت حكومة مصر يدها على هذه البلاد تغيرت الحال و بدأ اليسر ولولا التجنيد الاجبارى لاستطعنا أن نقول ان البلاد فى غبطة وسعادة تامين »

ولقد عرف محمد على ان الشر أيضا فى مسلك الموظفين مع الأهالى بدليل الحديث الذى نقله عنه قنصل انكلترا اذ قال له : « انى أعرف ان الشر آت من جهتين : جهل الأهالى وشراسة الموظفين . واذا عدت الى التاريخ وجدت أن الأمم الأوروبية لم تخل من هذا العيب ، ولكن هذا العيب ضوعف بأعمال

السخرة لاقامة الحصون والمعاقل ومطاردة الشبان مطاردة فى المنازل والقرى وفى كل جهة

وهذا التجنيد ، مضاعفا بالأسباب الأخرى السياسية المعروفة ، كان سبب الثورة الدرزية فى حوران فى سنة ١٨٣٧ . فان ابراهيم باشا دعا الحكام والولاة الى اجتماع عقدوه فى عكا وأبلغهم اوامره باجراء التجنيد العام على قاعدة أخذ رجل واحد من كل عشرة رجال وأرسل شريف باشا الى شيخ مشايخ الدروز يحيي حمدان فلما حضر اليه مع الوجوه طلب منه ١٧٠ شابا للجندية فاعتذر الشيخ عن ذلك وحاول اقناع شريف باشا بأن الشبان الدروز فى حوران يدافعون عن بلادهم من اعتداء البدو فما كان من هذا على ما روى الدكتور غالياردو إلا أن عبث بلحية الشيخ مهدداً فقال له الشيخ أنا ذاهب وسأحضر اليك بعدد من الرجال أكبر مما طلبت ولما عاد الشيخ وأصحابه الى حوران عقدوا جمعيتهم واتفقوا على الانتقام لشيخ مشايخهم عن هذه الاهانة وأرسلوا الرسل الى عرب السلوط لمحالفتهم وبدأ العدوان بأن نهبوا أملاك شريف باشا والى دمشق و بحرى بك مدير مالية سوريا . فوجه اليهم شريف باشا قوة من ٤٠٠ جندى فاجتمع قائدالقوة بكبارهم فى قرية النعلة فوعد الدروز باعادة ماسلبوه و بتقديم المجندين فى مدى عشرة أيام ولكنهم انقضوا فى الليل على تلك القوة فأفنوهاولم ينج منها إلا ثلاثون جنديا . وكان الدروز قد انسحبوا من الحضر الى اللجاه والوعر واللجاه وعر بركانى كثير التجاويف والمنعرجات لا يستطيع السائر أن يخطو فيه خطوة واحدة دون دليل فوجه ابراهيم باشا حملة كبيرة بقيادة محمد باشا مفتش الجهادية فاستدرج الدروز الحملة الى داخل اللجاه حتى إذا مادخلت الوعر طلع عليها الدروز من مكامنهم الخفية فقتلوا محمود باشا و بعض القواد ومزقوا القوة وغنموا ما معها فذهب شريف باشا وجمع شتات الحملة وطلب ابراهيم باشا من

من والده إرسال احمد باشا المنيكلى لتولى رياسة الحملة لانهما كه هو باتخاذ التدابير اللازمة لمواجهة الترك الذين كانوا يتأهبون على الحدود . فدخل احمد باشا اللجاه للبحث عن الدروز فظهر أمامه بعض طلائعهم . فأمر باقتفاء أثرهم . فاستدرجوه إلى الوعر فخدع كما خدع محمد باشا وكان نصيب جيشه نصيب جيش محمد باشا وكان هذا الانكسار الثانى وسيلة لنشر الدعاية ضد قوة الجيش المصرى ونهض دروز وادى التيم ولبنان لشد ازر اخوانهم وقطع طرق المواصلات ، فأرسل الأمير بشير بعض الأمراء لتأمين المواصلات ، فنهض شبلى العريان قائد دروز وادى التيم لمقاتلة الأمير سعد الدين شهاب فى حاصبيا وانضم إليه أميران من أمراء الشهابيين لأنه كان من عاداتهم المرعية أنه لايجوز أن يحارب الأمراء غير الأمراء وبعد قتال طويل أرسل الأمير بشير ولده خليلا فانسحب شبلى العريان إلى حوران وانضم رجاله إلى الثوار ، وأرسل ابراهيم باشا إلى والده يطلب الجنود الأرناؤوط لمحاربة الدروز فى الوعر لان الجنود النظامية المصرية لم تألف هذا الضرب من القتال وعين سليمان باشا الفرنساوى قائداً للحملة فتريث سليمان باشا إلى أن يحل فصل القيظ ويقل الماء فى مغاور اللجاه والوعر فيضطر الدروز إلى الخروج لانتجاع الماء ولكن الدروز ظلوا يشنون الغارة على الطرق وعلى قوافل الذخيرة وبانوا احدى الحملات ليلا ففتكوا بها

ولما وصل الأرناؤوط فى شهر ابريل سنة ١٨٣٨ تولى ابراهيم باشا القيادة وقسم جيشه أربعة أقسام أحاطت باللجاه وصرفت همها إلى الاستيلاء على المياه ودامت المعارك حول المياه نحو شهرين ولما اشتد الضيق بالثوار توجه شبلى العريان من حوران مع مائتى مقاتل إلى راشيا فقتل المتسلم والجنود ليحول ضغط قوة ابراهيم عن اللجاه ووجهت اليه قوة من الشام فانتصر عليها وضيق

على الجنود فى القلعة فخرجوا ولكنه لحق بهم واستولى على أسلحتهم وذخائرهم وانضم إليه عدد كبير من دروز لبنان فكتب ابراهيم باشا إلى الأمير بشير يطلب ارسال أربعة آلاف رجل من نصارى لبنان مع ابنه خليل لقتال شبلى عريان على أن تبقى لهم أسلحتهم طول الحياة ، وجاء ابراهيم باشا ذاته إلى راشيا وجرت معركة بين الدروز والجيش فى وادى بكا فانكسر الدروز وارتدوا إلى سفح جبل الشيخ فأمر ابراهيم باشا الأمير خليل الشهابى بالزحف على الجبل ولكن الدروز صدوا رجاله وهجم جيش ابراهيم باشا فتغلب عليهم فأرسلوا وجوههم إليه للتسليم فقبل تسليمهم على أن يسلموا أسلحتهم و يعودوا إلى وطنهم وأمر بمطاردة شبلى العريان والقبض عليه وانتهى الأمر بأن سلم شبلى فعفا عنه ابراهيم باشا وعينه قائداً لفرقة نظامية من الهوارة

و بعد ذلك أوفد الأمير بشير أحد رجاله جرجس أبو ديس يدعو دروز حوران للتسليم وأرسل ابراهيم باشا معه الشيخ حسن البيطار للغرض ذاته فسلموا وقدموا لابراهيم باشا ٧٠٠ بندقية من سلاحهم وألفى بندقية كانوا قد غنموها من الجيش وأعفاهم ابراهيم باشا من الجندية والسخرة لأنهم يقومون بحماية بلادهم وما جاورها من سطو بدو الصحراء ، وهكذا انتهت هذه الثورة التى ابتدأت فى نوفمبر ، فى آخر شهر أغسطوس ، و يقدر القناصل الذين كتبوا عنها أن خسائر ابراهيم باشا كانت فيها عشرة آلاف رجل كما كانت خسائره فى ثورة جبال نابلس وفلسطين وسواها أربعة آلاف نفس وأظهر الدروز من الشجاعة وحسن التدريب والشهامة ما أعجب به كبار القواد

وفى ابان ذلك وصل إلى بيت الدين مقر الأمير بشير الدكتور كلوت بك مفتش صحة الجيش المصرى فطلب منه الأمير أن يستأذن محمد على بارسال بعض الشبان

ليتعلموا الطب فى مصر فأجاب محمد الطلب على أن يكون تعليمهم مجانا ، فكان الوفد الأول مؤلفا من أربعة رابعهم سليم مملوك الأمير وظلت هذه البعثات تفد من لبنان احداها تلو الأخرى وتتلقى علم الطب مجانا فى مصر حتى أول عهد الاحتلال الأنكليزى فانقطعت

وكان الأمراء اللبنانيون يلبسون العمائم فطلب منهم ابراهيم باشا توحيداً للزى فى جميع الأقطار الخاضعة لمحمد على طرح العمائم ولبس الطربوش فأصدر الأمير بشير أمراً بذلك إلى الأمراء أولاد عمه وأقتفى أثرهم أعيان البلاد

ولكن الأمير بشير ظل متغيراً على شريف باشا والى سوريا حتى أنه أبى زيارته مراراً وهو فى دمشق لأن شريف باشا سأله مرة « من صيرك أميرا » فوضع الامير يده على قائم سيفه وقال له : هذا

الفصل الثانى عشر

حرب جديدة بين الترك والمصريين — فوز ابراهيم باشا

المصير الأخير

لما نظم ابراهيم باشا سوريا أتيح للأجانب ولقناصل الدول أن يكونوا أحراراً فى تلك البلاد وأن يتجروا بلا عائق ولا مانع مع أن تجارتهم كانت محصورة ببعض الموانىء ولكن القناصل الذين اتخذوا الامتيازات تكأة لهم الفوا من أنفسهم دولة فى الدولة وكانوا يعطون الحماية لمن أرادوا و بما أن متاجر الأجانب كانت تدفع ٣ بالمئة ومتاجر الرعاية كانت تدفع ٢٠ بالمئة فقد أخذ القناصل أكثر التجار تحت حمايتهم ليعفوا من زيادة الرسوم الجمركية وكان هم الانكليز على وجه التخصيص أن ينقصوا دخل الحكومة المصرية حتى لا تستطيع الانفاق على جيشها وأسطولها فتضعف فاتهمت محمد على بانه يحتكر الحاصلات واستصدرت من الباب العالى أمراً بمنع الاحتكار وكان بعض القناصل الذين لم يدخلوا سوريا قبل الحكومة المصرية يدسون الدسائس السياسية لهذه الحكومة كالقنصل الانكليزى فارين فى دمشق وزميله فرى فى حلب معتمدين فى ذلك على الموظفين الترك الذين عزلوا من الخدمة وعلى قبائل البدو التى كانت تتناول قبل الحكم المصرى الخوة من الحضر والقرى القريبة من البادية ومن قوافل التجار التى تمر بالبادية ومن النصارى واليهود

وفى سنة ١٨٣٤ أرسل سفير انكلترا فى الاستانة إلى سوريا ترجمان السفارة ريشارد وود لاثارة الأهالى ضد الحكومة المصرية فلما وصل إلى لبنان

اتخذ الخورى ارسانيوس الفاخورى أستاذاً له ليلقنه اللغة العربية وكان ذلك الخورى (القسيس) من علمائهم المشهورين . واتخذ كسروان فى وسط لبنان مركزاً لعمله فصرف هناك سنتين كاملتين فى تلقى اللغة العربية فى الظاهر وفى دس الدسائس فى الباطن . وتربة لبنان كانت معدة لذلك ، لان ابراهيم لم يف بوعده للبنانيين باحترام استقلالهم فضرب عليهم الضرائب ونزع سلاحهم فغضبوا لاستقلالهم القديم ولما هيأ الأفكار انتقل إلى جهة أخرى للغرض ذاته ولكن هاله توطيد مركز حكومة محمدعلى فى سوريا فكتب إلى حكومته يقول: « ان كل يوم ينقضى يزيد فى قوة محمد على فلا مندوحة عن الاسراع فى العمل لاضعافه وهدم سلطته » ولكن محمد على كان بعد إخماد فتن سوريا مصمما على اعلان استقلاله لانه « لايفهم كيف يكون التابع أقوى من متبوعه ويظل خاضعاً لارادته أو كيف يقبل أن يؤلف ملكا عامراً ثم يتركه لأحد الولاة يأتى من استامبول بعد مدة فيهدمه » وكان محمد على قد تعهد بأن يدفع للباب العالى عن الاملاك التى يملكها ٣٢ الف كيس ولكنه لم يدفع شيئاً من هذه الجزية فسافر إلى السودان فقالوا إنه فعل ذلك ليتهرب من دفع الجزية وليبحث عن معادن الذهب فلما عاد من السودان قالوا إنه وعد الباب العالى بدفع ثلاثة ملايين جنيه إذا هو اعترف باستقلاله وكانت فرنسا تقول معه بهذا الاستقلال وان يكون الحكم وراثياً فى بيت محمد على

ولكن انكلترا اقترحت على الدول ـ فرنسا وروسيا والنمسا و بروسيا ـ أن تتفق كلمتها جميعاً على أن تمنع محمد على عن أى عمل يقدم عليه ضد سلطة السلطان محمود ولما أنذرته الدول قال انه يقصر طلبه على أن يكون الحكم وراثياً فى أسرته ولكن الباب العالى الذى كان يستند إلى ذراع انكلترا اقترح على

الدول أن يعين لمحمد على معاشاً كبيراً مدى الحياة وأن يعطيه قصراً للسكنى على ضفاف البوسفور

ولكى تتم انكلترا تطويق قوات محمد على بعد انذاره بألا يمس بلاد الحبش ، و بألا يتفق مع والى طرابلس الذى عصا الباب العالى احتلت فى ١٩ يناير سنة ١٨٣٩ فرضة عدن لتكون هى فى الشمال وتركيا فى الجنوب وتبعده عن بلاد وسواحل البحر الأحمر ، وعد الفرنساويون هذا الاحتلال بمثابة المقدمة لاحتلال مصر عند ما يحين الوقت ، وفى ذلك الحين عرضت انكلترا على الباب العالى إبرام معاهدة ينص فيها على أن انكلترا تنضم إلى الباب العالى إذا كان محمد على أو أحد خلفائه يقدم على إعلان استقلاله أو يقوم بعمل عدائى ضد الباب العالى .

و بينما كانت السياسة الأوربية فى شغل شاغل لمنع الحرب والقتال كان الباب العالى يحشد قوته منذ سنة ١٨٣٤ فى جهة سيواس .

وكان يتولى تدريب هذا الجيش الجديد الضباط البروسيون ملباخ وفيشر وفون ونك والبارون فون مولتك وآخرون و يتولى القيادة العليا محمد رشيد باشا الذى قهره ابراهيم فى قونيه وأخذه أسيراً . أما ابراهيم فانه — كما قلنا — جعل أكثر قواته على الحدود ليرقب القوات التركية ، وحدث أن الكرد ثاروا على الترك فنهض رشيد باشا بقسم من جيشه لاخضاعهم فتوفى بحمى التهاب النخاع الشوكى فخلفه فى قيادة الجيش التركى حافظ باشا الذى أخضع الثوار ولكن الباب العالى ظل يرسل الامداد تباعاً ، فأدرك ابراهيم ومحمد على موطن الخطر فأخذ محمد على يرسل الامداد لولده و يعد الأموال اللازمة للانفاق حتى أنه حول إلى نفقات الجيش المال الذى أعده لانشاء مصرف زراعى .

و بدأ حافظ باشا يتحكك بابراهيم بمنعه القوافل من اجتياز خط الامتياز

ـ أى الحدود ـ وتحريم المعاملات التجارية مع سوريا وفى ٢٣ ابريل اجتازت ثلاثة الآيات تركية نهر الفرات إلى بيره ، وأخذت تحفر الخنادق فى بيره وهى على مسيرة بضع ساعات من خط الامتياز ، فأرسل ابراهيم الخبر إلى والده وأرسل إلى الأمير بشير بأن يتولى حفظ الأمن وخطوط المواصلات فى جهة حمص وأرسل قوة إلى عينتاب لرقابة الترك . وأرسل محمد على وزير جهاديته أحمد المنيكلى باشا مع الامداد اللازمة لابراهيم ولما ألح القناصل على محمد على بأن يحافظ على السلم و يدفع الجزية المتأخرة للسلطان و يظل فى طاعته ، رد عليهم بانه يجيب الطلب و يعيد ابنه ابراهيم إلى دمشق إذا انسحبت عساكر حافظ باشا من بيره وتقهقر جيش هذا القائد إلى ما وراء ماطية وضمنت له الدول السلم وساعدته على أن يكون الحكم وراثياً فى سلالته بعد أن تجيب الدول هذه المطالب يسحب ٨٠ ألفاً من جيشه المعسكر فى سوريا ، ولكن المسعى لم يجد نفعاً فان حافظ باشا زحف بجيشه على الأراضى السورية وعبر الفرات فى ١٧ مايو سنة ١٨٣٩ وعسكر فى ضواحى نصيبين ثم ارسل قوة من الفرسان احتلت بعض القرى السورية ، وتقدم القائد العثمانى الثانى سليمان باشا ، واحتل قرى عينتاب حول القلعة المعسكرة فيها الحامية المصرية ، ثم أخذ القواد العثمانيون يحرضون السوريين على الثورة ضد ابراهيم و يوزعون عليهم السلاح والذخائر والمال .

واجتاز الترك نهر الساجور وهاجموا ٥٠٠ فارس من عرب الهنادى المصريين بقيادة معجون محمد ، فانهزم فرسان الهنادى تاركين بيد الترك ٧٠ أسيراً ما عدا القتلى فنهض ابراهيم من جانب ومعه سبع فرق من الخيالة و١٢ بطارية سيارة وأرسل إلى سليمان باشا الفرنساوى بأن يلحق به مع جيشه وهو ١٣ فرقة من المشاة و ١٥ بطارية .

وفى ٣ يونيو وصل ابراهيم إلى قبالة القرى التى احتلها الترك من الأراضى

السورية فأخلوها بلا قتال فكتب ابراهيم باشا فى ٨ يونيو سنة ١٨٣٩ إلى حافظ باشا قائد الجيوش التركية كتاباً قال فيه :

إذا كنتم يا صاحب السعادة تلقيتم الأمر باعلان الحرب فما فائدة الاسترسال فى بث الدسائس وتحريك الفتن . و إذا كنتم تودون القتال فهلموا إلى ميدانه بصراحة و إقدام وأملى أن لا يفوتكم فى هذه الحالة أن تعرفوا أنكم تقاتلون أبطالا لا يعرف الخوف سبيلا إلى قلوبهم . أما الدسائس التى تمضون فى تدبيرها فانها ليست مما يطاق احتماله طويلا »

فرد حافظ باشا على هذا الكتاب بعبارات منمقة ولكنه حاذر أن يبدى رأياً صريحاً .

أما محمد على فانه كتب الى ولده ابراهيم فى ٩ يونيو يأمره بأن يسارع الى طرد الجنود التركية من الأراضى السورية وألا يتردد فى منازلة جيشهم الكبير حتى اذا ما انتصر عليه يواصل الزحف الى ملطية وخربوط واورفا وديار بكر و بعد وصول هذا الكتاب الى ابراهيم أصدر أمره الى سليمان باشا بأن يسرع للحاق به وكان سليمان باشا على ٢٤ ميلا من حلب فجدت قوته بالسير حتى لحقت بابراهيم باشا على مجرى نهر الساجور

أما قوتا الجيشين فكانتا متقاربتين لأن جيش حافظ باشا كان مؤلفا من ١٧ فرقة من المشاة وجيش ابراهيم باشا من ١٤ فرقة وفى جيش حافظ باشا ٩ فرق من الفرسان وفى جيش ابراهيم ٨ فرق وفى مدفعية حافظ باشا ٣٠٠ رجل وفى مدفعية ابراهيم باشا أربع فرق ومدافع حافظ باشا ١٤٠ ومدافع ابراهيم ١٦٠ وفى جيش حافظ باشا ٦٠٠٠ من المتطوعة وفى جيش ابراهيم باشا ٢٠٠٠ على ان حافظ باشا صرف شهراً كاملا في حفر الخنادق و إقامة المعاقل والحصون ومرن جيشه على الدفاع والهجوم فى تلك المنطقة وشتان بين من

يقف للدفاع ومن يكلف الهجوم . ولـكن جيش ابراهيم باشا كان أتم نظاما وأكثر ممارسة للقتال وكان ابراهيم باشا ورئيس أركان حربه سليمان باشا على رأى واحد . أما حافظ باشا ورئيس أركان حربه مولتك فقد كانا على رأيين متباينين وكان ضباط ابراهيم باشا يحترمونه ويهابونه وجميعهم قد نالوا رتبهم عن جدارة واستحقاق أما ضباط جيش الترك فان أكثرهم كان من صنائع الحكام والوزراء فى استامبول

واذا كانوا قد قدروا عدد جيش حافظ باشا بضعفى عدد جيش ابراهيم باشا فلأن الترك كانوا ينشرون جيشهم على خط طويل ليهاجم سوريا من كل جهة . أما القوتان اللتان تنازلتا فى ميدان نصيبين وحده فهما ما ذكرنا . ومن الحكايات التى تعطى صورة صحيحة عن هذين الجيشين ان حافظ باشا سأل أسيراً من جيش ابراهيم رأيه فى المعسكرين فقال له الأسير المصرى بعد أن أعطاه حافظ باشا الأمان « ان معسكر ابراهيم باشا معسكر جنود أما معسكركم فهو كمضارب الحجاج . ففى معسكر ابراهيم لا ترى سوى الجنود بسلاحها والى جانب خيولها ومدافعها أما فى معسكركم فقد رأيت اليهود والتجار والعلماء والفقهاء فرأيت البعض منهمكا بالبيع والشراء والآخر مشتغلا بالتسبيح والدعاء وهذا الذى يجعل معسكركم أشبه بمضارب الحج »

وصل خبر احتكاك الترك والمصريين إلى أوربا بعد اجتياز الترك نهر الفرات إلى الأراضى السورية وبعد احتلالهم عينتاب وتأهب ابراهيم باشا لصد غارتهم فأوفدت فرنسا رسولا إلى الباب العالى وآخر إلى محمد على للوقوف عن القتال فوصل كايه إلى مصر وقابل محمد على وأخذ منه كتابا إلى ابراهيم ليقف موقف الدفاع ووصل فولتز إلى استامبول فلم يعط جواز السفر إلى الأناضول ولم يشأ سفير انكلترا أن يؤيد زميله سفير فرنسا فى مسعاه لايقاف

القتال بل أظهر له أنه إذا هو تلقى أمراً من حكومته فى ذلك فانه يخالف ذلك الأمر ويعمل على الضد ولم يصل كتابه بكتاب محمد على إلى ابراهيم إلا بعد المعركة وانتصار ابراهيم على جيش الترك . وإليك البلاغات الرسمية عن تلك المعركة الأخيرة التى استند فيها الترك على ذراع الانكليز والنمساويين الذين حرضوهم ووعدوهم بأنهم لا يخسرون شيئاً فى حالة الانكسار ويربحون كل شىء فى حالة الانتصار

خلاصة تقارير ابراهيم باشا إلى والده عن تلك المعركة

التقرير الأول — ٢٠ مايو سنة ١٨٣٩ — كان الجيشان فى هذا اليوم فى عينتاب على مقربة من بعضهما وكانت الجنود المخالفة تحتل المدينة بقيادة سليمان باشا والى مرعش وكانت جواسيس حافظ باشا وأعوانه يحرضون الأهالى على الثورة والعصيان وجنوده لاتكف عن العدوان ، فكان الجيشان فى حالة حرب ولكننا اتبعنا أوامركم وآراء قناصل الدول فلم نقابل القوة بالقوة ضابطين نفوسنا مخالفين ميولنا بالوقوف بلا عمل تلقاء ما يبديه المخالف (العدو) من الاعتداء والغطرسة

وفى ٢٢ مايو غادرت توزل مع فصيلة من الفرسان وبعض بطاريات خفيفة وأربع أورط مشاة لمداهمة قوة العدو بالقرب من مزار على نهر الفرات وعند وصولنا حمل الفرسان على العدو وألزموه الفرار فغنمنا أربعة عشر مدفعاً وخزانة المال وفيها خمسون الف قرش وأسرنا ٧٥٠ ثم التقينا فيما بين مزار ونسبى بفرقة من المخالفين فأكرهناها على التراجع إلى مقر جيش حافظ باشا

وفى ٢٤ رتبنا جيشنا فى صفوف القتال تجاه الجيش العثمانى فى ضواحى قرية نصيبين بالأراضى التابعة لبلاد الشام وعلى مسافة بضعة فراسخ من

الفرات وكان جيشنا مؤلفاً من ثلاثين الف جندى نظامى وكان جيش العدو مؤلفاً من تسعين الف نظامى وغير نظامى

وارتكب المخالفون خطأ كبيراً جدا لأنهم لم يوجهوا الينا فى الصدمة الأولى سوى الفرسان فقصروا مهمتهم على مهاجمة المصريين فى كل مكان وعلى طول الخطوط فلم تلبث طلقات البنادق أن فرقتهم وأكرهتهم على التقهقر نحو صفوف المشاة فأوقعوا الخلل فى تلك الصفوف وأدرك الفرسان المصريون ذلك فقاموا بمناورة موفقة وتحرك فى الوقت ذاته الجناح الأيمن من المشاة فلم يسع الصف الأول من مشاتهم إلا أن يلقوا السلاح و يتفرقوا فى كل ناحية وصوب وحينئذ وقع الهلع فى العسكر كله فلم يسمع إلا صوت المناداة بطلب النجاة وترك المخالفون جميع مهماتهم . ولم تحن الساعة التاسعة حتى كنا متحكمين فى معسكر العدو وقد عثرنا فى خيمة حافظ باشا على الفرمان السلطانى الذى يقلد فيه ولاية مصر

واقتفى فرساننا أثر الهاربين فأسروا أورطا بأكملها وسلم كثير من الضباط وسبعة باشاوات والمقدر ان حافظ باشا ذاته لا ينجو من أيدى الفرسان

والذين أخذناهم أسرى فى ساحة القتال خمسة آلاف ومنهم سليمان باشا والى مرعش وجيشه بأكمله فخيرناهم بين الرجوع الى وطنهم و بين الانخراط فى سلك جيشنا فقبل خمسة آلاف دخول جيشنا فسيرناهم فى الحال الى الاسكندرية واتجه شطر من الجيش المخالف الفار الى نهر الفرات وقد فات حافظ باشا ان يمد القناطر على مجرى ذلك النهر فمات ١٢ الفا غرقا وهم يعبرونه سباحة واعتصم قسم كبير من هـذا الجيش فى جبال عينتاب فقتلهم البدو والكرد والتركمان . أما جيشنا فانه سار متجها نحو مرعش وملطية وديار بكر »

من خيمة حافظ باشا — أكتب هذه الأسطر وأنا في خيمة حافظ باشا

التى لم ينقل العدو منها شيئا وقد استولينا على الأمتعة والمدافع والخزانة وأسرنا عدداً عظيما من العساكر وإنى أود أن أقتفى أثر الاعداء ولكنى لا أجد أمامى أحداً منهم لأن تفرق هذا الجيش كان تاما وسريعا بعد معركة دامت ساعتين وكان هجومنا عليه من كل ناحية فى وقت واحد وكان على قيادة الميمنة احمد باشا وعلى الميسرة سليمان باشا أما أنا وانى كنت أتولى قيادة القلب وقد أعاد إلي هذا النصر السريع الكامل ما كنت عليه — وأنا فى العشرين من عمرى — من الانشراح والقوة وساوافيكم بالتفصيل »

تقرير سليمان باشا — يعد العسكريون معركة نصيبين من أكبر المعارك الفنية يدل عليها التقرير الذى أرسله ابراهيم باشا إلى محمد على بقلم الكولونل سيف (سليمان باشا الفرنساوى) هذا ملخصه

« فى ١٨ يونيو خرجنا من معسكر دوبيك فوصلنا بعد يومين إلى مرار الواقعة على مسيرة ساعتين من معسكر الجيش العثمانى وكان زحفنا مواجهة على خمسة صفوف متطاولة من المشاة وصفين من الفرسان . وفى ٢١ قمنا باستكشاف موقعة فى ١٥٠٠ فارس من البدو وأربعة آلاف من الفرسان وبطاريتين من المدافع السريعة فثبت لنا أن موقعه فى منتهى المناعة فلا يمكن الهجوم عليه لا مواجهة ولا مجابهة وكانت تحمى واجهته من الخلف أكام محصنة وعلى قممها المدافع وأمامها ثلاثة معاقل كبيرة وميمنته تستند إلى ربوة عالية وضعت فيها أورطة من المشاة وفيها معقل وفى أسفل هذا المعقل بطارية مدافع وميسرته تستند إلى ربوة باستدارة الثدى وعرة المنحدرات فكان الهجوم فى هذه الحالة من الواجهة وعلى الجناحين عملا محفوفا بالمصاعب ولا مندوحة معه من خسارة كبيرة بدون نتيجة مرضية فرأينا فى الحال القيام بحركة التفاف بالعدو من ميسرته وبالزحف عليه زحفاً جانبياً .

وفى صباح ٢٢ زحف الجيش زحفاً جانبياً بصفوف متطاولة . فبعد مسيرة عشر ساعات وصلنا إلى قنطرة هركون وكان الترك قد أرسلوا بعض الأورط والمدفعية نحو ميسرتنا واحتلت ربوة مستديرة على ميمنة جنودنا وأرسلت الايا من المشاة وآخر من الفرسان إلى ميسرة الزحف الجانبى فاتخذوا موقفهما فى اتجاه جانبى الفيلق التركى فلم يسع هذا الفيلق إلا الانسحاب فاستأنف الجيش المصرى الزحف بسكون واطمئنان إلى أن اتخذ موقفه فى قنطرة هركون .

وانقضى يوم ٢٣ يونيو فى اعداد معدات القتال. وقبيل منتصف ليلة ٢٤ جاء العدو ببطاريتين من مدافع القنابل المستطيلة فألقى على معسكرنا من ٢٥٠ إلى ٣٠٠ قنبلة فأوقعت بعض الخلل وقتل جواد الميرالاى محمد بك (أحد ياوران سليمان باشا) . والظاهر أن العدو تمكن من معرفة خيمة سليمان باشا فصب فى اتجاهها ناراً حامية فذهب سليمان باشا إلى النقط الأمامية وأمرها باطلاق نارها فانسحب الترك بعد ما منيوا بخسارة فادحة .

وعند الصباح استأنف الجيش سيره الجانبى منفصلة أورطه وفرقه بعضها عن بعض . فارتد الترك إلى الوراء وانتشروا على الأكام والروابى خلف معسكرهم القديم ثم اتجه المصريون إلى ربوة على ميمنتهم وغيروا اتجاه الصفوف ولكنهم فوجئوا بنصب بطارية كبيرة على الأكمة التى كانت عندنا مفتاح القتال وحينئذ بدأ المصريون بالهجوم على جميع الخطوط بكل قواهم وأخذت مدافعهم تطلق النار الدائمة مع الزحف المتواصل إلى الامام فانسحب الترك إلى معسكرهم القديم فلحق بهم المصريون واحتلت مدفعياتهم الروابى فكانت هزيمة العثمانيين تامة وغنمنا ١٤٤ مدفعا وصناديق ذخائرها و ٣٥ مدفعا فى حصون بيره جيك وجميع الخيام من خيمة حافظ باشا إلى خيمة أصغر جندى ومن ١٨ الفا الى ٢٠ الف بندقية وأخذنا من ١٢ الفا الى ١٥ الف اسير » اهـ

وابدى الحرس السلطانى مقاومة عجيبة . ولما دعى لالقاء سلاحه والتسليم اجاب قائده « ان الحرس السلطانى لا يلقى سلاحه امام الموت »

وقد كان سرور ابراهيم باشا بهذا الفوز عظيما حتى ضم سليمان باشا الى صدره وقبله وكان سليمان باشا ليلة المعركة يحض الضباط و يقول لهم : ايها الاخوان الضباط انى منذ الآن اعين لكم موعد الملتقى غدا. فعند ساعة الزوال يكون ملتقانا تحت خيمة حافظ باشا لتناول القهوة معا ولم يخطىء سليمان باشا فى ضرب هذا الموعد لضباط الجيش المصرى

وارسل ابراهيم باشا الى كل وال من الولاة بشرى انتصاره وأمرهم باقامة الافراح مدة اسبوع واخبرهم انه زاحف على قونيه وقال سليمان باشا للضباط «أما فى المرة الآتية فاما ان نذهب نحن الى استامبول اوياتى الترك الى القاهرة »

و بعد يومين من المعركة وجيش ابراهيم باشا زاحف الى ماوراء جبال طوروس ، وصل الى معسكره المسيو كايه مندوب وزير خارجية فرنسا وهو يحمل اليه كتاب والده الذى يامره بالوقوف فاطاع الأمر ولم يزد على احتلال مرعش وأورفا

وفى ٣٠ يونيو أى بعد ستة ايام من معركة نصيبين توفى السلطان محمود وكان ضعيف البنية مصابا بالعلة الصدرية ونودى بابنه عبد المجيد سلطانا فابقى عبد المجيد خسرو باشا فى منصب الصدارة وكان السلطان محمود قد أمر فوزى باشا بالخروج بالاسطول لمعاونة جيش حافظ باشا على القتال فلما بلغه خبر وفاة السلطان وابقاء خسرو باشا فى منصب الصدارة وايقن بان خسرو باشا هو الذى يحكم لا السلطان الشاب ـ وخسرو باشا هو عدوه اللدود فلا يعدم وسيلة للانتقام منه ـ فر باسطوله الى الاسكندرية وانضم الى محمد على باشا

وهكذا اضاع السلطان محمود حياته وجيوشه واسطوله في محاربة مصر

ولما رجع حافظ باشا إلى استامبول عقدوا مجلسا لمحاكمته لانه شرع بالهجوم

قبل ان يصل اليه الأمر بذلك فابرز حافظ باشا كتابا من السلطان بخط يده يامره فيه بالهجوم وهكذا كان السلطان محمود يخدع السفراء بالتظاهر بالسلم فى حين كان يصدر اوامره السريه بالحرب

تقدم ابراهيم باشا بعد معركة نصيبين فى ٢٤ يونيو ١٨٣٩ فاحتل اورفا ومرعش وعينتاب وأرسل اعيان الاناضول يهنئونه و يعربون له عن ولائهم ولكنه وقف هناك بامر والده الذى حمله اليه كايه مندوب فرنسا كما كان قد حمل اليه مندوب فرنسا الأمر للوقوف فى سنة ١٨٣٣ فى قونيه وكوتاهيه

وفى ٥ يوليو أرسل السلطان عبد المجيد إلى محمد على يعرض عليه ولاية مصر بالورانة فطلب محمد على هذا الحكم بالتوراث فى بيته على جميع البلاد التى كان يتولاها يومئذ ولكن الدول تفرقت فى ذلك اراؤها فروسيا ارتاحت الى ان يتفق محمد على والباب العالى وانكلترا رأت ان تتفق الدول على نزع سوريا من ولاية محمد على وهى التى منعته حتى لا يمد يده الى بلاد الحبشة وطرابلس الغرب ووضعت يدها على عدن لتقف بوجهه فى اليمن وابرمت اتفاقا مع امام اليمن لهذا الغرض وآخر مع امراء الخليج الفارسى لتحول دون امتداد سلطانه على بلاد العربية بعد ما وصل عماله الى البحرين وهى التى حالت دون اتفاقه مع شاه ايران الذى كان يريد محالفته وهى التى اعلنت بعد ذلك ان تحصر نفوذه فى الارض الافريقية وهى التى اقترحت على فرنسا اخذ الاسطول التركى من محمد على بالاكراه والقوة بعد ما سلم هذا الاسطول نفسه فى ١٤ يوليو . ورأت فرنسا ان تضمن الدول الاتفاق بين محمد على والباب العالى ليكون اتفاقا مضمونا

وانذرت النمسا الباب العالى بالا يبرم اتفاقا مع محمد على دون مشاورة الدول الخمس وكان الباب العالى قد قرر ارسال وفد إلى محمد على يحمل اليه جوابه على مطالبه وهذا كتاب الصدر الاعظم الذى كان قد ارسله الى محمد على

« ان عظمة مولانا السلطان الممتلىء حكمة وعدلا من فضل الله عليه قال عند مارقى عرش آبائه العظام « ان باشا مصر محمد على كان قد ارتكب أعمالا مكدرة نحو ساكن الجنان والدى المعظم فوقعت بعد ذلك وقائع عديدة حتى انهم من عهد قريب اخذوا باعداد معدات العداء ولكنى لا أود تكدير صفو رعيتى و إراقة دماء المسلمين فأنا إذن أنسى الماضى وأغض عنه على شرط أن يقوم محمد على بواجبات العبودية والتابعية نحوى لينال عفوى السامى و إنى أخوله النشان العالى الشان الذى يحمله وزرائى الكرام وأخوله أن تكون ولاية مصر فى سلالته »

وكان الباب العالى يميل الى اعطاء محمد على (١) ولاية مصر بالتوارث (٢) ولاية سوريا لابراهيم باشا (٣) ولاية مصر لابراهيم بعد وفاة محمد على وحينئذ تعود ولاية سوريا للباب العالى »

وقد كان بالامكان الوصول الى الاتفاق لولا اغلاط السياسة الفرنساوية التى أرادت اخراج الباب العالى من كنف روسيا فاضطرت هذه الدولة الى الانضمام لانكلترا والنمسا عدوتى محمد على حتى انتهى الأمر بأن وضعت الدول الخمس مذكرة قدمها السفراء الى الباب العالى فى ٢٧ يوليو باسم انكلترا وفرنسا وروسيا والنمسا و بروسيا هذا نصها :

« ان سفراء الدول موقعى هذا يتشرفون بأن يبلغوا الباب العالى انهم تلقوا صباح اليوم من حكوماتهم بأن الاتفاق على المسأله الشرقية تام بينها فهم يطلبون منه أن يوقف كل قرار قاطع دون مساعدتها نظراً لما يكون له من المنافع التى يرونها »

فهذه المذكرة – يقول سفير انكلترا — شجعت الباب العالى وأمدته بالقوة لمقاومة محمد على والدفاع عن مصلحة السلطان وفتح الباب للحكومة

الانكليزية لتعمل ما تراه مفيدا وصالحا »

وانقضى شهر أغسطس بالمناقشة والجدل بين الدول وكانت فرنسا تطالب لمحمد على ولاية سوريا فرد اللورد بالمرستون « إنا لا نتوصل إلى تأمين السلطنة العثمانية إلا بفصل مصر عن تركيا بالصحراء فليظل محمد على واليا على مصر بالتوارث » .

« وهذا كل ما كان يطلبه ولكن فلنباعد بينه وبين أملاك السلطنة حتى لا يكون احتكاك بين هاتين القوتين وأما إذا ظلت ولاية سوريا فى بيت محمد على فكيف تستطيع أوربا أن تقول انه لا يقع بعد ذلك حادث يقطع هذا الخيط الضعيف الذى ربط تلك الولايات بتركيا »

وأرسل بعد ذلك سفير فرنسا فى لندن إلى وزير خارجيته عن سياسة انكلترا مع محمد على يقول : «انها تريد اتباع سياسة الاكراه نحو محمد على إما ليرجع الاسطول التركى الذى انضم الى اسطوله وأما لحمله على قبول ولاية مصر وحدها بالتوارث . وان قاعدة سياسة بالمرستون التى يكررها بلا انقطاع انه يجب اتخاذ الوسائل التى تجعل محمد على عاجزا عن الاضرار وعن أن يجعل ضرباته قاضية على تركيا »

وظلت المفاوضات دائرة بين الدول بهذا الصدد حتى شهر اكتوبر ولكنهم لم يصلوا الى نتيجة وحينئذ رأى بالمرستون أن يقرب بين نظريته ونظرية فرنسا فاقترح على فرنسا فى ٣ اكتوبر « ان تضاف الى ولاية مصر بالتوارث باشاوية عكا ما عدا قلعة عكا التى تظل تحت حكم الباب العالى لأنها مفتاح سوريا وان تبتدىء الحدود من جبل الكرمل المشرف على خليج عكا الى طبريا ومن هناك تنحنى الى خليج العقبة الخ حتى تظل طريق الحج فى يد السلطان أو بالأحرى فى يد الخليفة . ولكن الحكومة الفرنساوية التى كان عليها أن تقبل

هذا التساهل لم تستطع قبوله فى نظر الوزير فرسينه متابعة للرأى العام الفرنساوى الذى بات وهو لا يقبل قولا فى مؤازرته لمحمد على لأن انتصارات ابراهيم السريعة ملكت عليه مشاعره وأصبح اسم سوريا لا يقبل فى نظر الرأى العام الفرنساوى انفصالا عن اسم ابراهيم . فكان يرى أن من الظلم الفاحش حرمانه من فتوحاته وكانوا فوق هذا كله يقدرون قوته الحربية فوق ما هى فى الحقيقة فلم يحسبوا لضعف خصمه حسابا فى القتال لذلك كان الفرنساويون يعتقدون بأنه مع القليل من المساعدة يلقاها من فرنسا يستطيع الوقوف فى وجه أوربا

ويقول لنا سفير فرنسا فى لندن الجنرال سبستيانى انه عند ما أعرب للورد بالمرستون عن هذه الآراء أجابه هذا الوزير بقوله :

« وأنا أستطيع أن أصرح لك باسم مجلس الوزراء أن التساهل الذى أبديناه باعطاء محمد على قطعة من باشاوية عكا قد قررنا سحبه » ولما أراد السفير مواصلة البحث والمناقشة قابله الوزير الانكليزى بالصمت والاعراض وظنت حكومة فرنسا أن تغيير سفيرها فى لندره بآخر أكثر ميلا الى محمد على قد يستطيع التأثير على اللورد بالمرستون ويجد الحجة المقنعة فأوفدت فى هذه المهمة الموسيو غيزو الذى دافع عن محمد على من على منبر مجلس النواب فيكون الرأى العام راضيا عن تعيينه واثقا به . فلما قابل الوزير الانكليزى المقابلة الاولى قال له بالمرستون « انه سيجعل فى دائرة تفكيره جهد ما تصل اليه طاقته من التساهل مع محمد على ارضاء لفرنسا وليحملها على قبول مبادىء الاتفاق الذى يوضع بهذا الصدد وانه لا يقرر شيئا تقريرا نهائيا قبل اطلاعه عليه »

وفى أول مارس سقطت وزارة المارشال سولت وقامت وزارة تيرس ولم يكن أقل ميلا الى محمد على من خلفه فحاول السفير أن يحمل اللورد بالمرستون على التساهل واستعان بزميله سفير روسيا وسفير النمسا لأنهما كانا أقل صلابة

من اللورد بلمرستون الى ان كان ٥ مايو فاقترح برأى حكومته أن تقسم سوريا بين محمد على والسلطان وأن يعطى محمد على باشاوية عكا حتى حدود باشاوية دمشق وطرابلس ، ولما قابل سفير النمسا اللورد بلمرستون قال له اللورد انه يسلم باقتراح النمسا لتنضم فرنسا الى الدول فاذا أبى محمد على قبول ذلك فان النمسا تنضم الى انكلترا وروسيا لاستخدام وسائل الاكراه ولكن المسيو تيرس أجاب فى ١١ مايو أن محمد على — على ما نعرف من ميوله — لا يسلم بذلك

وفى الحقيقة أن محمد على كان يقول لقناصل الدول انه لايقبل الشروط التى يقترحونها وانه لايتردد فى مجابهة الدول فيسلم بلاد العرب لشريف مكة ويزيد جيشه مئة ألف ويصدر الأمر إلى ابراهيم بالزحف على قونيه. ولما أصدر الأمر إلى ابراهيم فى ذلك رد ابراهيم باشا على والده فى ٤ سبتمبر أنه لايوجد وجه لمعاندة الدول الآن وأنه لايستطيع الاعتماد على جيش الحجاز لما تولاه من التعب وكيف يكون بالامكان نقله إذا حصرت انكلترا السواحل فضلا عن وجود عناصر الفوضى والفتن فى سوريا فاذا ظهرت مراكب الدول ضد المصريين فى سواحل سوريا قطعت المواصلات عن جيشه فى الأناضول

وتلا ذلك تقارير الولاة عن أن الرسل الأجانب يملأون سوريا وأنهم يحرضون الأهالى و يبذرون الأموال على أصحاب النفوذ بغير حساب و يهربون لهم السلاح

وفى ابان ذلك كله كان محمد على قد طلب عزل خسرو باشا من الصدارة لأنه عدوه الذى يحول دون مصالحته مع الباب العالى وقال « إن خسرو باشا لو لم يكن موجوداً لذهب هو ذاته إلى استانبول واتفق مع رجالها على وجوه اصلاح الدولة والنهوض بها »

فلما عزل خسرو باشا ارتاحت فرنسا إلى ذلك وظنت أن مصالحة محمد على مع الباب العالى باتت سهلة لأن محمد على رضى بأن يعيد الأسطول للسلطان

فاذا تم هذا تفادت الدول عن عقد مؤتمر فى لندن ، ولكن انكلترا لم تنظر إلى ذلك بعين الرضا بحجة أن فرنسا تلعب دورها فى الخفاء وتتجاوز عن الدول الأخرى و بذلك تكون فرنسا قد قضت على مذكرة الدول بتاريخ ٢٧ يوليو سنة ١٨٣٩ وقد نالت وحدها الفوز فى الاسكندرية والاستانة دون الاتفاق مع انكلترا والدول الأخرى

وهذه الأسباب كلها دعت اللورد بالمرستون إلى أن يعجل بالعمل الحاسم . فبعد الاتفاق مع زملائه الوزراء ومع سفراء الدول الأربع استدعى اليه سفير فرنسا فى ١٧ يوليو وسلمه مذكرة مكتوبة وقال له عند تسليمها انه لم يشأ أن يقول له ماورد فى هذه المذكرة مخافة أن تبدر كلمة تخالف رأيه وفكره وهذا نص المذكرة :

« إن الحكومة الانجليزية تلقت أثناء جميع المفاوضات التى دارت فى خريف العام الماضى اصدق الأدلة وأوضحها وأقطعها ليس فقط على رغبة بلاط النمسا و بريطانيا و بروسيا وروسيا على حب الوصول إلى اتفاق مع الحكومة الفرنساوية على التسوية اللازمة لتسكين الشرق بل على رغبتها — فوق ماتقدم — فى اظهار الاهمية التى تعلقها هذه الدول على النتيجة الادبية التى تنجم عن هذا الاتحاد والتعاون بين الدول الخمس فى مسألة ذات خطر عظيم وهى متصلة كل الاتصال بالسلام الأوروبى

« ولكن الدول الأربع رأت مع الأسف الشديد أن جميع مجهوداتها للوصول إلى هذا الغرض كانت عقيمة مع أنها اقترحت مؤخراً على فرنسا أن تتحد معها لعرض مقترحات التسوية على السلطان ومحمد على وهذه التسوية مؤسسة على الآراء التى ابداها سفير فرنسا فى لندن فى آخر العام الماضى ومع ذلك لم تر الحكومة الفرنساوية الاشتراك للوصول إلى هذا الاتفاق وعاقت

معاونتها مع الدول الأخرى على الظروف التى رأت هذه الدول أنها لاتتفق مع صيانة استقلال الدولة العثمانية و بقائها ومع راحة أوربا فى المستقبل

« فلم يبق أمام هذه الدول إلا أن تدع لحكم المستقبل الشؤون الهامة التى تعهدت بتسويتها وأن تقر بعجزها وتدع سلام أوروبا عرضة للأخطار التى تتزايد أو تخطو إلى الامام دون فرنسا وأن تصل بوسائلها الخاصة إلى حل مسائل الشرق طبقاً للعهود التى قطعتها مع السلطان وهى تكفل السلام

و بين هذين الموقفين ، ولاعتقاد الدول بضرورة الحل السريع لتعلقه بالمرافق المتعلقة عليه، رأت الدول الأربع اختيار الموقف الثانى وقد أبرمت مع السلطان اتفاقا لحل المشاكل القائمة الآن فى الشرق

« وعند ما وقعت الدول الاربع الاتفاق شعرت بالاسف الشديد لانفصالها موقتاً عن فرنسا فى مسألة أوروبية بحتة والذى يخفف من الاسف ان فرنسا كررت تصريحاتها بانها لا تعترض على التسوية التى تقرها الدول الاربع وتحمل محمد على على قبولها إذا هو ارتضاها ولا تعترض على الوسائل التى تتخذها الدول بالاتفاق مع السلطان لاكراه محمد على باشا مصر على القبول وأن السبب الوحيد الذى منع فرنسا عن الاتحاد هو اعتماد الدول على الوسائل الا كراهية ضد محمد على

ثم أعربت المذكرة عن الأمل بان تستخدم فرنسا نفوذها لدى محمد على ليقبل ما سيعرضه عليه السلطان »

الفصل الثالث عشر

ثورة اللبنانيين وأسبابها ـ بين الدول وفرنسا

لما تلا اللورد بالمرستون باسم الدول الأربع المذكرة على سفير فرنسا بأنهن اتفقن مع الباب العالى على أن يقدم مقترحاتة لمحمد على وعلى أن يتخذن وسائل الاكراه ليحملنه على قبولها . لم يشأ أن يبين للسفير تلك الوسائل فردت فرنسا على مذكرة الدول الأربع بمذكرة فى ٢١ يوليو قالت فيها :

« إنها كانت ترغب دائما فى العمل مع انكلترا والنمسا وروسيا و بروسيا لخدمة السلام ولم تنظر إلى المقترحات التى عرضت عليها من وجهة مصلحتها الخاصة بل من وجهة المصلحة العامة لأنها دون سائر الدول منزهة فى الشرق عن الأغراض . لهذا اعتبرت كل المقترحات التى ترمى إلى حرمان محمد على بقوة السلاح المنطقة التى يحكمها الآن من أملاك تركيا مقترحات جائرة ولا تظن أن ذلك مفيد للسلطان لأنهم يعطونه مالايستطيع صيانته ولا إدارته ولا ترى أن ذلك مفيد لتركيا على وجه عام ولا للتوازن الاوروبى على وجه التخصيص لأنه يضعف تابعاً يستطيع أن يدافع عن وجود الدولة دون أن ينيل المتبوع أية فائدة ، على أن المسألة مسألة أسلوب وطريقة تختلف فيها الأنظار . وإذا كانت فرنسا قد عارضت فى استخدام القوة فلأنها لم تعرف الوسائل التى تتذرع بها الدول الخمس وظهر لها أن هذه الوسائل إما انها نافعة و إما انها مضرة ومع ذلك لم يقترح عليها فى العهد الأخير أى اقتراح تستطيع المناقشة فيه فلا يصح أن يعزى إليها رفض مالم يعرض عليها وعلى ذلك هى تعلن أن اتخاذ أى قرار دون التذرع بوسائل التنفيذ لهو قرار ليس ثمرة التفكير بل هو قليل التدبير

كذلك القرارات دون وسائل التنفيذ أو بوسائل مترددة بين النفع والضرر

« لاشك انهم غنموا فرصة انتقاض بعض أهالى لبنان ليجدوا فى هذا الانتقاض وسيلة التنفيذ التى لم تبد قبل اليوم . فهل هذه الوسيلة وسيلة شريفة ؟ وهل هى مفيدة لتركيا ضد والى مصر ؟ فلم يريدون تعزيز السلام وهم فى الوقت ذاته يبذرون بذور الفتن والثورات فى أراضى السلطنة فهم يزيدون الاضطراب العام الشامل اضطرابات جديدة . وهل هم يقدرون على اخضاع هذه الشعوب بعد اثارتها على الوالى ؟

« فهب أن محمد على أخمد الثورة وهب أنه أعاد حكمه على سوريا فهل تكون بعد ذلك أقل تمسكا وألين شكيمة ؟ وهل إذا رفض المقترحات التى تعرض عليه ماذا تكون وسائل الدول الأربع ؟

« إن هذه الوسائل التى صرفوا سنة فى البحث عنها لم يجدوها فجأة وفى هذه الحالة يكونون قد أوجدوا خطراً جديداً أشد من سواه وهو أن محمد على الذى أثاروا حفيظته والذى ساعدت فرنسا على ايقافه قد يتجاوز طوروس ويكرر تهديد استامبول . فماذا تفعل الدول الأربع فى هذه الحالة وما هى وسائلها لدخول الأراضى التركية لاعانة السلطان ؟ ان فرنسا ترى أنهم أعدوا لاستقلال تركيا وللسلم العام خطراً أشد من خطر مطامع والى مصر

« فاذا كانت الدول الأربع لم تنظر إلى هذه النتائج فانها تكون قد انتهجت طريقا مظلما وخطراً . وأما إذا كانت قد نظرت إلى الوسائل والنتائج فالواجب عليها أن تعلنها لاوروبا ولفرنسا على وجه التخصيص وهى لا تزال تطلب منها استخدام نفوذها الأدبى فى الاسكندرية

« وفرنسا تعتبر ان ما بذلته من النفوذ الادبى كان فرضا عليها ، وترى أن

هذا الفرض محتم ايضا عليها فى الموقف الذى وقفته الدول الاربع الخ »

ولما سلم سفير فرنسا هـذه المذكرة للورد بالمرستون وسـأله عن سبب اهمال فرنسا اجابه ان حكومتـكم لم ترض ان تـكون حدود حكم محمد على خليج عكا وأجابتنا ان محمد على لا يسلم باى تقسيم لبلاد سوريا فاعتبرنا ذلك من حـكومة فرنسا قرارا حاسما فانصرفنا لغرضنـا وزاد على ذلك قـوله : انهم لا يحصرون السواحل لأن محمد على ليس سيد البلاد وليست له صفة المحارب فحق الحصار للسلطان وحده فهو سيعمل كل ما يستطيع عمله بقوته ونحن لا نتعرض للمصالح التجارية ولا لحقوق المحايدين »

☆ ☆ ☆

ولا شك فى ان ثورة اللبنانيين — كما جاء فى مذكرة فرنسا — كانت السبب الأول الذى دفع الدول الاربع للاقدام على الاسراع بعملها بعد ان عملت لاعداد تلك الثورة منذ زمن بعيد حتى ان حزب المحافظين فى انـكلترا ـ وكان يعارض سياسة بالمرستون ـ أوفد إلى سوريا إثنين من نوابه لدرس الحالة فلما عاد اللورد اجرتون واللورد الفونبلى قدما تقريراً عن إعداد الثورة اللبنانية التى تجعل مركز ابراهيم باشا ضعيفاً جداً

بدأت هذه الثورة فى أواخر مايو سنة ١٨٤٠ وكانت لها أسباب عدة أولها تحريض قناصل الدول فى بيروت لما كان بينهم وبين ابراهيم باشا من النزاع على السلطة . والثانى انتشار رسل الانـكليز والنمساويين وتوزيعهم الاموال على الناس واغرائهم على الثورة . والثالث ادخالهم فى وهم الأهالى ازالة حكم بلادهم من يد امرائهم وشيوخهم وتجنيد شبانهم ونزع سلاحهم ثم قرار الدول على أن ترسل جيوشها إلى لبنان، حتى ان أولئك الرسل كانوا يؤولون أقل حركة تبدو تأويلا

يوغر الصدور كتأويلهم نقل مركز سليمان باشا الفرنساوى من صيدا إلى بيروت بانه لتجنيد اللبنانيين والاستشهاد على ذلك بتجنيد بعض الطلبة اللبنانيين الذين كانوا يتلقون العلم فى مصر وكتأويلهم وصول مركب من مصر إلى بيروت مشحوناً بالملابس العسكرية بان هذه الملابس للشبان اللبنانيين الذين يجندون ، وضاعف فى هذه الدعاية اضعاف سلطة الأمير بشير والأمراء وطلب الفردة (وهى الضريبة الشخصية عن سبع سنين مقدماً . والفردة أن يدفع كل شخص من سن الخامسة عشرة فصاعدا ضريبة اقلها ١٥ قرشاً واكثرها ٥٠٠ قرش) وعن الاحياء والاموات المقيدة اسماؤهم بالدفاتر وكانوا يدفعون المال لأميرهم ، أضف إلى ما تقدم سخط اصحاب الاقطاعيات الذين زال نفوذهم . ولما وصلت فى أثناء ذلك قوة من الجيش المصرى إلى بعلبك وأخرى الى طرابلس أولوا مجيئها بأنه لاكراه اللبنانيين على تسليم السلاح وعلى دفع الفردة عن سبع سنين وعلى تجنيد الشبان . فدارت المفاوضة بين النصارى والدروز على ما يجب عمله . فقرر زعماؤهم فى اجتماع عقدوه فى دير القمر مقاومة ابراهيم باشا اذا هو حاول أخذ جندى واحد منهم وأنشأوا صناديق لمشترى السلاح وكانت كل مقاطعة قد انتدبت اثنين للنيابة عنها واتفق الجميع على بث دعوة العصيان ووجهوا إلى أعيان البلاد رسالة قالوا فيها ان ابراهيم باشا أمر بجمع السلاح وانهم بسطوا له الرجاء مراراً ليبقى لهم السلاح فى أيديهم فرفض والمراد من نزع السلاح تحصيل فردات وتجنيد الشبان لذلك أعلنوا العصيان خوف الغدر بهم وهم لا يقدمون الطاعة إلا لأميرهم إلى قولهم فى تلك الرسالة :

« أمس تاريخه حضر لنا علم من صيدا بأنه تتوجه علينا عسكر وفى النهار ذاته توجه من هذا الطرف عسكر وصحبته المشايخ بيت أبو نكد وساعة

تاريخه نهار الخميس حضرت لنا بشارة سنية بأنهم ظفروا بهؤلاء الخارجين وأخذوا منهم مئة وثمانين بارودة ولا زالوا منتظرين على جسر صيدا بانتظار العساكر التي تمر لجهتنا فنرغب أن تكونوا كما نحن منتظرين سهرانين ولكم أعين بجهة نواحي بيروت وجهة الشمالية وكلما جد عندكم عرفونا حالا صحبة مخصوص وبحوله تعالى أنتم الظافرون ولا يلزم أن نحثكم على التيقظ كون هذا صالحه عائد للجميع نسأله تعالى أن نسمع عنكم كل ما يسر الخاطر حسب عوائدكم السابقة

هذا ما لزم افادتكم والله يحفظكم

اخوتكم أهالي دير القمر

٢٧ أيار ١٨٤٠ نصارى ودروز

وهكذا بدأت الثورة اللبنانية التي اعتمد عليها اللورد بالمرستون لاعلان اتفاق الدول الأربع دون فرنسا كما قلنا

ولما بلغ ابراهيم باشا خبر اتفاق ديرالقمر كتب الى الأمير بشير ليجمع السلاح الذي كان قد وزعه على النصارى ليقاتلوا به الدروز ابان ثورتهم وأرسل رسالة الى الأعيان يحذرهم من الاغترار فرفض الأهالي تسليم سلاحهم

وأرسل الأمير بشير كتابا الى أعيان البلاد يقول فيه « بلغنا ان جهال دير القمر أرسلوا اليكم مكاتيب لأجل أن يغشوكم كما غشوا ذواتهم ولكي يرموكم تحت تغيير الخاطر وانكم ما قبلتم ذلك ولا جاوبتوهم ولكن رأفة بكم وخشية لئلا يغشوكم بكثرة المراسلات اقتضى اصدار هذا الأمر اليكم نحذركم وننصحكم من الوقوع بهذا الغلط الذي يوجب خراب الديار وقلع الآثار واذا كان عندكم مراسيل من الدير حالا اطردوهم وارموا عليهم القبض وارسلوهم لطرفنا »

ولما رأى ابراهيم باشا حركة العصيان وعدم تسليم السلاح أرسل قوة لجمعه من نصارى الشحار والمناصف فاستنجد هؤلاء بأهل دير القمر فذهب منهم لنجدتهم مئة شاب فاحتمى الضابط بالشيخ محمود النكدى ووصل بعد ذلك خبر قدوم سليمان باشا من صيدا الى دير القمر فذهب مائتان الى جسر الأولى وطردوا العساكر من الخان وانضم اليهم أهل المعلقة وجدوا فى أثر الجنود حتى أبواب صيدا وأرسلت حامية صيدا فى اليوم الثانى الفى جندى جمعوا أمتعة الجنود وعادوا الى صيدا وسلب أهالى بعبدا سلاح الجنود الذين كانوا قادمين من دمشق الى بيروت فاستعاده منهم الأمير حيدر وأرسله إلى الأمير بشير

وهكذا أخذت الثورة تمتد وقادها بعض الأمراء الشهابيين واللمعيين والمشايخ آل الخازن وحبيش والدحداح . وبرز فيها أبو سمرا غانم ويوسف الشنتيرى فكانا من أبطالها حتى ان اللبنانيين كانوا يتغنون ببطولتهما ويقولون : « سبعين طلعوا فى الديرى بو سمرا والشنتيرى »

ولما اشتدت حركة الثورة فى جنوبى لبنان وضيقت الخناق على مدينة صيدا أرسل سليمان باشا آلاياً من الجند المصرى لحراسة المطاحن وأمر الجنود بألا يتعرضوا للثوار وأرسل الى هؤلاء رسولا بأن محمد على باشا لا يطلب نزع سلاحهم منهم بل استعادة السلاح الذى وزعه عليهم ليسلح الرديف به وأكد لهم انه لم يخطر بباله تجنيدهم وأرسل الأمير بشير رسالة لتسكين الأفكار فعاد الثوار الى قراهم ولكن ظهر بجوار بيروت فى أوائل يونيو زعيمان للثورة هما احمد داغر وأبو سمرا غانم فهاجموا الحامية فى مدينة بيروت وفى ٤ يونيو اجتمع أعيان اقليم المتن وكسروان وتحالفوا على العدوان ونهبوا مخازن الحكومة ومستودعاتها فأرسل اليهم الأمير بشير ولده الأمير أميناً ليخلدوا الى السكينة فأجابوه انهم يطيعون إرادته اذا أجيبت مطالبهم وهى :

١ — بقاء سلاحهم بأيديهم
٢ — اعفاؤهم من التجنيد
٣ — اعفاؤهم من الفردة إلا عن الاحياء
٤ — إبطال السخرة والشغل فى معدن الفحم الحجرى فى قرنايل

ثم طلبوا من الأمير بشير .

١ — تأليف ديوان مشورة يكون مؤلفا من اثنين من كل طائفة
٢ — أن يكون معدل الفردة ٣٠ قرشا عن كل رجل
٣ — اذا عجز مديون عن وفاء دينه لا يكاف أحد أقار به الدفع

ولما وصل خبر امتداد الثورة الى محمد على فى أنحاء لبنان كله أرسل حفيده عباس باشا الى سوريا ومعه اثنا عشر الفا من الجنود ووصل عثمان باشا من الشمال ومعه ١٢ الفا وكان سليمان باشا يقود القوات المرابطة على السواحل وعددها عشرون الفا وهذه القوات التى طوقت لبنان من كل جانب أخذت تقاتل الثوار وأخذ الأمير بشير يبذل مجهوده لاخماد الفتن ولما جمع أعيان البلاد فى بعقلين ليعينوا موقفهم قدموا له المطالب الآتية :

١ — انهم نصارى ودروز على قلب واحد
٢ — انهم لا يسلمون سلاحهم
٣ — انهم لا يقدمون الجنود
٤ — انهم لا يدفعون الفردة
٥ — انهم لا يدفعون سوى مال واحد
٦ — انهم لا يدعون العسكر النظامى يدخل البلاد
٧ — انهم لا يحاربون أحدا من أبناء البلاد إلا اذا هو أقدم على محاربة الأمير بشير ذاته .

وأرسل محمد على باشا الى عباس باشا وعثمان باشا باخماد الفتنة والقبض على زعمائها وارسالهم الى الاسكندرية فهاجم عباس باشا البلاد من الساحل وعثمان باشا من الجنوب وأخذ الأمير بشير يجمع السلاح وأرسل عباس باشا ٥٧ شخصا الى الاسكندرية بينهم أربعة من الأمراء الشهابيين وبعض المشايخ الدروز والنصارى ومن زعماء الثوار يوسف الشنتيرى فأبعدهم محمد على باشا الى سنار

وكتب محمد على باشا الى عباس باشا انه بلغه خبر قيام الأسطول الفرنساوى والأسطول الانكليزى الى ميناء بيروت وان قيامهما ليس لقصد سيء ولكنه يجب عليه أن يتخذ الاحتياطات اللازمة وقال فى كتابه وان منع الدول عن التدخل لا يكون إلا بالقضاء على الفتنة والثورة

وكتب اليه ثانية بأنه سره دخول أهالى جبل الدروز بالطاعة ولكنه يجب نزع سلاح المسيحيين وسواهم و إمداد الأمير بشير بالقوة وأرسل الى الأمير بشير نيشان الافتخار المرصع والى أولاده نياشين أخرى والى جماعة من مشايخ الدروز الهبات المالية فوهب الشيخ خطاب ٣٧ كيسا وعبد السلام بك ٣٠ كيسا ونعمان بك ٦٠ كيسا ولطيف بك ٩٠ كيسا

ولما أرسلت الدول الخمس مذكرتها فى ٢٧ يونيو — وقد نشرناها فى فصل تقدم — أرسل محمد على الى عباس باشا فى بيروت يقول له « يظهر لنا من الحالة الحاضرة ان الدول متحزبة ضدنا وقرار مجلسهم فى لندره يمس مصالحنا و يخالف مقاصدنا فيجب عليكم اتخاذ الاحتياطات اللازمة فى سائر المواقع العسكرية على سواحل مصر والشام فاذا حشدت الدول عساكرها ضدكم فقوموا بالدفاع وقد صدر أمرنا الى عمكم ابراهيم بما تقدم فالواجب السير عليه . واذا ما تظاهرت الدول بعمل ضد مصر تحضرون الينا إما براً و إما بحرا وتعيدون العساكر التى

أتت اليكم من جهة كو بلك الى مكانها والخلاصة انه يجب عليكم أخذ الأمور بالحزم »

ولما اجتمع سفراء روسيا وبروسيا والنمسا باللورد بلمرستون ليتفقوا على اكراه محمد على على ترك سوريا كتب محمد على الى عباس باشا وابراهيم يقول :

« لم يعرف قرار حكومة لندرة بالضبط حتى الآن لكننا تحصلنا من كتاب قناصل روسيا وانكلترا والنمسا انهم يرون بث الفتن فى بلاد الشام ومساعدة الاهالى بارسال ستة آلاف جندى عثمانى إلى قبرص وارسال السلاح والذخيرة لتوزيعها على أهالى سوريا وارسال فرمان سلطانى إلى الأمير بشير بالخروج عن طاعتنا والولاء لنا وارسال رسل من لدن الدول الأربع على وابور انكليزى ليوزعوا فى بلاد سوريا لحض الناس على الخروج من حكم محمد على . أما فرنسا فانها تعد مئة ألف جندى فعليكم رقابة السواحل ومنع خروج الأجانب من المراكب ومنع نشر الكتابات المهيجة واتخاذ نظام الحجر الصحي حجة لهذا المنع واستعملوا الشدة المتناهية »

وكان محمد على ابان ذلك يستعد و يتأهب للدفاع فألف فى مصر حرسا وطنيا بتجنيد العمال فى ورش الحديد وورش المهمات الحربيـة وورش بولاق وتلامذة المكاتب واستثنى عمال المصانع وتقدم من المشايخ السيد العربى لتأليف الايين من الرديف والشيخ حسن سرور والشيخ على الجزار لتأليف الايين فأنعم عليهم برتبة الميرالاى ثم استأذنه الشيخ عثمان السنارى بتأليف الايين من شبان باب الشعرية والجمالية أسوة بعلى الجزار وحسن سرور فأذن له وأنعم عليه برتبة الميرالاى ثم ألف هذا الشيخ الايين آخرين فأنعم عليه برتبة اللواء وألف الشيخ محمد الابراشى الايا من قسم السيدة زينب والخليفة وابراهيم عارف من الدرب

الأحمر وقيسون وعلى سعيد وسالم بدوى أربعــة الايات فأنعم برتبة اللواء على الشيخ محمد الأبراشى والميرالاى على الشيخ سعيد والشيخ سالم وهكذا تألف ١٢ الايا من الحرس الوطنى ووزع هذا الحرس على الاسـكندرية ورشيد ودمياط وبولاق وجهات القاهرة وكان الالاى يؤلف من ٣٥٠٠ مقاتل

ووجه محمد على رتبــة قومندان الرديف الى محمد باشا ابن الشيخ الشرقاوى ومصطفى باشا العروسى ابن الشيخ العروسى

ثم أصدر أمراً بتأليف لجنة برياســة ولده سعيد باشا لتقوية استحكامات الاسكندرية وأمر ابراهيم باشا يكن ابن أخته والى اليمن بالمجىء إلى مصر مع عساكره المرابطة هناك وأمر فى الوقت ذاته بتنظيم ابراج الارشادات التى كانت تقوم مقام التلغراف بين مصر والشام ولما وصلت آلايات اليمن وكل اليها تعليم الرديف أو الحرس الوطنى .

وكان محمد على يبذل جهده لاخمــاد الثورة اللبنانية لان تعليمات المســيو تيرس وزير خارجية فرنسا لقنصل دولته فى الاسـكندرية كانت تتضمن ذلك بقوله « يجب أن تكون خطة فرنسا ومصر واحدة لغرض واحد وهو محو النتائج التى تعلقها الدول الأربع على اتفاقها والطريقة الوحيــدة لذلك اخماد الثورة فى سوريا فان الثورة التى اتقدت فى لبنان هى السبب الاصلى لابرام ذلك الاتفاق بين الدول فما دامت هذه الثورة ناشبة فالاتفاق بين الدول الأربع يظل قائما .

فاذا أخمد محمد على ثورة لبنان وحصن الاسكـندرية وعكا وجمع قواته فى سوريا لضبطها وفى سفح جبــال طوروس ليوقف أعداءه ويهددهم بالانقضاض عليهم فانهم لايتوصلون لاخضاعه ولا يحملهم على التسليم وعلى محو اتفاق الدول الاربع لانهم لايملكون أية وسيلة من وسائل الاكراه

وكان محمد على على هذا الاعتقاد لأنه كان يقول ان كل ماتستطيعونه هو توزيع

المنشورات والنقود والسلاح فتذهب ضياعا لأن جنودى تحتل السهول والامير بشير يحتل الاكام والروابى فاذا عاد الجبليون للثورة كانوا بين نارين ولا عون لهم سوى ستة آلاف البانى ترسلهم تركيا »

و بينما كان ابراهيم باشا مجدا فى اخماد الثورة فى لبنان نزل خلسة على سواحل طرابلس ديتشروود الذى كان قد صرف فى لبنان سنتين بحجة درس اللغة العربية فأخذ بعد نزوله يدفع اللبنانيين الى ارسال العرائض للباب العالى لينقذهم من مغارم حكم محمد على وكان قنصل انكلترا فى الاسكندرية يسهل على رجال الاسطول العثمانى الفرار ولما سئل اللورد بلمرستون عن ذلك كله فى مجلس نوابهم أجاب « انه يوافق كل الموافقة على كل وسيلة من شأنها إعادة رعايا السلطان الى حظيرة السلطنة »

وكانت الحكومة الانكليزية قد أرسلت أسطولا الى بيروت بحجة المحافظة على رعاياها فأرسلت الحكومة الفرنسوية إحدى سفنها لرقابة حركة الاسطول الانكليزى ووصول هذا الاسطول كان قد أشار اليه محمد على فى كتابه الى عباس باشا فنصح القائد الفرنساوى للسفن المصرية بالعودة من بيروت الى الاسكندرية فعملت بالنصيحة وفى ٧ يوليو أى بعد يومين من قيامها وصل الاسطول الانكليزى ونزل قائده الأميرال نابيير الى البر وطاف أنحاء البلاد وفى ٣ أغسطس غادر مياه بيروت وقبل أن يبعد بعيدا تلقى الأوامر بالعودة الى بيروت وانضم بعض المراكب الى اسطوله وتلقى نص الاتفاق الذى أبرم بين الدول الأربع لاخراج محمد على من سوريا وهو اتفاق ١٥ يوليو

وفى ١٢ أغسطس وجه هذا الأميرال بلاغا الى محمود بك متسلم بيروت بأن انكلترا وروسيا والنمسا و بروسيا اتفقت على إعادة سوريا لحكم الباب العالى

وطلب منه أن يسلمه خمسة آلاف جندى تركى كانوا فى جيش محمد على وأرسلهم الى بيروت وطلب منه أن يعيد الى أهل لبنان سلاحهم و يحذره من أية حركة عدائية .

وأرسل الى قنصل انكلترا فى بيروت ليبلغ ذلك للقناصل وأرسل الى قائد الجنود التركية فى بيروت يحذره من الانتقال بجنوده فان هو فعل كان ذلك فاتحة الحرب والقتال

ونشر فى بلاد سوريا منشورا ذكر فيه اتفاق الدول الأربع على اخراج محمد على من سوريا وصدور خط شريف سلطانى لتأمين الأهالى ودعوة أهل لبنان خاصة الى خلع نير محمد على و يعدهم بوصول الجنود والسلاح والذخائر قريبا اليهم

وأرسل رسالة الى الأمير بشير يدعوه لطاعة السلطان وأخرى الى الأمير بشير عمر الحاكم ومزاحمه يحثه على الانحياز لجانب السلطان و يعده بأنه سيؤيده و بأن الباب العالى سيرسل اليه المدد

وأرسل الى سليمان باشا قائد الجيوش المصرية يخبره بأن الأوامر التى لديه تقضى بحجز السفن المصرية والسورية التى تنقل الذخائر والجنود والمؤون الحربية و يطلب منه وقف حركة هذه السفن فى دائرة اختصاصه ، فأجاب سليمان باشا بأنه لم يتلق تعليمات فى ذلك وليس لديه خبر بوقوع الحرب بين مصر وانكلترا حتى يحترم هذا الانذار الموجه اليه من قائد الاسطول الانكليزى

الفصل الرابع عشر

نص اتفاق الدول الأربع — الفصل الملحق — انذار محمد على بترك البلاد السورية — موقف محمد على وغضبه — ضرب بيروت والسواحل السورية انتهاء امارة الأمير بشير

ان الاتفاق أو العهد الذى أبرمته الدول الأربع — انكلترا وروسيا و بروسيا والنمسا — مع الباب العالى بشأن مصر ووقع فى ١٥ يوليو ١٨٤٠ وأذاعت الصحف أمره بعد توقيعه لم يبلغ رسميا لفرنسا إلا بعد مصادقة الدول عليه فى ١٦ سبتمبر وكان هذا العهد أو الملحق الذى ألحق به ، أساس الحالة النهائية فى مصر ولكنهم نصوا فى البروتوكول الخاص على ان العهد والميثاق يعد نافذا من يوم توقيعه وان الوسائل التى قرروا التذرع بها تنفذ فى الحال لذلك رأينا الأميرال الانكليزى يشرع فى تنفيذها فى ٧ أغسطس فى سواحل سوريا أى عند وصولها اليه فيرسل إنذاراته الى متسلم بيروت والى سليمان باشا قومندان السواحل السورية والى الأمير بشير حليف محمد على والى الهيئات الأخرى فى بيروت وأما نص هذا الميثاق فهو :

المادة الأولى — اتفقت عظمة السلطان مع أصحاب جلالة ملك بريطانيا العظمى و إيرلندا وامبراطور النمسا وملك هنغاريا و بوهيميا وملك بروسيا وقيصر روسيا على شروط التسوية التى تريد عظمته منحها لمحمد على وهى مذكورة فى الفصل الخاص الملحق بهذا

« و يتعهد أصحاب الجلالة بأن يعملوا متحدين و بأن يوحدوا مجهوداتهم لاكراه محمد على على أن يتبع هذه التسوية و يحتفظ كل فريق بأن يعاون على بلوغ هذا الغرض تبعاً للوسائل التى يستطيع استخدامها فى هذا السبيل

المادة الثانية — اذا أبى باشا مصر أن يسلم بهذه التسوية التى تبلغ اليه من لدن السلطان بمعاونة أصحاب الجلالة فان هؤلاء يتعهدون بأن يتخذوا ـ بناءعلى طلب السلطان ـ الوسائل المتفق عليها بينهم حتى تنفذ التسوية وقبل ذلك يدعو السلطان حلفاءه لمعاونته على قطع المواصلات البحرية بين مصر وسوريا والى منع ارسال الجنود الجديدة والسلاح والذخائر ومعدات الحرب من كل نوع

و يتعهد أصحاب الجلالة بأن يصدروا أوامرهم اللازمة الى قواتهم البحرية فى البحر المتوسط و يعدون فوق ما تقدم بأن قواد أساطيلهم يقدمون ، طبقا للوسائل المتوفرة لديهم للمحالفة ، كل تأييد وكل معاونة بامكانهم وكذلك لرعايا السلطان الذين يعربون عن اخلاصهم

المادة الثالثة — اذا رفض محمد على الخضوع لشروط التسوية المذكورة ووجه قواته البحرية والبرية الى استامبول فان المتعاقدين يلبون دعوة السلطان التى يوجهها الى سفرائهم فى الاستانة فيتذرعون بالوسائل التى يتفقون عليها للدفاع عن عرشه وجعل البوسفور والدردنيل وعاصمة السلطنة بمنجاة من كل عدوان

ومن المتفق عليه ان القوات التى تعين للقيام بمهمة فى مكان معين تظل قائمة بمهمتها الى أن يستغنى السلطان عنها وعند ما يرى السلطان ان وجودها لم يعد لازماً تنسحب تلك القوات راجعة الى البحر الأسود أو البحر الأبيض

المادة الرابعة — ومن المعلوم حتما ان التعاون المذكور فى البند السابق والذى يرمى الى وضع البوسفور والدرنيل والعاصمة التركية موقتا تحت رعاية الدول

المتعاقدة ضد كل عدوان من محمد على لا يعد إلا وسيلة استثنائية متبعة بناء على طلب السلطان والغرض منها الدفاع عنه فى الحالة المعينة والمتفق عليه ان هذه الوسيلة لا تخالف فى شىء القاعدة القديمة المتبعة فى السلطنة العثمانية وهى التى منعت فى كل وقت المراكب الحربية للدول الأجنبية من دخول البوسفور والدردنيل

ويعلن السلطان من جهته انه مصمم ، فى ماعدا الحالة المنوه عنها ، كل التصميم على أن يحتفظ كل الاحتفاظ بالقاعدة القديمة المقررة فى سلطنته وانه مادام الباب العالى فى سلام لا يسمح لأى مركب حربى بالمرور بالبوسفور والدردنيل ويتعهد أصحاب الجلالة المتعاقدون على احترام ذلك

* * *

أما الفصل الملحق الذى وقعه المتعاقدون بشأن محمد على فهو :

« ينوى عظمة السلطان أن يمنح محمد على شروط التسوية على الوجه الآتى وأن يبلغه هذه الشروط

الأول — يعد عظمة السلطان بأن يمنح محمد على وسلالته المباشرة من بعده أدارة باشاوية مصر ويعد بأن يمنح محمد على مدة حياته باشاوية عكا وقومندانية قلعة عكا مع أدارة الجزء الثانى من سوريا الذى يحدد فى مابعد على شرط أن يقبل محمد على هذه المنح بعد عشرة أيام من تبليغها إليه فى الاسكندرية على يد مندوب من لدن السلطان وفى الوقت ذاته يسلم محمد على إلى هذا المندوب التعليمات اللازمة لقواد القوات البحرية والبرية لينسحبوا فى الحال من بلاد العرب ومن المدن المقدسة ومن جزيرة كريد وأدنه ومن الأجزاء الأخرى من أملاك السلطنة الخارجة عن حدود مصر وحدود باشاوية عكا كما عيناها .

المادة الثانية — إذا لم يقبل محمد على هـذه التسوية فى مدى عشرة أيام

يسحب السلطان أدارة باشاوية عكا ولـكن السلطان يظل راضيا بمنح محمد على وسلالته المباشرة حكم مصر بالتوارث على شرط أن تقبل هـذه المنحة فى مدى عشرة أيام أخرى تالية للعشرة الأيام الأولى أى فى مدى عشرين يوماً تبتدىء من اليوم الأول الذى يتلقى فيه البلاغ وعلى شرط أن يسلم محمد على مندوب السلطان الأوامر اللازمة لقواد بحريته و بريته بأن ينسحبوا إلى حدود الولاية المصرية

المادة الثالثة — إن الاتاوة السنوية التى يدفعها محمد على للسلطان تحسب على حسب الاملاك التى يعطى ادارتها اما على حساب المنحة الاولى واما على حساب الثانية

المادة الثالثة — فليكن مفهوماً فوق ما تقدم انه سواء كان فى الحالة الاولى أو فى الحالة الثانية ، فان محمد على يسلم قبـل انقضاء العشرة الايام أو العشرين يوماً الاسطول التركى وعساكره وسلاحه للمندوب الذى يعين لاستلامه و يشهد قومندانو أساطيل الحلفاء هذا التسليم

وليكن مفهوماً أن محمد على لايستطيع بحال من الاحوال أن يدخل فى الحساب أو يخصم من الاتاوة التى يدفعها للسلطان النفقات التى أنفقها على الاسطول العثمانى مدة إقامته فى الموانىء المصرية .

المادة الرابعة — ان جميع المعاهدات والقوانين فى السلطة العثمانية تنفذ فى مصر و باشاوية عكا المشار إليها آنفاً .

ولـكن السلطان يرضى ، على شرط دفع الاتاوات ، بأن يحصل محمد على وخلفاؤه باسم السلطان وكمندوب معه فى الاملاك التى يتولى أدارتها ، الضرائب والرسوم المقررة شرعاً ومن هذه الضرائب والرسوم يدفعون النفقات الملكية والعسكرية فى تلك الأملاك

المادة الخامسة — القوات البحرية والبرية التى ينظمها باشا مصر وعكا تعد شطراً من قوات السلطنة وتعتبر دائما كأنها معدة لخدمة الدولة

المادة السادسة — إذا لم يقبل محمد على فى مدى عشرة أيام أو عشرين يوماً كما جاء فى المادة الثانية المنح المعروضة عليه فان السلطان يكون حراً بسحب هذه المنح وباتباع الخطة التى توحى بها مصالحه طبقاً للنصائح التى يسديها إليه حلفاؤه » ه

وبعد الاتفاق على ذلك كله أبرم الحلفاء بينهم اتفاقاً آخر بتنزههم جميعاً عن كل ربح أو مغنم

وفى ١٤ أغسطس وصل رفعت بك مندوب السلطان الى الاسكندرية ليبلغ محمد على قرار السلطان والدول فكانت أول كلمة نطق بهـا عند سماع البلاغ « ان ما أخذته بالسيف لا أسلمه بغـير السيف » وفى اليوم التالى قابله قناصل الدول المتحالفة وبلغوه قرار الدول رسميا واستمهلوه عشرة أيام فطاب منهم أن يبلغوه ذلك كتابة ففعلوا وأبلغوه فوق ما تقدم ان فرنسا لا تستطيع مساعدته وان الدول مصممة على تنفيذ قرارها وان أفضى ذلك الى حرب أوروبية فأجابهم ان ما بيدى هو حق ولا أتنازل عنه حتى آخر رمق من حياتى

وفى ٢٤ أغسطس ــ وهو آخر الموعد الذى أعطى له ــ عاد مندوب السلطان ومعه قناصل الدول الأربع فأبلغوه أنه لم يبق له حق فى ولاية باشاوية عكا لانه لم يقبلها فى الايام العشرة الاولى وأن الدول لانسمح له إلا بولاية مصر كما جاء فى قرارها وعهدها فاحتدم محمد على غضباً وطردهم من حضرته وقال لهم كيف أسمح لكم بأن تقيموا فى بلادى وأنتم وكلاء أعدائى فانصرفوا وقد أعطوه مهلة عشرة أيام أخرى لاعطاء جوابه فان لم يفعل تكون الدول المتحالفة غير مسؤولة عن النتائج .

وفى ٩ سبتمبر وصل الأميرال ستو يفورد القائد العام لقوات الحلفاء إلى بيروت وكانت قوات الحلفاء هناك عشرين سفينة انكليزية وثلاث سفن نمساوية وثلاث سفن عثمانية بقيادة القبطان الانكليزى ووكر المعروف فى تركيا باسم ياور باشا وكانت قواتهم البرية ٣٣٠٠ تركى و١٥٠٠ انكليزى و١٠٠ نمسوى وهى جميعاً بقيادة الجنرال سميث

وكانت القوات المصرية فى سوريا ٨٠ ألفاً منها ١٥ ألفاً فى سواحل بيروت. وثلاثة آلاف فى سواحل صيدا و٥ آلاف فى طرابلس وعشرة آلاف فى بعلبك والخمسون ألفاً فى جهات حدود الأناضول وسواها من أنحاء سوريا

قابل الرأى العام فى مصر انذار الدول لمحمد على بالسخط فازداد اقبال الشبان على التطوع بالحرس الوطنى واندفع شيوخ الدين يقبحون عمل أوروبا وطربت استامبول لهذا النبأ وغضب الرأى العام الفرنساوى والنمساوى وانشق الرأى العام الانكليزى لأن تجارهم جنوا الربح من وراء أدارة محمد على فى مصر وسوريا وبلاد العرب ورأى فريق آخر أن العمل الذى أقدم عليه بالمرستون عمل ظالم ولكن رجال الاستعمار كان يهولهم شبح الامبراطورية المصرية قائمة على أقوى القواعد وأمتن الأسس الحديثة . فادارة ثمانى سنين فى سوريا وأدنه ضاعفت حاصلاتها ومتاجرها أربعة أضعاف وادارة البلاد العربية ٢٥ عاماً وطدت الامن وبثت روح التعمير فى اليمن وسواها حتى سواحل الخليج الفارسى وادارة جزيرة كريد نظمت شؤونها ووطدت الامن وزادت حاصلاتها وكان الاقتصاديون حتى القناصل يصيحون من كل جانب بأن اعادة هذه البلاد إلى تركيا مآله اعادتها إلى الدمار واذا كان هناك اخطاء فى ادارة ابراهيم ومحمد على فهو واقع على الموظفين الذين كانت تدفعهم المطامع لارتكاب الظلم الذى جعل الثورة اللبنانية تكأة للدول الاربع المتحالفة يتكئون عليها لانجاح مقاصدهم لان اللبنانيين الذين كانوا خاضعين لامرائهم والذين أمدوا جيش ابراهيم بقوة كبيرة كانوا

يأبون الخضوع لغير أمرائهم ودفع الضرائب لسواهم .

والذى زاد فى حرج الموقف خطأ السياسية الفرنساوية قبل اتفاق كوتاهية و بعده حتى ميثاق الدول الأربع فى ١٥ يوليو دون اشتراك فرنسا فقد كانت تحض محمد على على القتال وتعده بلسان مندوبها الجديد « والوسكى » بالمساعدة ولكن هذه المساعدة ظهرت بأن يطلب محمد على حماية فرنسا و بأن يقف موقف الدفاع و بأن يوارى سفنه الحربية فلا يجعلها عرضة لنيران الأسطول الانكليزى وكان رأى ابراهيم باشا أن يحتفظ والده بصداقة فرنسا حتى يوازن القوة الأخرى التى تؤيد استامبول وكان محمد على يكرر أثناء ذلك أوامره الى ابراهيم بأن يلزم مكانه ولا يتجاوز جبال طوروس اما بلمرستون روح المحالفة الأوروبية فانه كان يهدد فرنسا اذا هى أقدمت على مساعدة محمد على بالقوة والمال ، بأن يستولى على أساطيلها ومستعمراتها و بأن يطلق يد النمسا و بروسيا فى حدودها واراد ليو بولد ملك بلجيكا التوسط بين فرنسا وانكلترا فلم يفلح وفى ١٧ سبتمبر أرسل تيرس الى غيزو سفير فرنسا فى لندن أن محمد على سمع نصح فرنسا وتنازل عن كثير من مطالبه فهو يترك للسلطان كريد والمدينتين المقدستين و يكتفى بحكم الوراثة فى مصر و بحكم سوريا مدى حياته ولكن بلمرستون أخذ يماطل و يعد القبول باقتراح تيرس مذلة للدول الأربع وكان فى الوقت ذاته يحث على القتال والضرب

* * *

و بينما الأسطول الانكليزى واقف فى بيروت وصلت إحدى السفن من مصر فأمر الأميرال نابيه بتفتيش ما فيها فوجدوا كتابا من بوغوص بك وكيل خارجية محمد على الى سليمان باشا يؤكد له فيه ان فرنسا ستساعد محمد على بالجنود وانها ستستدعى قنصلها مورا من بيروت لأنه كان يساعد الثوار اللبنانيين

وان قناصل الدول المتحالفة تنوى أن تذيع فى سوريا ترجمة العهد المبرم بين الدول الأربع تشديدا لعزم الثوار مع ارسال الجنود والذخائر وابلاغ الأمير بشير إزالة حكم محمد على وان محمد على أبى الرضوخ لانذار الدول الخ

كل هذا وأمثاله دعا الانكليز إلى التعجيل بما كانوا يضمرونه فقرر الأميرال روبرت ستوفورد القائد العام لقوات الحلفاء فى سوريا بأن يبدأ بالأعمال الحربية بالنزول فى جونيه ليتصل باللبنانيين ويوزع عليهم الأسلحة ويقطع الاتصال بين الحاميتين المصريتين فى بيروت وطرابلس وفى ١٠ سبتمبر قام الاسطول الانكليزى بمظاهرة أمام بيروت ثم لم تلبث السفن ان اتجهت الى جونيه وأنزلت الجنود هناك وكان الأمير بشير قد أرسل حفيديه الى هناك وحرم على الأهالى الاتصال بالافرنج وهدد من فعل منهم بالقتل فوقع أمر الأمير بشير فى يد أحد الدعاة الانكليز فأرسله الى الأمير وأخذ الأهالى يفدون على جونيه لاستلام السلاح وهو السلاح المحفوظ عندهم حتى الآن وهم يطلقون على البندقية المصرية اسم البرهومية نسبة الى ابراهيم وعلى البنادق الانكليزية « انكليزية » والمساوية نمساوية والمجرية « مجرية » وهى أفضل البنادق فى نظرهم وكان عثمان باشا يحتل كسروان بثمانية آلاف مقاتل فلم يتعرض للأساطيل التى أنزلت الجنود الى البر ومعها سليم باشا قائد السفن التركية فاحتلوا ميناء جونيه وأرسل الأميرال الانكليزى مركبين الى نهر الكلب لهدم الطريق حتى لا يمر بها جيش ابراهيم باشا وذهب ريتشروود الانكليزى المستشرق وأكبر دعاة الثورة الى غزير ومعه ٥٠٠ جندى ففر من وجهه الأمير عبد الله الشهابى وفى اليوم الثانى سلم هذا الأمير وهو ابن أخى الأمير بشير فعدوا تسليمه أمراً كبيراً وكان ابراهيم باشا ابان ذلك يطارد الثوار فى جبال كسروان والمتن ويحرق قراهم ولكن عساكر الحلفاء كانت تثبت اقدامها فى السواحل . وفى

وفى ١١ سبتمبر أرسل قائد الأسطولين الانكليزى والنمساوى إلى سليمان باشا أن يسلمهما بيروت فلم يجب فأخذت مراكبهم باطلاق القنابل على المدينة والابراج فاحتج سليمان باشا عليهم احتجاجاً شديداً لأن قنابلهم أصابت النساء والأطفال والمستشفى وكان عليهم أن يطلبوا تسليم المدينة قبل ضربها من ابراهيم باشا أو محمد على باشا أما هو فمأمور بالدفاع عنها فقط ثم أمر جيشه بالارتداد إلى الحازمية فى ضواحى بيروت .

وفى ١٢ و١٣ سبتمبر هاجم أسطول الحلفاء قلعة جبيل وحاول انزال الجنود فردتهم الحامية ولكن الثوار اللبنانيين دخلوا القلعة ليلا فانسحبت منها الحامية وفى الصباح سلمها اللبنانيون لعساكر الحلفاء . ومن جبيل تقدم الحلفاء إلى البترون وكان السلطان قد ولى عزت باشا ولاية سوريا ، بعد ما أفتى مشايخ استامبول بخلع محمد على من الحكم والولاية كلها ، فنزل فى جونيه وأرسل الى ابو سمرا غانم من زعماء الثوار ليحضر اليه من جنوب لبنان و يتسلم منه السلاح فوصل ومعه ٥٠٠ نفر فسلمه خمسة آلاف بندقية فتوجه بها إلى بلاد جبيل والبترون حيث اجتمع عليه نحو أربعة آلاف رجل زحف بهم على الأمير مجيد الشهابى فى جهة اليمونة فى أعالى لبنان فارتد الأمير إلى الجيش المصرى فى عيناتا وأبو سمرا يتعقبه إلى أن اشتبك بمعركة مع الجيش وفى الليل دهمه الجنود المصريون فارتد إلى جهة بشرى حيث جمع الرجال واستأنف القتال مع الجيش فكسره وأكرهه على الارتداد إلى بعلبك وكان المستر ريتشر دوود قد وصل مع الثوار إلى جهة الدامور وصيدا فاستولى الحلفاء عليهما بمعاونتهم

ولما كانت صيدا مركز الحاكم وفيها حامية قوية وجهوا اليها ثمانية مراكب حربية ضربتها ضربا شديداً وقاتلت حاميتها قتال المستميت إلى أن قتل قائدها

حسن بك وعدد كبير من رجالها وبلغت خسائر الهاجمين نحو أربعة آلاف فلما وصل خبر سقوطها إلى ابراهيم باشا كبر عليه الأمر وأرسل إلى الأمير بشير ليوافيه إلى بعلبك حيث عقد مجلس من الأمير وشريف باشا و بحرى بك وكان رأى الأمير بشير أن يرجع السلاح إلى اللبنانيين فلم يقر ابراهيم باشا هذا الرأى فظهر على الأمير بشير الوهن والضعف وذهب ابن عمه الأمير بشير قاسم إلى معسكر الحلفاء فى جونيه وانضم اليهم فأرسله قواد الحلفاء لقيادة الثوار الذين يقاتلون عثمان باشا فى ميروبا وأرسلوا إلى الأمير بشير ينذرونه و يعدونه بولاية لبنان بالوراثة فى ذريته إذا هو سلم قبل مرور ثمانية أيام فأجاب بعدم التسليم معتذراً بأن أولاده وأحفاده فى عسكر ابراهيم باشا ولما انقضت الأيام الثمانية ولوا الأمير بشير قاسم على جبل لبنان فسار هذا الأمير لقتال عثمان باشا وكان قد صدر إلى هذا أمر ابراهيم باشا بالانسحاب من جبل كسروان إلى بعلبك فسار الامير بشير قاسم فى أثر عثمان باشا وأخذ من جيشه ثلثمائة أسير

وكان الحلفاء قد عزموا على مهاجمة جيش سليمان باشا من البر والبحر. فأدرك سليمان باشا الخطر فأجلى عن بيروت فى ليل ٩ أكتوبر وسار جنود الحلفاء إلى مقاتلة ابراهيم باشا فى بحر صاف ومعه ثلاثة آلاف مقاتل فردهم على أعقابهم فطلب الأميرال نابيه من الامير بشير قاسم الامير الجديد على لبنان بأمر الحلفاء أن يقدم برجاله إلى مؤخرة ابراهيم باشا ليهاجمه هو من الأمام فزحف الامير برجاله وحال دون وصول فرقتين مدداً لابراهيم باشا وكانت معركة بحر صاف معركة شديدة أسر فيها الحلفاء من جيش ابراهيم ٧٠٠ أسير بمعاونة الأمراء اللبنانيين وارتد ابراهيم باشا وسليمان باشا إلى البقاع وفى ١١ أكتوبر سلمت الحامية المصرية الباقية فى بيروت

ولما رأى الامير بشير ما حل بالجيش المصرى وعدم قبول رأيه وتعيين ابن عمه أميراً على لبنان مكانه وقد انفض عنه اللبنانيون وانضموا إلى الحلفاء قال لبحرى بك « قم واذهب إلى ابراهيم باشا وقل له لم تبق أقل فائدة . فالبلاد صارت الآن كلها صوتا واحداً » وفى ١١ اكتوبر غادر الأمير بشير مقره فى بتدين بعد أن استدعى احفاده من محافظة البلاد وابنه من جيش ابراهيم باشا ونهض إلى صيدا ومعه أولاده الثلاثة وزوجه وحفيده الامير سعد وأبلغ خالد باشا متسلم صيدا أنه أتى اليه مستسلماً فأمر خالد باشا أن تصطف العساكر بموسيقاها لاستقباله وأن تؤدى له التحية وقابله بالاجلال والاحترام وطلب منه قواد الحلفاء فى صيدا أن يتوجه إلى بيروت وأعدوا سفينة بخارية لركوبه فركبها إلى بيروت مع ابنه الأمير أمين وحفيده الأمير محمود ولما وصل إلى بيروت أبلغه عزت باشا الذى عين والياً على سوريا أن يختار لنفسه محل الاقامة ماعدا مصر وفرنسا وسوريا فاختار جزيرة مالطة فوافق قواد الحلفاء على طلبه ووعدوه بتأمين احفاده وأولاده وفى ١٦ أكتوبر ركب الأمير بشير الذى كان يعرف بالأمير بشير عمر الثانى الباخرة الانكليزية من صيدا ومعه زوجه وأولاده وزوجة ولده الأمير قاسم وحفدته الخمسة أولاد الأمير خليل وحفيده الامير رشيد وسكرتيره بطرس كرامة ونحو سبعين رجلا من أتباعه وخدمه وأقلعت بهم الباخرة إلى مالطة وهكذا انتهت أمارته بعد حكم طويل المدى كثير الحوادث والأطوار

وبعد تسليم الأمير بشير انسحبت الحاميات المصرية من طرابلس واللاذقية وادنه بدون قتال ولم يبق من مدن السواحل فى أيدى المصريين سوى عكا

الفصل الخامس عشر

موقف فرنسا — الأسطول الانجليزى يدك حصون عكا — خسارة المصريين — اتفاق نابيه ومحمد على — انسحاب الجيش المصرى .

يصور لنا الوزير الفرنساوى الشهير فرسينه الحالة بعد ضرب بيروت والسواحل السورية فى كتابه «المسألة المصرية» بقوله : «إن الحالة تطورت بسرعة فوق سرعة تبادل الآراء بين فرنسا وانكلترا فالأسطول الانكليزى — جريا على عادته بالمباغتة — ضرب بيروت فى ١١ سبتمبر وأنزل فيها الجنود التركية المعدة للعمل فى سوريا . والسلطان نفذ بكل شدة أحكام الفصل الملحق بعهد الدول الأربع فأسقط فى ١٤ سبتمبر من الحكم محمد على وولى عزت محمد باشا خلفا له . ووصلت هذه الأخبار إلى باريز فى ٢ اكتوبر فأحدثت تأثيراً كبيراً . فاجتمع مجلس الوزراء اجتماعا فوق العادة ووكل إلى المسيو غيزو فى ٨ اكتوبر أن يقدم مذكرة إلي اللورد بالمرستون بعبارات موزونة ولكنها حازمة . وختام هذه المذكرة يشعر بأن فى القضية سبباً للعداء وذلك بقولهم « وإنا مستعدون لأن نشترك بكل تسوية مقبولة يكون أساسها بقاء السلطان وبقاء محمد على ، وفرنسا تكتفى بأن تعلن الآن بأنها لاتستطيع أن ترضى من جانبها بتنفيذ حكم خلع محمد على الصادر من استامبول »

ولما وصلت هذه المذكرة إلى لندن شعرت حكومتها بأنها أغرقت فى التطرف فأرسل اللورد بالمرستون فى ١٥ اكتوبر إلى اللورد بونسوبى سفير انجلترا فى الأستانة « بأن من المستحسن أن يوصى سفراء الدول الأربع المتحالفة

عظمة السلطان بكل الحاح بأنه إذا أظهر محمد على فى الحال خضوعه لعظمته وتعهد بأن يعيد الأسطول التركى و بأن يسحب جنوده من سور يا كلها وأذنة وكر يد ومن المدينتين المقدستين فان السلطان من جانبه لايكتفى باعادة محمد على والياً على مصر ولـكنه يمنحه الولاية بالتوارث فى بيته »

ولـكن هذه الترضية لم يجدها الرأى العام الفرنساوى كافية لما كان عليه من الهياج والسخط لمحمد على ولأنه كان بعد ميثاق الدول الأر بع فى ١١ يوليو تالياً على فرنسا وذلك هو السبب الذى دعا حكومة الملك فيليب لأن تعد معدات الحرب والقتال فزادت سفنها الحر بية واستدعت لحمل السلاح مرتبتين من مراتب الجيش المستحفظ وطلبت فتح اعتماد بـ ١٠٨ ملايين فرنك على أن يطلب من مجلس النواب الموافقة عليه عند اجتماعه

ولـكن الحكومة الفرنساو ية مع ارضائها الرأى العام بالتذرع بهذه الوسائل استدعت الأسطول من مياه الشرق لأنه هناك «مادة قابلة للالتهاب» وحشدت هذا الاسطول فى طولون ليكون على قدم الاستعداد للسفر إلى الاسكندر ية إذا ماهاجم الحلفاء تلك المدينة . ولـكن هذا العمل الذى يجمع بين حسن السياسة وحسن الخطة الحر بية وصف بأنه « الفرار » من وجه الانكليز كما وصف بأنه « ترك » سور يا و بين هذه الآراء المتناقضة أو بين اختلاط الحابل بالنابل ، دعى مجلس النواب للاجتماع فى ٢٨ أكتو بر . و يقول المسيو غيز و: ظهرت وقتئذ وتجات الاخطاء التى ارتكبتها السياسة الفرنساو ية منذ ظهور المسألة المصرية لانا لم نجد فى ظرف من الظروف أو فى حالة من الحالات موقفا معيناً وكنا دائما موزعين بين العاطفة والعقل فنحن جعلنا مسألة محمد على مسألتنا دون أن نبين لذلك حدوداً تكون ضمنها وداخلها حمايتنا . وتملـكتنا الذكرى فنسينا الضرورات القائمة . و بين تلك الهالة الرائعة من المجد الذى كنا

نضفره لمحمد على لم ننظر نظرة صادقة إلى مقدر يه على مخالفة إرادة أورو با . ففى أبان المفاوضات صممنا على أن نعطى له الترضية كاملة تامة ولم ننظر إلى ما كان ممكناً أن يكون لو رفضت هذه الترضية وتناسينا أن المزاحمين العديدين لايسمحون بأن يكون لنا التفوق فى مصر وسور يا وأن نتحكم بمصير الشطر الأكبر من أملاك السلطنة التركية وما رفضت انكلترا أن تقبله من روسيا لم يكن بالامكان أن تقبله وترضاه من فرنسا ، فلما انقضى عهد الأحلام بات من اللازم النظر إلى الحقائق وجهاً لوجه واتخاذ موقف نهائى فاما إلى الحرب و إما إلى التقهقر وكلا الموقفين صعب عسير .

* * *

أما قوات الحلفاء فى سواحل سور يا فلم يبق أمامها فى تلك السواحل سوى حصن عكا فقط ، فأصدرت انكلترا أوامرها إلى الأميرال رو برت ستونفورد فى أواخر اكتوبر بمهاجمة هذا الحصن فجمع القوات البرية البحرية لهذا الغرض وتقدم عمر بك قائد قوة صيدا إلى رأس الناقورة بألفى مقاتل ، وذهب سليم بك بثلاثة آلاف مقاتل بحرا من بيروت ، ماعدا توابير الشغالة والهندسة . وفى ٢ نوفمبر اجتمعت القوات البرية والبحرية حول ذلك الحصن ، وكان أسطول القتال مؤلفاً من إحدى وعشرين سفينة حربية ولم تكن حامية عكا تزيد على خمسة آلاف

وفى الساعة الثامنة بعد ظهر ٣ نوفمبر وجهت السفن الحربية مدافعها إلى تلك المدينة وظلت النيران تصب من فوهات ٤٧٠ مدفعاً حتى خيم الظلام والحامية تدافع دفاعاً مجيداً ، وكانت المنطقة التى تنصب عليها نيران المدافع لا تزيد على ١٥٠٠ قدم عرضاً ولا على ٣٣٠٠ قدم طولا . ورووا أن مركباً واحداً من مراكب الانجليز أحرق فى إلقاء القذائف النارية على عكا ١٦٠ برميلا من البارود .

وكان من الذين تولوا تحصين عكا بأمر محمد على أحد المهندسين الطليان . فقبل أن يبدأ الأسطول بضرب الحصن لجأ هذا المهندس إلى الأسطول الانجليزى وسلمه خريطة الحصن فكان الأسطول يضرب نيرانه إلى المكان الحيوى منه إلى أن تمكن من إصابة مخازن الذخيرة وكانت مخازن كبيرة جداً فانفجرت انفجاراً ارتجت له الأرض فى تلك البلاد وسمع دويه إلى أقصى جهات سوريا وفلسطين وهلك بذلك الانفجار ١٥٠٠ جندى من الحامية ودمرت الحصون والأبنية ولم يبق أمام الحامية إلا الخروج لأن المدينة تحولت إلى قطعة من جهنم حتى قال أحد الشعراء .

فالوا بأن جهنما تحت الثرى   مالى أراها فوق عكة تضرم

لولم تكن دار الشقاوة عكة   ما أمطرتها بالشرار جهنم

وانجلت هذه المعركة عن ألفى قتيل وجريح من الحامية المصرية فى تلك المدينة وعن ثلاثة آلاف أسير وبين الأسرى رئيس المهندسين يوسف أغا وهو رجل بولونى كان اسمه الأصلى الكولونيل سولتز وبعد الاستيلاء على هذا الحصن أقام الأميرال الانجليزى فيها حامية تركية عددها ثلاثة آلاف رجل وحامية صغيرة أوروبية عددها ٢٥٠ رجلا وأبقى فى مائها سفينتين حربيتين وأخذوا بالتحصين والامتناع فيها لأنهم كانوا يخافون هجوم ابراهيم على السواحل فى فصل الشتاء لاستخلاصها من أيديهم عند ما تصبح الأساطيل عاجزة عن القتال وعن مقاومته .

وبعد الاستيلاء على عكة اتجه أسطول الحلفاء إلى يافا واستلمها بلا قتال

ولتخوف الانجليز من حلول فصل الشتاء قبل انهاء المسألة أرسلوا الاميرال نابييه إلى مياه الأسكندرية بأسطول كبير ليضغط على محمد على فوصل هذا الأسطول فى ٢١ نوفمبر يقود ست سفن كبيرة وفى يوم ٢٢ وجه رسالة إلى

بوغوص بك وكيل خارجية محمد على يقول له فيها : « إن اسكندرية ليست أمنع من عكا وأن الفرصة سانحة لمحمد على أن يؤلف امارته وحكم الوراثة فى أسرته » فرد عليه بوغوص بان تبعة الحرب فى سواحل سوريا لا تقع على محمد على بل هى تقع على الحلفاء الذين أرسلوا إليه بلاغهم باسم السلطان فرد عليه بأنه خاضع للسلطان وبأنه يسلم بأن يكون حكم مصر له ولسلالته من بعده كما عرضوا عليه ولكنه التمس فى الوقت ذاته من السلطان أن يمنحه حكم سوريا مدى حياته وأن يضيف إلى منحته الأولى المنحة الثانية لاعتقاده بأن سوريا إذا ظلت تحت ادارته تدر الخير والبركة على السلطنة ، فبدلا من الرد على هذا الطلب قابلوه بحكم الخلع من الحكم وبالعدوان فى كل جهة فغنم نابيه فرصة هذا الجواب لفتح باب المفاوضة بالصلح والاتفاق مع محمد على . لأنه وجد فى لهجة الجواب ميلا صحيحاً إلى الاتفاق ، وقد كان الأميرال نابيه من الانجليز المعجبين بمحمد على والمعترفين بحسن ادارته فوضع نصب عينيه الوصول إلى الاتفاق معه معتمداً فى مؤازرته على جماعة كبيرة من الانجليز كانوا يقولون باكتساب صداقة مصر المستقلة بدلا من إعادة مصر لحكم الباب العالى وبدلا من جعلها مستعمرة انكليزية تكون عبئاً على عاتق انكلترا فضلا عن أن مصر تخرج بهذه الطريقة من يد فرنسا وترتمى فى حضن انكلترا .

على هذه القاعدة بدأ الأميرال نابيه مفاوضاته مع محمد على وعلى هذه القاعدة توصل إلى الاتفاق المعروف باتفاق ٢٧ نوفمبر دون استشارة رئيسه الذى كان يقاوم ذلك كل المقاومة واتفاق ٢٧ نوفمبر هو الذى يجعل حكم مصر والسودان وراثياً فى بيت محمد على .

بعد استيلاء الحلفاء على سواحل سوريا بمعاونة الثوار فى لبنان وبعد تنازل الأمير بشير عن الحكم وانضمام خلفه إلى الحلفاء ، ظل ماثلا أمام عيونهم شبح

الفشل (١) من قوة ابراهيم التى حشدها كلها بين لبنان ودمشق ، وهى لا تقل عن ٥٠ ألفا (٢) مذكرة فرنسا إلى الحلفاء فى ٨ اكتوبر بأنها تعتبر حرمان محمد على من ثمرة انتصاراته والاقدام على تنفيذ قرار السلطان بعزله مدعاة للحرب (٣) قرب فصل الشتاء واضطرار الأساطيل إلى الانسحاب من مياه سوريا ومصر (٤) ظهور الانقسام فى دول الحلفاء مخافة أن تقع الحرب فى أوروبا و يقع حملها على النمسا و بروسيا وحدهما خدمة لمآرب انكلترا التى تريد الاستيلاء على مصر (٥) اشتداد ميل الرأى العام فى أوروبا كلها نحو محمد على وابراهيم واستنكار معاملتهما بذلك الظلم الصارخ . لذلك كان مشروع فرنسا وتنفيذه هو وحده المنقذ من ذلك الموقف المحفوف بالخطر وهذا المشروع هو الذى يبقى على السلطان وحكمه ، بالرغم من انهيار ملكه ، لحفظ التوازن فى أوروبا ، و يبقى على محمد على وحكمه بمصر فى سلالته لأنه اكتسب ذلك بباعه وذراعه ولأن حكمه حكم اصلاح وتقدم ورقى على أحدث الاساليب ومبادىء الحضارة

أما محمد على فقد كان يقضى عليه بقبول ما ارتآته فرنسا وترك سوريا (١) خروج حليفه هناك الأمير بشير من الميدان وظهور الأمير بشير قاسم الذى ولته الدول بمظهر العداء (٢) حرمان جيشه من السواحل كلها حتى تعذرت المواصلات مع ابنه ابراهيم (٣) قلة الأموال حتى تأخرت رواتب الجنود أكثر من سنة ولم يجد فى فرنسا من يمد إليه يد المساعدة (٤) تعب الجيش والأمة من حروب لاتنتهى منذ ثمانى سنين (٥) اعتبار الدول الأربع المتحالفة مع تركيا خامستهم أن كرامتها جميعاً معلقة على تنفيذ الانذار الذى أوحته إلى السلطان

فهذه العوامل كلها حملت الانكليز وحلفاءهم على أن يرحبوا فرحين باتفاق

٢٧ نوفمبر أى اتفاق نابيير ومحمد على بأن محمد على يرضى بأن يخرج من المعمعة مكتفياً بحكم مصر فى سلالته بعده . وحملت محمداً علياً على أن يرضي بذلك الحل الذى كان يرفضه و يأباه

ولكن اتفاق نابيير ومحمد على كان غامضاً مبهما وخلاصته « ان الدول الأربع المتحالفة تبذل كل مجهودها لدى السلطان ليمنح محمد على وذريته بعده حكم مصر بالوراثة وان محمد على يبادر بطلب العفو من السلطان و يعلن استعداده لارجاع الأسطول العثمانى وسحب جنوده من سوريا والبلاد العربية وانه يفوض مستقبله للمراحم السلطانية »

وقد عرفنا أن السلطان استصدر فتوى العلماء بخلع محمد على من الحكم فى ١٥ اكتوبر وأعلن تعيين عزت محمد باشا خلفا له فى حكم مصر وسوريا وذلك بموافقة الحلفاء بعد انقضاء مهلة العشرين يوما التى أعطيت له .

فاصرار محمد على « على أن لا يعيد بغير السيف ما أخذه بالسيف » هو الاعلان الذى انتصر وفاز لأنه الغى وأبطل الحكم الذى صدر بخلعه وعزله كما أن موافقة الحكومة الانكليزية على اتفاق نابيير قضى على عناد سفيرها فى الاستانة اللورد بونسونبى الذى حاول مراراً وتكراراً انكار ذلك الاتفاق وحمل السلطان على رفضه جريا على سياسة بالمرستون وزير الخارجية

ولما وافق محمد على على اتفاق نابيير نشر فى البلاد منشوراً عاما وجهه إلى الحكام والعلماء والذوات قال فيه :

« انه حضر إلى ميناء الاسكندرية جناب الأميرال نابيير قائد السفن الحربية الانكليزية بالبحر الأبيض وعرض لنا اتفاق دول أوروبا باجابة طلبه مصر لنا بطريق التوارث ، وبذلك صار حسم مادة سفك دماء المسلمين وصدر الأمر للسرعسكر وكافة القواد بترك الشام والاذن بحضورهم لمصر

بالجيوش التى يبلغ عددها ٧٠ ألفا » ثم أذيع فى الأمة منشورا آخر عمومى هذا نصه :

« إن العوارض تعرض للعالم منذ بدء الخليقة إلى اليوم والحروب تتقد بين الأمم لأسباب وعوامل لاتدركها العقول ومن هذه الحروب معركة نصيبين فكانت نتيجتها سفك الدماء ومواصلة القتال دون أن يظهر من وراء ذلك أمارات السلم والسلام واستتباب الراحة وظل روح العدوان ساريا حتى الآن ، ولكنه حضر إلى ميناء الاسكندرية قائد السفن الحربية الانكليزية بالبحر الأبيض الأميرال نابيير وعرض علينا وقوع الاتفاق بين دول أوربا على احالة حكم مصر بطريق التوارث إلى ولى النعم محمد على باشا وبذلك صار حسم مادة سفك دماء المسلمين الأمر الذى ترتاح إليه النفوس . وبناء على ما تقدم أعطيت الأوامر لدولة سر عسكر الجيش المصرى ولكافة القواد بترك ولاية الشام وأدنه والرجوع بالجيوش إلى مصر وصار نشر ذلك اعلانا للسرور »

وأصدر محمد على بعد ذلك أمراً باعداد منزل لنزول الأميرال نابيه وأن يكون فى ضيافته مع تعيين مهمندار له

ولما وصل الاتفاق إلى استامبول حاول سفير انكلترا احباطه وانقاد اليه الباب العالى ولكن سفراء النمسا وروسيا وبروسيا ألحوا بوجوب تنفيذه وفى ١٠ يناير ١٨٤١ قدموا للباب العالى النصيحة بأن تمنح محمد على حكم مصر بالتوارث فى ذريته فماطل الباب العالى وسوف واضطرهم إلى أن يقدموا له مذكرة رسمية فى ٣٠ يناير قالوا فيها :

« إن الدولة تطلب من عظمة السلطان أن يظهر بمظهر السماحة نحو محمد على لا لابطال قرار خلعه من الحكم فقط بل بالوعد فوق ذلك بأن يكون

خلفاؤه فى الحكم من سلالته من الذكور على التوالى كلما خلا منصب الحكم بوفاة الحاكم .

« والدول الأربع التى تبذل نصيحتها للباب العالى بان يمنح محمد على هذه المنحة لا تبدى رأياً جديداً بل هى تذكر فقط عظمة السلطان بالنيات التى اعرب عنها من تلقاء نفسه عند بدء الأزمة الشرقية وهى النيات التى كانت أساساً لاتفاق ١٥ يونيو سنة ١٨٤٠ .

« وفوق ما تقدم ان الدول الأربع ببذلها النصيحة للباب العالى و بتكرارها النصيحة بهذه المذكرة تعتقد بأنها لاتنصحه بأن يعمل ما يخالف حقوق السيادة أو سلطة السلطان الشرعية ولا اتخاذ وسائل مخالفة لواجبات باشا مصر كتابع لعظمة السلطان يدعوه عظمته لأن يحكم باسمه إحدى ولايات السلطنة . وهذه الحقيقة ليست مثبتة فقط بالمواد ٣ و ٥ و ٦ من الفصل المفرد الملحق باتفاق ١٥ يوليو بل هى مثبتة أيضاً بتعليمات الدول إلى سفرائهم فى استامبول عقيب مباحثات ١٥ اكتوبر . وفى الواقع انه منصوص فى الميثاق المشار إليه أن جميع المعاهدات وجميع قوانين السلطنة العثمانيه الحاضرة والمستقبلة تنفذ فى باشاوية مصر كما تنفذ فى الولايات العثمانية الأخرى

« وهذا الشرط الذى تعتبره الدول الأربع لازما لامندوحة عنه هو فى نظرهم الصلة الوثيقة التى تربط مصر بتركيا وتبقيها شطراً منها غير منفصل عنها

« وفى الفقرة السادسة من الميثاق ذاته ان القوات البرية والبحرية التى تؤلفها مصر والتى تكون شطراً من قوات السلطنة يجب أن تحسب معدة للخدمة العامة » اه

فهذه المذكرة التى جعلت مسألة مصر دولية اضطرت الباب العالى أن يصدر فى ١٣ فبراير فرمانا يبسط المبادىء الواردة فى هذه المذكرة و يؤيدها

أما ابراهيم باشا فانه رأى بعد سفر الأمير بشير من لبنان وحلول أمير آخر محله ، وقد جمع أربعة آلاف رجل لمقاتلة جيشه وقطع مواصلاته ، أمر قواده بالانسحاب من أنحاء لبنان إلى زحله والرياق فاجتمع من ذلك الجيش نحو ١٥ ألفا وأرسل المرضى والعاجزين عن القتال إلى دمشق ووقف الامير بشير قاسم ورجاله فى حمانا إلى أن يرسل الحلفاء إليه النجدات والسلاح مخافة أن ينقلب جيش ابراهيم باشا لسحقه وتبديل شمل رجاله ولكن جيش ابراهيم لم يكن يرغب ذلك بعد ما انتهى من قتال الثوار فى كسروان والمتن والقاطع وأحرق فى مروره بكسروان بقعاتا وميروبا ووطا الجوز وحراجل وفاريا وفيترون وأحرق فى المتن عين علق و بيت شباب ولم يتعرض لقرية بكفيا لان الشيخ حردان الجميل وفياض علوان من مشائخ بكفيا قصدا إليه وهو فى المروج فعرضا عليه خضوع أهل بلدتهم فأمر بالعفو عن بكفيا

وتدل جميع الظواهر على أن انكفاف ابراهيم باشا عن لبنان وعدم تعرضه للحلفاء فى السواحل وتركهم وشأنهم كان يقصد منه تدبير الجلاء عن سوريا لأنه قبل وصول والده إلى الاتفاق مع الأميرال نابيير وقبل وصول أمر والده اليه بالجلاء جمع جيشه فى دمشق وأخذ يعد الأهبة لذلك دون أن يتعرض لفشل الانكسار أو لقطع مواصلاته . ونقص جيش ابراهيم فى لبنان وسواحله عشرة آلاف مقاتل وظل الجيش وهو ينسحب من شمالى سوريا إلى دمشق حافظاً على نظامه كل المحافظة ونظم ابراهيم فى كل بلدة أخلاها وجهة أجلى عنها جيشه وعماله وجعل الحكم بيد أحد أبنائها ولم يتعرض الجيش إلا للمعرة لأن أهلها أبوا أن يعطوه حاجته ، وكذلك حمص لأن أسواقها أقفلت فى وجه الجيش وأبى أهل المدينة أن يقدموا للجيش حاجته ولما شكا الأهالى إلى قائد الجيش أنزل العقاب الشديد بالجنود الذين ارتكبوا النهب .

ولما احتشد الجيش كله فى دمشق هطل مطر شديد مدرار دام بضعة أيام فاضطر الجيش أن يدخل المدينة وأن يحتل الخانات والقهوات والدكاكين والجوامع ما عدا الجامع الاموى وجامع السنانية ووضع يده على المطاحن والأفران ليعد الزاد اللازم له فى الرحيل وأمر ابراهيم باشا بجمع الأموال المتأخرة من دمشق وقراها حتى يتمكن من الانفاق على جيشه أبان رحيله وانفصل عن الجيش أكثر اللبنانيين والسوريين الذين كانوا يحاربون فى صفوفه وعادوا الى أهلهم وقرباهم ، وشعر ابراهيم باشا ببعض الحركات العدائية فى دمشق بتحريض الترك فنكل بالمحرضين واعترض بعض العربان والدروز فى سعسع قوافل المؤن والذخائر فأدبهم تأديباً شديداً .

فى ٢٧ نوفمبر ١٨٤١ وضع الاتفاق بين الاميرال نابيير ومحمد على على أن يعيد محمد على الأسطول التركى وعلى أن يدع سوريا ويكتفى بحكم الوراثة بأولاده الذكور ، ولكن هذا الاتفاق لم ينفذ إلا فى شهر يناير و بعد محاولات ومماطلة من الباب العالى ووزارة خارجية انكلترا وسفيرها فى الاستانة لأن الوزير بالمرستون والسفير بونسوبى كانا يطلبان هدم حكم محمد على فلم يصدر محمد على الأمر إلى ابراهيم بغير حشد جيشه فى دمشق فجمعه هناك وأوحى عمال الانكليز والترك إلى الامير بشير قاسم اللبنانى خليفة الأمير بشير عمر حليف محمد على بأن يهاجم جيش ابراهيم باشا فطاب منهم المدد فلم يمدوه فتقدم مع الثوار إلى جهة دمشق وذهب الزعيم الثائر أبوسمرا غانم إلى جهة المجدل للغرض ذاته وأرسل الأمير أسعد شهاب إلى قرية خربة ريحا لقطع طريق ابراهيم باشا فى وادى التيم فى حالة جلائه الذى كان منتظراً وسافر الامير بشير برجاله إلى بلاد صفد ثم إلى يافا للغرض ذاته لان الاميرال سترانفورد تلقى الاوامر بأن

يظل على مواصلة أعماله العسكرية ضد ابراهيم وجيشه فأمر جاكوموس الذى كان يقودجنود الحلفاء بأن يجعل نصب عينه تجريد جيش ابراهيم من سلاحه ، لذلك وضع قوة من اللبنانيين فى وادى التيم وصفد و يافا على طريق ابراهيم إذا سار هو بجيشه من دمشق على طريق القينطرة ووضع قوة أخرى فى القدس وثالثة على طريق بئر سبع بقيادة القائد التركى حسن باشا لان قيادة الحلفاء كانت تعتقد أنه ليس أمام جيش ابراهيم باشا طريق آخر غير فلسطين

مثل هذه التدبيرات اتخذت قبل أن يرد جواب الباب العالى على اتفاق نابيير ومحمد على ولما وصل الرد ظهر ان السلطان لايمنح محمد على الحكم المتوارث فى مصر فظهر أن سفير انكلترا كان يدبر ذلك الجواب وكان يتوقع القتال ولـكن الدول الاخرى لم تكن على هذا الرأى فأمرت الدول الاربع سفراءها بتقديم المذكرة التى ذكرناها فى الفصل السابق فأمر السلطان باجابة مطالب الدول فانتدب الاميرال نابيير ليشهد تسليم الاسطول التركى فى الاسكندرية وأرسل محمد على رسوله إلى ابراهيم باشا ومعه أحد الضباط الانكليز ليسحب جيشه من دمشق مع تبليغ قواد الحلفاء تسهيل أمر الجلاء والسماح للنساء والاطفال والجرحى والمرضى بأن يعودوا إلى مصر بحراً

ولما تلقى ابراهيم أمر والده فى ٩ ديسمبر عقد مجلساً فى مدينة دمشق من أعيان المدينة ليختاروا الحاكم الذى يسلمه مدينتهم فاختاروا حسن بك الكحالة ثم خطب فيهم حاثا على حفظ النظام والامان وألا يمسوا النصارى واليهود بسوء فاذاهم لم يرعوا أوامره يرتد اليهم بقوة من جيشه و يحل بهم أشد العقاب

وعرف ابراهيم مايضمرونه له فى طريقه رغم الاتفاق ، فوضع خطة الرجوع لجيشه .

وفى ٢٩ ديسمبر أصدر الامر إلى جيشه المؤلف من ٥٥ الف جندى ومعهم

١٥٠ مدفعاً بالجلاء وكان يتبع ذلك الجيش نحو سبعة آلاف نفس من العائلات والاتباع

و بعد ستة أيام من خروج ابراهيم باشا من دمشق وصل اليها الجنرال جوكوموس وأعلن اعادة حكم السلطان وتولية احمد أغا اليوسف وسار مع الثوار يناوش مؤخرة الجيش وانضم اليهم نحو ٧٠٠ من المتطوعين بجيش ابراهيم فذهبوا مع رفاقهم للانضمام إلى جيش الأمير بشير قاسم الشهابى فى طبريا وهدم الجنرال جوكوموس جسر بنات يعقوب حتى يعرقل سير الجيش المصرى

وفى المزيريب ارتاح الجيش ثلاثة أيام وكان البرد شديداً فقسم ابراهيم جيشه خمسة أقسام أحدها بقيادة سليم باشا والثانى بقيادة احمد باشا الدرامهلى والثالث بقيادة احمد باشا المنيكلى والرابع بقيادة سليمان باشا الفرنساوى والخامس بقيادته هو ذاته وعين للقسم الأول طريق شرق الأردن إلى غزة والعريش وللثانى طريق الحج ومعان فالعقبة ومنها إلى النخل والسويس أما هو وكان قسمه مؤلفا من الحرس وفرسان الهنادى والباشبوزق فجعل وجهته غزة ايركب منها البحر إلى مصر وتمكن ابراهيم بحسن خطته ودقة نظام جيشه ونشاط ضباطه من أن يلعب بقواد الحلفاء الذين كانوا يتربصون له في الطريق وأن ينفلت من بين أيديهم حتى قالوا فى وصف ارتداده ورجوعه سالما انه ربح أكبر معركة سلمية بالارتداد لأن الجنرال جاكوموس جمع على طريقه كل ما يمكن جمعه من القوات بمافيها قوات الثوار — وهى اشد خطراً على الجيش المرتد من الجيش النظامى — ووقف بها فى جهة جنين وجسر المجامع وقطع الطرقات الأخرى ولكن ابراهيم باشا كان يتظاهر بالزحف فى فلسطين ثم يسير بعيداً شرق نهر الأردن والبحر الميت على ان جيشه تحمل من أجل ذلك متاعب كبيرة جدا لا يتحملها جيش آخر لأنه كان يسير فى الصحراء القليلة الماء والزاد حتى اضطر

الجيش الى أكل لحم الخيول والمواشى وأن يعيش أياما على عشب البرية وكانوا قبل وصولهم الى السواحل كغزة والعقبة يكافحون الجوع والعطش ولصوص البدو وفى ٢٥ يناير وصل القسم الأول من جيش ابراهيم باشا الى غزة

أما جيش سليمان باشا فانه سار على طريق الحج وكان يحسب انهم يرسلون اليه من مصر بطريق صحراء السويس الزاد والماء ولكن هذا الأمل خاب . غير أنه وفق للعثور على الآبار ونجا وأوصل المدافع المئة والخمسين بخيولها سليمة الى مصر

ووصل ابراهيم باشا الى غزه فى ٣١ يناير وأرسل الى والده ليوافيه بحاجات الجيش فأرسل اليه ما طلب و بلغ عدد الجيش الذى وصل الى مصر ٤١ الفا منهم ٣٠ ألفا عن طريق غزه والباقى عن طريق العقبة والسويس وكان آخر جندى غادر غزه فى ١٩ فبراير سنة ١٨٤١

أما اللبنانيون الذين كانوا فى مصر فان محمد على اتفق مع الأميرال نابييه فى ٢٧ نوفمبر على إعادتهم الى وطنهم كما اتفق معه على اعادة الذين كان قد نفاهم الى سنار فى سنة ١٨٤٠

ومما يذكر عن هؤلاء المنفيين وعددهم ٥٧ أميراً وشيخاً وعيناً ، انه لما أبعدهم محمد على الى سنار سلم قايد المركب الذى يركبونه كتابا الى حاكم تلك الجهة ، فتشاوروا فيما بينهم — وهم فى الطريق — لمعرفة ما فى ذلك الكتاب فان كان شرا فتكوا بجنود المركب ونجوا بأنفسهم فى البرية وان كان خيرا واصلوا السير فلما أخذوا الكتاب واطلعوا عليه وجدوا ان محمدا عليا يوصى بهم خيرا و بأن يعاملوا معاملة حسنة فأعادوا الكتاب الى حامله وصرفوا مدة نفيهم معززين مكرمين فلما عاد جيش ابراهيم الى مصر أرسل الأميرال نابييه ولده الى محمد على يطلب أولئك المنفيين فأعادهم محمد على من السودان وفى ابان عودتهم توفى منهم فى صعيد مصر الأمير يوسف سليمان شهاب

أما الجنود السوريون في جيش محمد على فكان المتفق عليه بين الأميرال تشارلس نابييه و بوغوص بك وكيل خارجية محمد على انهم يرجعون الى بلادهم حال وصول جيش ابراهيم الى مصر فبعد مفاوضات طويلة بين القنصل الانكليزى ومحمد على ، أمر محمد على باعادتهم ووصل القسم الأول الى بيروت فى شهر سبتمبر سنة ١٨٤٣ ووصل القسم الثانى بعد شهرين وكان عددهم جميعا نحو عشرة آلاف

خرج جيش ابراهيم من سوريا عائدا إلى مصر بعد ما أقام فيها من ٣١ اكتوبر **١٨٣١** الى ٣٠ فبراير **١٨٤٢** فاكتسح الجيش التركى فى أربع معارك كبيرة ولو شاء وشاءت أقدار السياسة لدخل استامبول ولو شاء وشاءت السياسة لجعل هذا الحكم المصرى من حدود النمسا الى حدود إيران فبحر الهند فى آسيا ومن مصر الى الجزائر ومنها الى زنجبار فالمحيط الهادى فى افريقيا ولكنه غادر مصر ولاية يولى الباب العالى عليها من شاء وعاد اليها وحكم مصر مقرر بين الدول لمحمد على ولذريته بعده الى ما شاء الله

فماذا ترك بعده فى سوريا من آثار السنين العشر ؟ ؟ هنا وفى هذا الموضوع الذى لمسناه مراراً ابان الكلام عن البطل ابراهيم ندع الكلام للمؤرخ الفاضل سليمان بك أبو عز الدين فى كتابه « ابراهيم باشا فى سوريا » قال :

زالت حكومة محمد على من سوريا بانسحاب جنوده منها أما تأثيرها فلم يزل مع ذلك الانسحاب لأنها أحدثت فى نظام الأحكام انقلابا عظيما فأدخلت أنظمة جديدة على الادارة والقضاء والمالية والجندية وكان لذلك تأثيرات جمة فى حياة البلاد الاجتماعية والأدبية والأقتصادية والادارية والسياسية منها ما كان بعيد المدى فاتصل تأثيره بوقتنا الاخير

فمن التغييرات الاجتماعية التى نشأت عن حكم محمدعلى اطلاق الحرية الدينية ونشر الروح الديموقراطية بالضرب على أيدى الزعماء والمتغلبين ونزع السلطة من أيديهم و إنشاء العلاقة ما بين الشعب وحكامه مباشرة وتأليف مجالس مشورة تمثل الشعب بعض التمثيل ومع حق النظر فى الشؤون المحلية بعد ان كان النظر فى جميع الشؤون منوطا بحكام مستبدين

وقد كان لوجود ابراهيم باشا فى سوريا تأثير فى بساطة المظهر بعد أن كان كبار البلاد يباهون بالملابس الفاخرة والمظاهر الخلابة وكثرة الاتباع وكانوا يقلدون فى ذلك الحكام العثمانيين ، أما ابراهيم باشا فكان ميالا بفطرته إلى بساطة المظهر والتخشن فى المعيشة ولعل حياته الجندية زادته استمساكا بذلك

و يروون أنه لما جاء إبراهيم باشا بجيشه إلى ابناز وحل بدير القمر أقام فى منزل صغير وذهب ذات ليلة لزيارة الامير بشير زيارة غير رسمية فلم يستصحب أحداً من حاشيته بل كان معه أحد خدمه فقضى السهرة عند الامير وكان الامير قبل ذلك لايعهد فى الوزراء سوى مظاهر الأبهة والترفع عن الناس فلا تتحرك ركابهم من مكان إلي مكان إلا وهم مرتدون الملابس الفاخرة محوطون بالجند والعظماء . وكان الامير نفسه ومن دونه من الزعماء يجرون على الخطه ذاتها أما بعد أن تلقى هذه الزيارة الودية من إبراهيم باشا فلم يسعه إلا أن يحذو حذوه و بما أن إبراهيم باشا وهو ابن عزيز مصر ورأس الحكومة السورية وقائد الجيش العام قد زاره ومعه خادم واحد فحفظا للنسبة بين المقامين رد الامير بشير الزيارة لابراهيم باشا وحده وليس معه أحد

وفى عهد إبراهيم باشا طرح الامير بشير وأولاده العمائم واستبدلوا منها الطربوش المغربى اقتداء بمحمد على و إبراهيم ورجالهما فتبعهم فى ذلك كبار البلاد وسواهم

وقبل دخول إبراهيم باشا سوريا لم يكن مباحاً للمسيحيين أن يلبسوا العمائم البيضاء أو الخضراء أو الحمراء وكانت محظورة عليهم أمور أخرى كثيرة وكانت تولية النصارى أعمال الحكم نادرة جدا فأزالت حكومة محمد على هذه الفوارق وأباحت للمسيحيين كل مايباح للمسلمين من لباس وركوب الخيل ومن الحقوق الاخرى الاجتماعية والوطنية وقلدت الكثيرين من المسيحيين الوطنيين والافرنج الوظائف فى الجيش والدولة ومنحتهم الرتب والألقاب . ويروون عن حنا بك بحرى الذى كان يتولى منصبا عاليا فى حكومة سوريا أن زملاءه المسلمين ما كانوا يعاملونه بالاكرام الذى يستحقه منصبه وكان محمد على قد منحه رتبة مير ميران فشكا إلى إبراهيم الذى دخل مرة مجلساً ضم كبار القوم وبينهم حنا بحرى بك فنهضوا واقفين فقال إبراهيم باشا « يا بك تفضل » ولم يذكر اسمه فتقدم موظف آخر اسمه حافظ فقال له إبراهيم أنا أريد « بحرى بك » فلما دنا منه قرب مجلسه وأجلسه وأمر الآخرين بالجلوس فبعد هذا الحادث صاروا يعاملون بحرى بك بالاجلال

ساوت حكومة محمد على بين الرعايا على مختلف الاديان والمذاهب ولم يكن قبلها يساوى بين المسلم والذمى وسوت بينهم بالضرائب والحقوق ولكنها كانت تكلف النصارى دفع الخراج مقابل تجنيد المسلمين

وكان التضييق على المسيحيين الافرنج شديداً فلا يستطيع واحد منهم التجول فى البلاد إذا لم يكن مرتديا بالملابس الوطنيه أو يحرسه الجند حتى أن انكلترا عينت المستر فلرين قنصلا لها فى دمشق فى سنة ٨٢٩ فلم يستطع دخول دمشق وأقام فى بيروت إلى أن احتل إبراهيم البلاد

وقيام حكومة محمد على فى سوريا مهد السبيل لنهضة علمية أدبية لأن تنظيماتها تطلبت اختيار المتنورين لادارة الاحكام والقيام بالاعمال القضائية

والمالية والادارية والكتابية وسهلت قدوم الافرنج من مرسلين وتجار وسواهم فأنشأوا المدارس

وأحدث إرسال طائفةمن الشبان لدرس الطب فى مصر واستخدام السوريين فى حكومة محمد على صلة أدبية دائمة بين الأمتين

أدخلت حكومة محمدعلى روحاً علمية فى البلاد فأنشأت محجراً صحيا فى بيروت والتلقيح ضد الجدرى واعتنت بالصحة وحفرت المصارف فى المدن لصرف المياه الزائدة والاوساخ واستخدمت المهندسين لانشاء الطرقات وسواها ونشطت حكومة محمد على الزراعة وغرس البساتين والكرمة والزيتون والتوت وتربية دود الحرير وحفرت المناجم كمنجم الفحم فى قرنايل وآخر فى بزبدين ومنجم الحديد فى مرجنا ثم زراعة قصب السكر والنيلة والبن ونشطت التجارة بتأمين طرق المواصلات

ومن حسنات حكومة محمد على إدخال مبادىء النظام فى الحكم وتوزيع السلطات الادارية والقضائية واختصاص كل هيئة منهما و إزالة الحكم المطلق وتعيين العدد الكبير من أبناء البلاد فى المناصب فمرنوا على طرق الحكم الجديدة وتأليف مجالس المشورة فى المدن فآلفوا الشورى ومد رواق المساواة وكان حكم محمد على أساساً « لخط كلخانة » الذى أصدره السلطان عبد المجيد بالمساواة بين رعاياه .

كذلك العمل على إقرار الامن فى نصابه فقبل حكومة محمدعلى كان حبل الامن مضطربا والاشقياء يعيثون فساداً والقبائل تغزو الحضر وكانت مكامن اللصوص على جميع الطرقات حتى ان المسافرين كانوا يضطرون أن يسيروا جماعات وهم شاكو السلاح للدفاع عن أنفسهم وأموالهم فألقت على عاتق رؤساء القبائل والعساكر وشيوخ البلاد تبعة مايقع فى دوائر نفوذهم

تلك بعض آثار حملة إبراهيم وحكم محمد على فى سوريا والشر الوحيد الذى وقع فى لبنان من آثارها تأصل العدوان بين الدروز والموارنة لأن الموارنة كانوا عونا لابراهيم باشا ضد الدروز فكانت العداوة الطائفية التى أفضت إلى المذابح وإلى انتهاء عهد الأمارة فى سنة ١٨٦٠ و ١٨٦٣ والاستعاضة عن الأمارة المتوارثة فى الامراء الشهابيين بتعيين متصرف نصرانى للبنان تقر الدول الست الكبرى تعيينه وينتخب الأهالى مجلس إدارة إلى جانبه ليقرر الميزانية والنفقات .

ولم ينس محمد على وابراهيم الامير بشير حليفهما الذى سافر إلى مالطة مع أسرته وبعد ٢١ يوماً من وصوله عينت له حكومة تلك الجزيرة قصراً فخما على بعد ثلاثة أميال من المدينة وقبل أن يخرج من الحجر الصحى وقبل أن يستقر به المقام أرسل اليه محمد على كتابا مع رسول رومى يقول له فيه أنا باق على محبتك وسأجعل مصالحتى كمصالحتك شفقة على شيخوختك وحفظا لودك . وكانت المراقبة شديدة على الامير فأرسل إلى الرسول الرومى كاتم سره بطرس كرامه فأعطاه صورة الكتاب ولما سأله عنه والى الجزيرة أطلعه عليه ولم يستطع أن يسلم الرسول رده على ذلك الكتاب إلى محمد على

وبعد إبرام الاتفاق بين الباب العالى ومحمد على أرسل السلطان عبد المجيد فرمانا إلى الامير بشير يخبره فيه بالاقامة فى إحدى جهات السلطنة ماعدا سوريا وأرسل اليه الصدر الاعظم رؤوف باشا كتابا رقيقا فاختار الاقامة فى استانبول حيث ظل إلى آخر حياته

الفصل السادس عشر

الخاتمة

بعد عودة جيش ابراهيم إلى مصر وزع محمد على هذا الجيش على أنحاء الوجه البحرى للاشتغال بزراعة القطن ولخفارة هذه الزراعة لأن الأهالى لم يكونوا قد ألفوها وكانوا يفضلون عليها زراعة الحبوب فكان دأبهم أن يقتلعوا ليلا البذور التى يزرعونها نهارا ، وكان ١٥٠٠ فلاح فرنساوى جاء بهم محمد على من فرنسا يعلمون الفلاحين زرع القطن وعين محمد على كل واحد من أولاده وأحفاده لرقابة مديرية ، فكان ابراهيم يرقب المنوفية ومحمد على ذاته اختص نفسه بالقليوبية ، وكانت لابراهيم مزارع خاصة يعنى بها كل العناية لينفق من دخلها على نفسه و بيته ، لأن محمداً علياً كان يعيش عيشة الأمراء القدماء فلا يعتمد على أموال الدولة للانفاق على نفسه حتى أجمع المؤرخون على أن نفقة قصوره ودوره لم تتجاوز فى سنة من السنين عشرين ألف جنيه ، واعتنى بعد الحروب بانشاء مصلحة لهندسة الرى و إنشاء القناطر وحفر الترع وتنظيم الصحة ومعالجة الفقراء مجاناً ، ووضع مشروع لانشاء مساكن للفلاحين وآخر لانشاء بنك وطنى وتجربة جميع أنواع النبات وحفر المصارف والاكثار من المدارس وكذلك ابراهيم ولى عهده كان يميل بطبعه إلى شظف العيش وابراهيم الذى ولد فى سنة ١٨٧٩ كان قائد القوات البرية كما كان أخوه سعيد باشا قائد الأسطول بعد أن صرف ثلاث سنين فى التمرن على أعمال البحرية وقد وصفه لنا أحد مؤرخيه من معاصريه فقال :

« كان ربعة القامة قوى العضلات واسع الصدر عريض المنكبين واسع العينين البراقتين رماديتى اللون مستطيل الوجه طروب إذا ضحك اهتزت أعضاء جسمه جميعا حتى يخيل إلى الناظر أن كل عضو من أعضائه يضحك وإذا هو غضب تحول بركاناً جمع البسالة والجود وما أضاع فى ساعة الشدة رباطة جأشه وكل ما اشتد الأمر عليه ازداد حلماً وسكوناً وما رآه أحد بعد النصر تأخذه نشوة الفخر بل يتملكه التفكير الطويل لما يلى ذلك ولما يمكن أن يليه ، كان يحب الزرع والنبات والشجر والغابات إلى حد الغرام فأكثر من ذلك فى سوريا ومصر وكان يكرر كلمة المملوك مراد بك « إذا طلبت فى مصر الذهب فانكش وجه أرضها » . وكان يتكلم التركية والعربية والفارسية ولكنه كان فخوراً بعربيته ومصريته ، نقل إلى التركية تاريخ نابوليون بعنوان « دفينى أسرار حكامى أوروبا » أى كنز أسرار حكام أوربا . وكان واسع الاطلاع فى تاريخ أمم الشرق .

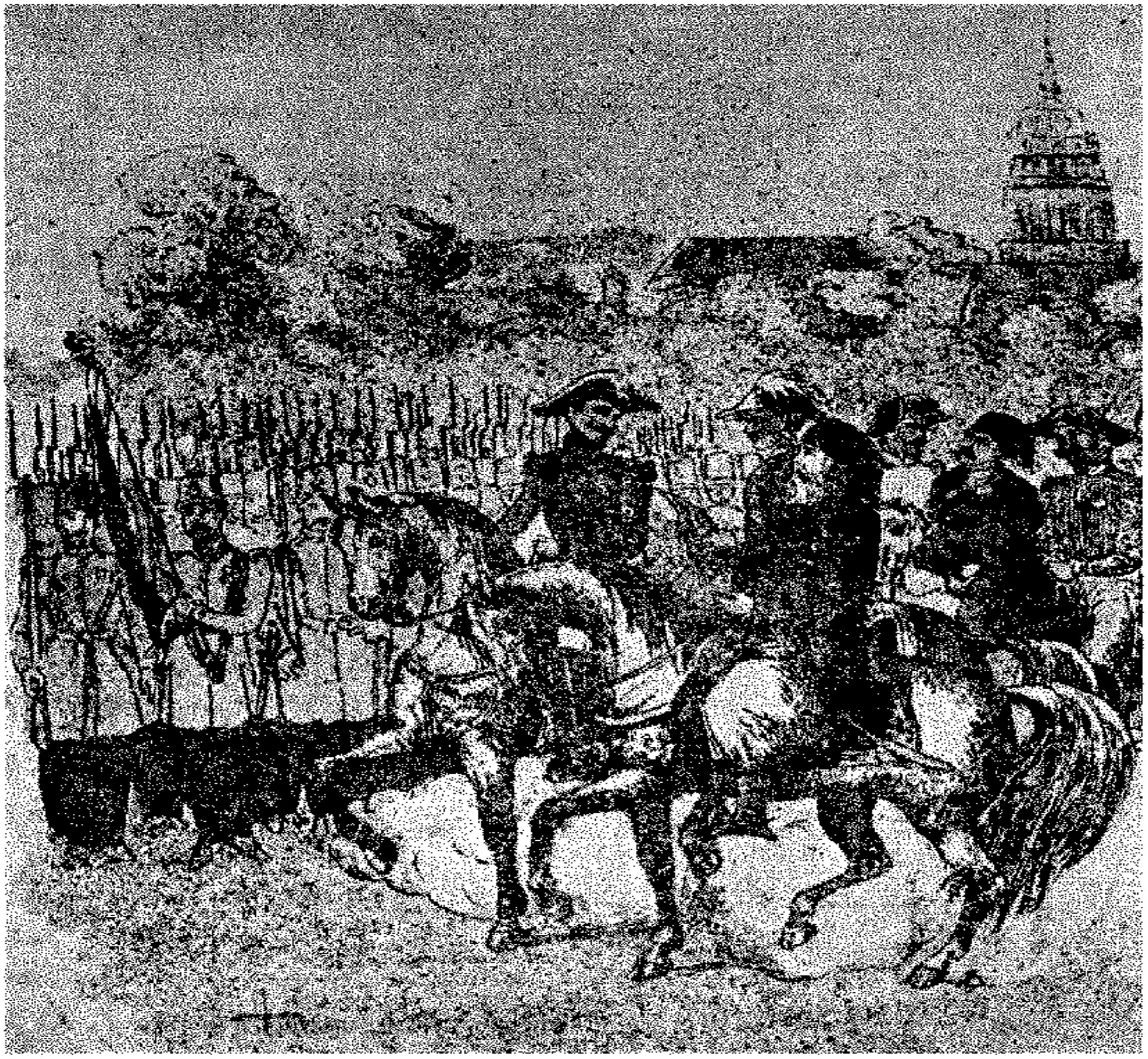
ولاه والده إدارة بعض المديريات وهو فى السادسة عشر من عمره فاكتسب خبرة واسعة فى الشؤون الادارية والأحكام ، وكان ابراهيم ، على مجده وعزته ، كأصغر الناس فى حضرة والده فإذا أقبل عليه لثم يده ولا يأخذ فى المجلس مكانه إلا إذا أمره ولا يدخن فى حضرته إلا إذا أباح له التدخين وكان محمد على يقابل ذلك بمثله فالألقاب التركية التى كان يلقب بها ابراهيم كأمير الحرمين الشريفين كانت تجعل له المقام الأول بين أمراء الدولة العثمانية فيقدم عليهم جميعاً والمفروض على هؤلاء ، إذا أقبل عليهم أمير الحرمين الشريفين ، أن ينهضوا إجلالا له فكان محمد على ، إذا أقبل ولده ابراهيم عليه ، انتظر دخوله واقفاً تعظيما لرتبته وأذن له بالسير معه فى الحفلات والتشريفات الرسمية سائراً

قبالته على صف معتدل ، وكان ابراهيم عماد الملك وقوام الأريكة وذراع محمد على اليمنى ورأسه المفكر » .

***

أرسله والده مع أخيه الأكبر إلى أوروبا فى سنة ١٨٤٦ لانحراف صحته فلما وصل خبر رحلته إلى الملوك والأمراء وجهوا اليه الدعوة وتلقى دعوة الملكة فكتوريا لزيارة انكلترا وهو فى توسكانا فى طريقه إلى فرنسا وكان استقباله فى توسكانا حافلا جداً ولما وصل إلى باريز كانت الحفاوة به فوق حد الوصف فعرض ثلاثين ألف جندى فى ميدان شان دى مارس وقالوا فى وصف ذلك العرض ان فرنسا لم تشهد مثلة بعد نابليون الأول وشهد العرض مع رجال الدولة ثمانية من أمراء البيت المالك وست من الأميرات فكان يوم ٢١ مايو سنة ١٨٤٦ يوماً مشهوداً فى عاصمة فرنسا .

وزار ما زار من معاهد فرنسا ـ كما يقول إدوار جوان ـ دار الضرب الفرنساوية ، فضربت بحضوره مدالية فاذا بها تمثل محمد على باشا ، وقد كتب تحت الصورة بالفرنساوية « محمد على مجدد مصر » ولزمه الدوق دى مونبانسيه الذى زار مصر فى سنة ١٨٤٥ ، ولقى كل إكرام ابراهيم باشا أبان زيارته فرنسا ودعاه لزيارة ميدان التمرينات العسكرية فى سان نامور . فذهب ابراهيم باشا إلى ذلك الميدان بمركبة ملكية ومعه الدوق دى نمور والبرنس دى جوانفيل وقدم له الجواد اللازم لركوبه فاذا به الجواد الذى ركبه فى معركة نصيبين وكان والده محمد على باشا قد أهداه فى سنة ١٨٤١ إلى ملك فرنسا مع ٩ جياد أخرى عربية أصيلة . قال الذين وصفوا يومئذ تلك الحفاوة بابراهيم باشا انه نظر إلى الجواد فأحس الحاضرون أن أعصابه ترتعد وأن الدمعة حائرة فى عينيه ولكنه وثب وثبة الأسد إلى ظهر ذلك الجواد الذى كان رفيقه فى معركة نصيبين وعرض من



ابراهيم باشا فى ميدان عرض الجيش الفرنسوى بباريس

مشوهى الحرب أمامه ٢٥٠٠ جندى وهم متقلدون سلاحهم وكانوا من جنود الحملة الفرنساوية فى مصر وأهدت إليه حكومة فرنسا يوم سفره وسام «اللاجيون دونور» ولكثرة إحساناته أطلقوا عليه لقب « البطل المحسن » وعند مغادرته باريز أعطى ١٢ ألف فرنك للفقراء .

وزار ابراهيم بعد ذلك لندن عاصمة الانجليز إجابة لدعوة الملكة فكتوريا فكانت الحفاوة به كبيرة ، وكانت الجماهير تتزاحم على طريقه لرؤية بطل

نصيبين وعرض أمامه هناك قسم من الأسطول والجيش وطاف بعض بلاد أسكتلندا ولما عزم على العودة إلى مصر بعد سفر والده إلى استامبول جعل طريقه على بلاد البرتغال حيث زار الملك والملكه ولقى كل حفاوة و إكرام وأهدى إليه الملك وسام البرج والسيف ومن هناك عاد إلى مصر .

وكان سليمان باشا الفرنساوى يرافق ابراهيم باشا فى رحلته الى أوربا وسليمان باشا أو الكولونل سيف هو صاحب الكلمة المشهورة « أحببت فى حياتى ثلاثة رجال وجعلت حبي لهم فوق كل حب : والدى ونابليون ومحمد على وقد مات الاثنان الأولان فانحصر حبي « بمحمد على » وكان محمد على يقول « سليمان ولد من أولادى لا يخرج من مصر إلا إذا خرج منها محمد على »

وقد كان لابراهيم ثلاثة أولاد احمد بك ولد سنة ١٨٢٥ واسماعيل بك (الخديوى اسماعيل) ولد فى سنة ١٨٢٨ ومصطفى بك ولد فى سنة ١٨٣٢ وكان له ولد رابع توفى طفلا وهو فى حجر إحدى الجوارى السود برفصة جارية بيضاء كانت قد وجهتها الى الجارية السوداء التى تحمل الطفل الذى ولد بعد حرب الوهابيين فحزن عليه ابراهيم حزنا شديدا . أما إخوة ابراهيم فهم :

سعيد باشا قومندان الأسطول المصرى ولد فى سنة ١٨٢٢ وحسين بك ولد فى سنة ١٨٢٥ وحليم فى سنة ١٨٢٦ وعلى ولد فى ١٨٢٩ واسكندر ولد فى ١٨٣١ ومحمد على ولد ١٨٣٣

وفى سنة ١٨٤٨ اشتد المرض والذهول على محمد على فذهب للسياحة فى أوربا وتولى ابراهيم أمر الحكم بموافقة الباب العالى ولكنه توفى فى شهر نوفمبر سنة ١٨٤٨ فتولى الأمر عباس بن طوسون بن محمد على وتوفى محمد على فى شهر أغسطس ١٨٤٩ وهو فى الثانية والثمانين من عمره و بحكمة محمد على و بسالة ابراهيم وذكائه وصلت مصر الى حكم نفسها وحكم السودان وانتهى عصر

الحروب والمعارك الذى بدأ فى سـنة **١٧٩٨** بنزول الحملة الفرنساوية فى مصر وتجدد فى سنة **١٨٠٧** بنزول الحملة الانكليزية ثم بالحروب مع تركيا ولولا تألب أوروبا على مصر لـكانت مصر الامبراطورية العظيمة الشان و يقول المسيو فرسينيه إذا كانت مصر لا تهدد بعد اتفاق **١٨٤١** توازن أوروبا ومن أجل هذا التوازن حكم عليها ذلك الحـكم القاسى بأن يعتبر الغالب مغلوبا والمغلوب غالبا كما قال رئيس وزارة انكلترا فى مجلس نوابهم ولـكن مصر لا تزال ولن تزال من مشاغل الأمم والشعوب

ذلك هو البطل الفاتح إبراهيم الذى قاد جيش مصر من نصر الى نصر ورفع علمها عاليا فى كل مكان من كريد الى البلقان ومن السودان الى اليمن ونجد والحجاز وسوريا والأناضول

الوثائق السياسية الرسمية

عن حرب سوريا ١٨٣٢ — ١٨٣٣

جمع الكومندان جورج دوين وطبعت الجمعية الجغرافية تحت رعاية جلالة الملك الوثائق السياسية الرسمية عن حرب سوريا فى سنة ١٨٣١ — ١٨٣٣ فى ثلاثة مجلدات ضخمة ، والمجلدان الأولان — وكل واحد منهما يقع فى نحو ٧٠٠ صفحة — يتضمنان الوثائق الفرنساوية من تقارير القناصل والسفراء ورجال البر والبحر والبلاغات الرسمية المصرية وأقوال الصحف الوسمية و بلاغات الحكومة المصرية الخ . ومايقوله و يعمله قناصل الدول الأخرى وسفراؤها وحكومة مصر وحكومة الباب العالى

والمجلد الثالث بقلم انجلو ساماركو فى الموضوع ذاته وهو يتضمن الوثائق السياسية الرسمية الطليانية وهذا المجلد هو المجلد الثامن للمؤلف ذاته عن حكم محمد على فى مصر وهو الحكم الذى يقول المؤرخ انه بدأ فى شهر يوليو من سنة ١٨٠٤ والمجلد الواحد يقع فى نحو ٣٠٠ صفحة

ولا مندوحة لنا عن شكر المسيو مونيه سكرتير الجمعية الذى تكرم علينا بهذه الوثائق التى استمددنا منها الكثير عند ما أخذنا باحياء ذكرى السنة المئة لفتح البطل الفاتح ابراهيم سوريا فتابعنا القراء فى مراجعة تلك الذكرى مع الفخر والاعجاب وذكرى البطولة والأبطال تشحذ الهمم وتنير البصائر وتوسع الأفق لعيون الناظرين الذين يتخذون من الماضى عبرة للحاضر ومن الحاضر سراجا هاديا للمستقبل وقد أحسنت الجمعية الجغرافية كل الاحسان بعنايتها بنشر هذه

الوثائق كلها فان التاريخ المصرى بأشد حاجة اليها ولأن هذا التاريخ مجهول ولأن الموجود منه قلما يستند الى وثيقة رسمية فهو « روايات الافراد » لم تمحص أما الآن — وهذه الوثائق تنشر تباعا — فلنا الأمل أن نتوصل بعناية جلالة الملك المعظم الذى وضع العمل تحت ظله ورعايته الى أن تكون لنا مكتبة تاريخية كاملة تحتوى على الوثائق الرسمية فيستمد منها الكاتبون والمؤرخون ويعرف منها المصريون التاريخ الصحيح لبلدهم ورجال هذا البلد

ولم يكن بالامكان الوصول الى هذه الغاية بغير عناية جلالة ملكنا وهمة المؤلفين المؤرخين العلماء كالقومندان دوين صاحب المؤلفات الشهيرة عن مصر والبحر المتوسط وحملة بونابرت وأسطول محمد على ومصر المستقلة والبعثة الفرنساوية العسكرية فى جيش محمد على ومهمة البارون بواليكنت عند محمد على (١٨٣٣) وانكلترا فى مصر (١٨٠٧) ومحمد على وحملة الجزائر (١٨٢٩ — ١٨٣٠) وانكلترا ومصر وسياسة المماليك (١٨٠٣ — ١٨٠٧) وقد راعى الكومندان دوين فى نشر الوثائق أن يصدر كل فصل بخلاصة تاريخية يجمل الوثائق وفصولها سنداً لها

ولا مندوحة لنا فى هذا المقام عن التنويه بفضل حضرة صاحب السعادة أمين سامى باشا صاحب تقويم النيل فقد جمع فى المجلدات الثلاثة المتقنة التى أصدرها وثائق رسمية ذات قيمة كبيرة يستطيع الكاتب أن يرجع اليها وأن يعتمد عليها فى تدوين تاريخ حياة مصر التى جددها ذلك الرجل النابغة محمد على سواء كان غرض الكاتب أن يراجع تاريخ المدارس أو الصنائع أو الحروب أو الفتح أو الزراعة أو أى فرع من فروع الحياة

على ان « الدفترخانة » المصرية لا تزال طافحة غاصة بمثل هذه الوثائق التى

لم تترجم وأكثرها باللغة التركية القديمة وهذه اللغة تزول الآن وتضمحل وتحل محلها اللغة الحديثة لا بصور الحروف فقط بل بالتعبيرات التى تنقل عن الافرنجية واذا كانت وزارة المالية تستخدم بعض المترجمين فان عددهم قليل لا يكفى للقيام بهذه المهمة . والحجة بقلة المال حجة غير قائمة لأن النفقة قليلة والفائدة من وراء ذلك كبيرة جزيلة وهذه الفائدة التى يمكننا الوصول اليها اليوم قد تفوتنا غدا للسبب الذى بسطناه فالمأمول بوزارة المالية ألا تضن بالمال القليل لاستخراج تلك الكنوز من كنانها

تعليقات

نشر تحت هذا العنوان ما علق به بعض القراء على فصول هذا الكتاب

حسب التواريخ التي وردت فيها يوم نشرها :

تصحيح تاريخي

جاء في العدد ٦٩٨١ من « الاهرام » في سياق ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا ان المرحوم ابراهيم باشا قال للمرحوم رشيد باشا .

« إن السلطان محمد الفاتح ارتقى على العرش وهو في السابعة من عمره »

والحقيقة أن الذي ارتقى على العرش من سلاطين آل عثمان في السنة السابعة من عمره هو السلطان محمد الرابع بعد خلع وقتل والده السلطان ابراهيم .

أما الفاتح وهو السلطان محمد الثاني فقد جلس على العرش في المرة الأولى بعد تنازل والده السلطان مراد الثاني وعمره أربع عشرة سنة وبعد ذلك عاد والده وتسلم العرش إلى أن توفى فعاد الملك لمحمد الثاني وعمره إحدى وعشرون سنة وبعد نحو سنة من جلوسه على العرش فتح القسطنطينية وأخذ اسم ولقب الفاتح حتى أن كلمة الفاتح وحدها تعني عند الاتراك محمد الثاني ابن مراد الثاني

دكتور علي حلمي
مدير القسم الطبي بالسجون سابقاً

الاهرام — لم يكن من حقنا التغيير لنص الحديث فأوردناه كما هو :

البطل الفاتح ابراهيم والشعراء

عزيزي . . .

بمناسبة نشر تاريخ حروب ابراهيم باشا في سوريا وآسيا الصغرى وما أظهره من المقدرة الحربية والبسالة يلذ به ،ؤرخو رجال الحرب الانكليز بطل قونيه وترب

ولدى انتصاراته العظيمة فى سوريا أتذكر هذه الأبيات من قصيدة نظمها بطرس كرامه شاعر الأمير بشير وكاتم سره يمدح بها البطل ابراهيم باشا قال :

عرج أخا البأساء نحو بنى العلا   والثم ثرى أعتابهم متذللا
وابسط أكف رجاء كسرك عندهم   واجر الدموع على الخدود توسلا
ودع التعجب من شجاعة من مضى   من قبل واترك عنترا ومهلهلا
وزن الرجال فان فى أفرادها   من لايزان بألف ليث فى الملا
لو قيل ابراهيم جاء محاربا   سقطوا ولو كان الكلام تقولا
فى عدله ترعى الضوارى والظبا   وبحلمه أضحى الزمان مجملا

ومنها يصف بسالته .

لو شام حر لهيبها اسكندر   لا ندك محكم سده (١) وتفصلا

وفى الأخير :

من خبر الأتراك أن جيوشهم   كسرت وأن حسينهم ولى إلى
هل يغلب الأسد المجرب ثعلب   مهما استعان بحيلة وتحيلا

ومنها يظهر للملأ تعلق السوريين بابراهيم باشا وإعجابهم بشجاعة وبسالة جنوده المصريين . كذلك أتذكر أغنية سمعتها من بعضهم رووها عن آبائهم الذين كانوا متجندين مع جنود ابراهيم باشا من السوريين كانوا ينشدونها أثناء سيرهم :

هيا بنا هيا بنا   للحرب نلقى ضدنا
نحن السيوف الباترة   نحن الأسود الكاسرة
من أرض مصر القاهرة   جئنا وقد نلنا المنى
بارودنا شراره   يشوى الوجوه ناره
وعزمنا بتاره   من العدا تمكننا

هذا ما رغبت أن أذكره لكم كأثر تاريخى مع إعجابى بما خطه قلمكم عن هذا الفاتح العظيم والقائد العسكرى الكبير

اسكندر حداد

الأهرام — إن الشعراء الذين نظموا القصائد فى ابراهيم باشا وأعماله كثيرون كذلك القصيد الذى كان ينظمه العامة

---

(١) السد الذى بناه الاسكندر لافتتاح مدينة صور

أمين الجندى
لابطرس كرامة

حضرة صاحب الأهرام

إن مانشرتموه من قلم اسكندر افندى الحداد فى عدد « أول ابريل » عن بطرس كرامة و ابراهيم باشا، هو خلاف المقرر عندنا فان القصيدة التى مطلعها .

عرج أخا البأساء نحو بنى العلى والثم ثرى أعتابهم متذللا

هى على مانعلم من نظم الشيخ أمين الجندى الشاعر الحمصى المعروف . وهى محفوظة عند أحفاده من عهده وقد قرأتها خطا من ٤٨ سنة وهى قصيدة طويلة عرض بها الشيخ أمين الجندى بالترك تعريضاً لم يلمسه قلم بطرس ابراهيم كرامة

وقد قدم الشيخ أمين هذه القصيدة لابراهيم باشا على أثر كسره الجيوش العثمانية فى ميدان المشرع غربى حمص وهى واقعة فاصلة — فى سوريه — بين الجيوش التركية والجيوش المصرية . ولم يصب الشيخ أمين ضرر من جراء نظم هذه القصيدة لما تقلص ظل الدولة المصرية عن ربوع الشام . وذلك نظراً لما لأسرة الجندى من المكانة فى البلاد فقد كانوا حكام البلاد ، وكان أسلافهم يقتطعونها اقطاعاً كما فى عهد الاقطاع فى أوربا . لهذا السبب كان الشيخ أمين شاعر ال جندى وشاعر الحمصيين قبل ابراهيم الحورانى فى مأمن من غائلة الترك . وبهذه المناسبة أذكر ما كان أجدادنا وجداتنا يملونه علينا من السمر فى ليالى الشتاء عن المعارك التى خاض ابراهيم باشا غمارها فى تلك الربوع . وعن أحكامه فى حمص وإنشاءاته الكبيرة التى رأيناها رأى العين ، وبعض أجدادنا شهد معاركه وخدم فى جيشه ، وقد الفنا ذلك منذ نعومة الأظفار . وكانوا يمدحون حكمه كثيراً .

مصر حنا خباز

روفائيل فارحى

الملقب بالصراف

نتجرأ أن نلفت أنظار حضرتكم إلى ما يأتى : قد سردتم فى أحد فصول ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا التى تنشر تباعا بالأهرام الأغر أسماء الأعضاء الذين انتخبوا لتأليف ديوان المشورة بدمشق الشام مع بيان أسمائهم وألقابهم فرداً فردا ، وقد اكتفيتم بذكر اسم الخواجه روفائيل الصراف المنتدب عن الطائفة الاسرائيلية مع أن الموما إليه هو عميد العائلة الفارحية والمعروف بالمعلم روفائيل فارحى وهو الذى كانت بعهدته آنئذ مالية ولاية سوريا ، وكان معيناً لأجلها من لدن حكومة ساكن الجنان السلطان محمود

خضر متلون

ذكرى البطل ابراهيم

سيدى رئيس تحرير جريدة الاهرام الغراء

بمناسبة ماجاء فى مقالكم الرابع تحت عنوان — منذ مئة سنة (البطل الفاتح ابراهيم وفتحه الشام) — المنشور بعدد ٢٢ فبراير وتولية المغفور له السيد محمد شريف باشا والى ألوية الشام رأيت انصافا للتاريخ أن أذكر شيئا عنه فلقد لعب دورا خطيرا مع البطل الفاتح المغفور له ابراهيم باشا

بعد أن استتب الأمر لابراهيم باشا فى سوريا ثلاث سنوات طلب من الأمير بشير الشهابى الكبير حاكم لبنان ان يجند من دروز ولايتـه ألفا وستمائة لينتظموا فى سلك الجند النظامى المصرى وكان ابراهيم باشا يظن ان التجنيد فى سوريا كالتجنيد فى مصر ولـكنه أخطأ الظن لأن السوريين كانوا بعيدين عن التجنيد القانونى لأنهم استعاضوا عنه بشهود الحرب بأنفسهم عند ما يستصرخهم حكامهم

فجمع الأمير بشير زعماء الدروز وأراهم أمر ابراهيم باشا لتجنيد الشبان من ابن خمس عشرة إلى خمس وعشرين وألح عليهم بالطاعة فأبوا جميعاً فتوسط فى الأمر مع ابراهيم باشا فلم يفلح بل ألحف وقدم بعشرة آلاف جندى إلى بيت الدين

فاضطر الأمر إلى جمع ألف ومائتى شاب من الدروز وأرسلهم إلى عكا جبراً فانتظموا فى الجيش المصرى وأرسل بعضهم إلى المدارس الحربية فى مصر.

فأوغر ذلك صدور الحورانيين الدروز وغيرهم وأوجسوا خيفة وتحفزوا للمناوأة إذا طلب منهم مثل ذلك إلى أن جاءت سنة ١٨٣٥ فكتب ابراهيم باشا إلى السيد محمد شريف باشا والى دمشق يأمر بتجنيد الدروز فى حوران كما جندوا فى لبنان وألح عليه

فاستقدم شريف باشا شيوخ حوران وفى مقدمتهم زعيمهم الأكبر الشيخ يحيى حمدان وتفاوضوا بذلك فى مجلس عقد لهم فأبوا فأخذ ينصحهم بالاخلاد إلى الطاعة لأنها أفضل من العصيان. فأشار اليه الشيخ يحيى حمدان أن يستبدل التجنيد بمال لأن الشبان يردون غارات العرب عنهم وأن يخاطب بذلك ابراهيم باشا واظهر حدة فى الكلام فقابله شريف باشا بصفعه على وجهه. فكظم غيظه وأظهر الطاعة مرغما وذهب مع رجاله وهم يرغون ويزبدون من هذه الاهانة. فلما وصلو الجبل وأوقفوا الشيوخ على ماجرى أجمعوا على العصيان وأعلنوا الثورة بموافقة رئيسهم الروحى الشيخ ابراهيم الهجرى وكان شيخ نجران حسين ابو عساف أول من جاهر بايقاد الثورة. ولذلك فاوضوا عرب السلوط المخيمة عندهم لمساعدتهم فجمعوا ألف رجل منهم ومائتين من العرب ليقاوموا التجنيد فبلغ ذلك شريف باشا وابراهيم باشا فتأهبا لتجنيد الدروز غصبا

فأرسل ابراهيم باشا جندا من الهوارة والصعايدة بقيادة على أغا البيصلى أبو الرجيلى يصحبه عبد القادر أغا أبو حبيب الدمشقى متسلم حوران وجبل الدروز فجمعوا الشيوخ وطلبوا منهم تسليم الشبان للتجنيد فأبوا وخرجوا عازمين على الحرب

ففاجأ الدروز عسكر ابراهيم باشا فى محلة « التعلة » وكان نحو أربعمائة فارس وقتلوهم إلا القائد فانه نجا مع بعض الفرسان فتعقبهم ابراهيم الأطرش عم اسماعيل جد الطرشان وشبلى أغا العريان زعيم دروز راشيا الذى تقدم لذلك القصد وفندى عاصر. والعاصريون هم بعد الطرشان فى المنزلة. فقتل ابراهيم الأطرش والمتسلم أبو حبيب فى هذه المناوشة فاشتد الدروز إصرارا على المقاومة

ولما نما خبر هذا العصيان إلى ابراهيم باشا قرر محاربة الدروز . وكان الدروز قد أعدوا عدتهم للمحاربة والدفاع عن جبلهم الحصين بمعاقله الطبيعية وحفظ استقلالهم الذى كانت صخور جبال حوران تساعدهم عليه لوعورة مسالكها ومشقة قطعها فانضم اليهم بعض اللبنانيين سكان وادى التيم وإقليم البلان الذين راسلوهم بإيقاد النيران باشارات خاصة على عاداتهم . وهكذا كانت مقدمات الحرب التى بقيت تسعة أشهر مشتعلة الضرام قتل فيها الكثير من الفريقين

وما أمكن ابراهيم باشا التغلب عليهم حتى قدم بنفسه على رأس عشرين ألفا من الأرناؤوط والأكراد والأتراك وحاصر الجبل وضيق عليهم الخناق ولكنهم لم يخافوا بل هاجموا عسكره بقيادة زعيمهم حسين درويش فشتتوا شمله واستولوا على الذخائر والمدافع والمؤن والبنادق وأسروا أربعة قواد كبار وعشرين ضابطا

فصار ابراهيم باشا يعود المرة بعد الأخرى إلى نهب قراهم وتدميرها والتنكيل بهم مع المحافظة على الأطفال والنساء والشيوخ فضايقهم كثيرا حتى ارتأوا تحويل الحرب إلى وادى التيم وما يجاوره لتفريق شمل الجيش المصرى وإرهاقه . بعد أن ثار عليه شمالى سوريا واضطر لمحاربة العثمانيين فيه . فلما ضاق ذرع الدروز فى حوران لا سيما بعد نفاد المؤن عزموا على تحويل الحرب إلى وادى التيم وإقليم البلان فأرسلوا شبلى العريان اليها ليلهى شريف باشا عنهم ولكن ابراهيم باشا فطن لذلك فأرسل اليهم الأمير مسعود ابن الأمير خليل الشهابى ابن الأمير بشير الكبير فأخمد ثورتهم وعاد إلى لبنان ظافرا

وفى يوم الخميس ٧ تموز تسلم ابراهيم باشا اللجاه من الدروز وأخذ ينظم شؤونه. وفى ١١ منه عاد إلى دمشق ودخلها باحتفال عظيم .

ولما عاد السيد محمد شريف باشا إلى مصر لتولى منصب مدير المالية فى عهد المغفور له محمد على باشا — وهو أول مدير للمالية وكان ذلك فى سنة ١٨٤١ — استصحب معه قرينته المرحومة فاطمة هانم العظم من آل العظم الامجاد بسوريا والتى توفيت بمصر بعد أن أسست الجامع المعروف باسم « جامع الشامية » بشارع الدواوين أمام وزارة الداخلية الآن

وقد توفى إلى رحمة ربه المغفور له السيد محمدشريف باشا فى سنة ١٢٨٠ هجرية ودفن بجوار مدافن العائلة المالكة بقرافة الإمام الشافعى رضى الله عنه .

هذا ما أردت ذكره انصافا للحقيقة والتاريخ .

مصر — باب البحر　　　　　　عطيه على شلبى

الجيش المصرى فى حرب القريم

لسمو الأمير عمر طوسون

الأسكندرية فى ١٢ ابريل — لمراسل الأهرام الخاص — كان للمقالات المنسلسلة التى نشرتها الأهرام أولا عن الثورة العرابية ثم عن البطل الفاتح ابراهيم باشا وفتحه لسوريا والأناضول فائدة جلى عند جمهور من القراء ممن لم يكن يتيسر لهم قراءة تلك الذكريات التاريخية المجيدة مجموعة منسقة بالشكل الذى أبرزها فيه كاتبها البليغ على صفحات الأهرام .

وكان فى مقدمة المهتمين بهذه المقالات حضرة صاحب السمو الأمير الجليل عمر طوسون وهو كما يعرف الجميع من كبار الباحثين فى تاريخ مصر الحديثة ويميل إلى ابراز ما انطوى من ذكر المآثر المصرية فى هذا التاريخ وغيره .

وقد كتب سموه أخيراً لمناسبة الذكريات التى تنشر فى الأهرام مقالا طويلا جزيل الفائدة عن الجيش المصرى فى حرب القريم وهو عبارة عن صفحة مجيدة من تاريخ مصر يبرز فيها اشتراك جيش مصر البرى والبحرى فى حرب سيباستوبول بين سنتى ١٨٥٣ و ١٨٥٥

وهذا الاشتراك كما يقول سموه لا يعلم به فى أيامنا هذه إلا العدد القليل من المصريين ، لذلك رأى من الخير والفائدة أن يبين بايجاز قصته ولا سيما أن ذلك العمل الحربى المجيد كانت له نهاية مشرفة للجنود المصرية .

وسيتحف الأمير الجليل قراء الأهرام بهذا المقال الممتع بعد أن تتم مقالات ذكرى الفاتح ابراهيم باشا

ذكرى البطل ابراهيم

جاء فى تعليق الاديب عطيه على شلبي على ثورة حوران التى وردت فى احدى مقالات «الاهرام» الخاصة بالبطل ابراهيم باشا أن ابراهيم باشا أرسل إلى الحورانبين الدروز قوة من الهوارة والصعايدة بقيادة على اغا البيصلى اوالرحبلى الخ

وتصحيحاً لاسم هذا القائد اذكر ان اسمه الحقيقى على اغا البصيلى نسبة الى بلدة البصيلية مركز ادفو باسوان ويذكر بهذه المناسبة ان هذا القائد كان من القواد العظام المعروفين بالشجاعة وبعد النظر وقد اكبر فيه المغفور له ابراهيم باشا هده الصفات فاستصحبه معه فى السودان وفى حروب الشام وكان يعول عليه كثيرا .

والمرحوم على اغا البصيلى هو جد حضرة صاحب السعادة هرون سليم باشا مدير الدقهلية من جهة والدته

هذا بعض ما عن لى ذكره بهذه المناسبة ارجو نشره للحقيقة والتاريخ

مؤرخ

اقتراح

حضرة رئيس تحرير جريدة الاهرام الغراء

قد تتبعت باهتمام كبير مقالاتكم الافتتاحية بخصوص اعمال البطل والفاتح العظيم «ابراهيم باشا» مما جعل الجميع يعجبون ببسالته ويذكرون أعماله المجيدة الخالدة بالفخر والاجلال .

ولى اقتراح متواضع لعله يحوز قبولا من أولى الامر وخصوصا صاحب الدولة المجدد الكبير ورجل الساعة فى مصر صدقى باشا

أما الاقتراح فهو تسمية الميدان الذى يوجد فيه تمثال البطل الكبير بميدان «ابراهيم باشا» وكذا تسمية شارع كامل باسمه وذلك لسببين وجيهين

١ — لان كاملا المسمى باسمه الشارع لا ذكرى له فى تاريخ مصر ولا أهمية له بخلاف البطل الكبير والد المغفور له الخديوى اسماعيل باشا وجد جلالة المليك المحبوب

٢ — لأن أغلب الناس وخصوصا العامة منهم يسمون التمثال المقام للبطل العظيم بابى أصبع وذلك لجهلهم معرفة صاحبه وعندما يسمى الميدان والشارع باسمه تبطل هذه التسمية غير اللائقة بالفاتح الكبير.

ولهذا كتبت هذه الكلمة ولى الامل الكبير انكم لاهتمامكم بسيرة البطل العظيم ابراهيم باشا تحبذونها وتطلبون من الحكومة تنفيذها

وانى اعبر عن رغبة كثير من شباب مصر لحبهم لشبل محمد على العظيم منشىء مصر الحديثة وجد صاحب الجلالة المليك المعظم حفظه الله

ملازم اول حكيم تناغو

اشقودرة واسكدار

قرأت فى المقال العاشر من مقالات ذكرى فتح سوريا والأناضول التى تنشرها « الاهرام » تباعا مدبجة بيراعة رئيس تحريرها المفضال قول ساكن الجنان محمد على باشا لقناصل الدول عقب تدخلهن لمنع الجيش المصرى من مواصلة الزحف إلى الاستانة : « إذا ظل الباب العالى على المطل والتسويف ولا قوه تمنع ابنى من الوصول إلى اشقودرة . . . » الخ فلم تمر بى حينما وقع نظرى على كلمة « اشقودرة » خلجة شك فى أن ورودها بهذا الاسم كان سهوة من سهوات القلم فى مثل هذا الموضوع الذى لم يتناوله الكاتبون بالبحث والتمحيص من قبل

فليست اشقودرة هى البلد الذى فاه محمد على باسمه فى حديثه مع اولئك القناصل لأنها من بلاد الدولة العثمانية البائدة فى غرب تركية أوربا حيث كان يتألف منها مع ولايتى قوصوة ويانيا قبل الحرب البلقانية الأخيرة بلاد البانيا والمعروف أن الطريق بين معسكر الجيش المصرى فى اطنة وبين أشقودرة يمر بالاستانة فاذا بلغها وقضى لبانته من فتحها . فما الذى يضطره الى تركها من ورائه للزحف على اشقودرة وهو مالا تدعوه اليه حاجته بعد سقوط البلاد كلها فى قبضته باستيلائه على عاصمتها

يبقى اذن أن يكون اسم البلد الذى فاه به محمد على فى حديثه مع قناصل الدول هو اسكدار لا اشقودرة فان اسكدار (كريزوبوليس القديمة) قائمة على الساحل الأسيوى من البسفور تجاه الاستانة والمرور فيها ضربة لزام على من يبغى دخول

الاستانة ذاتها لأنها منها كالعتبة من الدار واذا خلط الكاتب بين الاسمين اسكدار واشقوردة فما هو إلا لأن البلدتين (اشقوردة القائمة على البحيرة المعروفة بهذا الاسم فى البانيا واسكدار الماثلة أمام الاستانة فى بر آسيا) يطلق الفرنجة عليهما اسما واحدا هو Scutari بلا تمييز لفظى لاحداهما عن الاخرى .

فعسى ان يلاحظ المفضال كاتب تلك الفصول الممتعة تصحيح ذلك الاسم عند طبعها فى مجلد واحد

محمد مسعود

ذكرى ابراهيم باشا

كلمة « الأهرام »

اليوم تحتفل الحكومة المصرية بل الامة المصرية وعلى رأسها جلالة صاحب العرش ، الملك فؤاد الأول ، أيده الله بروحه وأيد به عرشه وعرش أجداده العظام بذكرى ، السنة المئة لفتح البطل ابراهيم حصن عكا فى ٢٧ مايو سنة ١٨٣٢ . وحصن عكا هو مفتاح البلاد السورية كلها عاد عنه نابوليون بعد حصار طويل ، وامتلكه ابراهيم بعد حصار دام من ٢ نوفمبر سنة ١٨٣١ الى ٢٧ مايو سنة ١٨٣٢ وكان ابراهيم ابان الحصار يخضع المدائن والامصار وينظم الشؤون ويبسط القانون والنظام فلم يكن ابراهيم فاتحا عسكريا بل كان مصلحا اداريا ينبت العشب تحت أقدام جواده وينبثق الخير من ظل يديه ويروق رواق العدل حيثما حل وحكم ، فلم يحمل من مصر الى الاقطار والامصار التى خضعت لقوته ولحكم والده سلطة الرهبة والترهيب بل حمل اليها أحدث انظمة العمران والحضارة والتعليم والتهذيب والاخاء عاملا بأمر والده اليه « أنت رجل تعامل الناس حيثما حللت معاملة الرجال »

اليوم وحكومة البلاد تحتفل بذكرى السنة المئة لفتح البطل المصرى عكا وعاصمة البلاد تتالب للاحتفال بذكرى هذا البطل الفاتح المصلح أمام تمثاله يتاح « للاهرام » التى تقدمت باحياء ذكرى السنة المئة افتتحه سوريا والاناضول وبسطت فضله وفضائله ونبوغه وعبقريته وشجاعته وبسالته واصلاحاته أن تفخر بأنها أدت له حقه المقدس وان أعاظم رجال الدولة يؤدون له اليوم هذا الحق ويخيل الينا أن

أبا مصر ومجدد شبابها محمد على ليطل على حفيده الملك فؤاد المحتفل بذكرى جده البطل الفاتح والفاتح المصلح قرير العين كاطلاله من جامع الغورية على ابنه ابراهيم بعد فتح الدرعية عاصمة الوهابيين ودخوله العاصمة بموكب حافل من باب النصر وعلى رأسه الطلخان السليمى وقد أرخى لحيته فدمعت عينا ذلك الاب العظيم دمعة الفرح وسار وراء ذلك الموكب الفخم حتى القلعة وهناك تلقى هو ذاته ولى عهده الذى غادر مصر وهو دفتردارها ومفتش ادارة أقاليمها ورئيس مجلس شوراها فعاد وهو والى جدة وخادم الحرمين الشريفين وفاتح الدرعية وبلاد العرب حتى خليج فارس - ولما يتم الثامنة والعشرين .

أجل فى ذلك اليوم العظيم الشان فى تاريخ مصر دمعت عينا محمد على دمعتين احداهما دمعة الحزن على طوسون فاتح المدينة وقد توفاه الله فى شرخ الشباب والثانية دمعة الفرح للبطل الذى أتم عمل اخيه واهتز العالمان الغربى والشرقى لعمله ولما انتظر هذان العالمان من وراء ذلك العمل وقد وقع ما انتظراه اليوم ليضع جلالة الملك فؤاد اكليل الغار والورد على تمثال جده البطل الفاتح تذكارا لفتح حصن عكا فى ٢ مايو سنة ١٨٣٢ ولكأنما هذا الاكليل يتناول ذكريات جليلة لا تقل عظمة ومجدا :

يتناول ذكرى فتح الدرعية عاصمة الوهابيين فى ١٥ ديسمبر سنة ١٨١٨ وذكرى وصوله الى القاهرة فى ٩ ديسمبر فدامت الافراح فى طول البلاد وعرضها اسبوعا كاملا

وذكرى اكتشافه النيل الابيض الذى سمى باسمه فى سنة ١٨٢١

وذكرى استيلائه فى ١١ مايو سنة ١٨٢٥ على حصن نافارين فى بلاد الموره

وذكرى استيلائه فى ٢٣ يونيو على تريبوليزا عاصمة الموره

وذكرى استيلائه فى ٢٢ ابريل سنة ١٨٢٦ على قلعة مسولونغى

وذكرى فتح دمشق فى ١٦ يونيو سنة ١٨٣٢

وذكرى ١٨ يوليو بفتح حمص والانتصار على الباشاوات العشرة

وذكرى ٢٩ يوليو بفتح مضيق بيلان والانتصار على جيش السر عسكر

وذكرى معركة قونيه فى ٢١ ديسمبر

بل ذكرى اكبر معركة فى حروب ذلك الزمن وهى معركة نصيبين فى ٣٠ مايو سنة ١٨٣٩

هذه الذكريات جميعا وقد بسطت « الاهرام » أطوارها للقراء قد تجتمع اليوم بذكرى فتح عكا فى ٢٧ مايو

وفى فتح عكا كان ابراهيم مثله فى كل فتح آخر يقرن البطولة بالرجولية والعفو عند المقدرة فقبل أن يقرر الهجوم على الحصن أرسل إلى عبد الله باشا والى عكا يدعوه للتسليم فأبى فأمر بالهجوم فى صباح ذاك اليوم ولما رأى شدة دفاع الحامية وتقهقر فريق من الهاجمين شهر سيفه وتقدمهم فتحمس الجنود وظلوا يقاتلون ويدخلون ثغرات الحصن حتى إذا مادنا المساء تقدم إلى ابراهيم باشا وفد من أعيان المدينة يعلن تسليمها وتلاه وفد آخر من قواد المدافع وآخر من العلماء يطلبون العفو عن رجال الحامية فعفا ابراهيم باشا عن أرواحهم وأموالهم وأبقى لهم سلاحهم وضمن لعبد الله باشا حياته وراحته وعند منتصف الليل وصل عبد الله باشا إلى خيمة ابراهيم باشا مع الأميرالاى سليم بك فقابله بالاجلال وبما يقابل به الوزراء ثم ركب معه الى قصر البهجة الخ . وفى ٢٩ مايو سافر عبد الله باشا إلى مصر فأرسل محمد على لركوبه زورقه الخاص وأمر باطلاق المدافع تحية له وخصص له داراً خاصة ولما جاء القاهرة أنزل فى قصر بالروضة

وهكذا يعامل الأبطال الأبطال وهكذا يعيش الأحياء بموتاهم

ولما وصل خبر استيلاء ابراهيم باشا على عكا أمر محمد على بأن تقام الأفراح ثلاثة أيام كأيام الأعياد الكبيرة وبأن تطلق مدافع القلاع والبنادر ثلاث مرات فى كل يوم من الايام الثلاثة وبأن يعلن ذلك لجميع انحاء البلاد ولكل واحد من أمراء محمد على وبأن يعفى عن المسجونين والمنفيين فى أبى قير ماعدا القاتل وقاطع الطريق وذلك اجابة لطلب القائد العام ابراهيم باشا

في حصار عكا

كلمة لسمو الأمير عمر طوسون

الاسكندرية فى ٢٦ مايو : لمراسل الاهرام الخاص — لقد اشتهر من مزايا سمو الامير الجليل عمر طوسون أنه فخور بأجداده العظام ومآثرهم ومطلع على جميع أعمالهم وتفاصيل تاريخهم المجيد الذى هو تاريخ مصر كلها من عهد مجددها

ساكن الجنان محمد على . وقد رأى الجمهور كثيرا من مباحث سموه الدالة على ذلك

وقد أتحفنا سموه اليوم بمناسبة عزم الحكومة على الاحتفال بذكرى ابراهيم باشا ومرور مئة عام على فتح عكا — بكلمة عن القوات المصرية التى دخلت عكا عند فتحها تزيد تلك الذكرى تمجيدا

ويقترح الامير الجليل أن يلبس الجنود الذين يحضرون الحفلة ملابس اسلافهم فى أيام ذلك الفتح . واليكم كلمة سموه :

يجدر بنا وقد صحت عزيمة الحكومة المصرية على الاحتفال غدا بذكرى مرور مائة عام على فتح عكا وذكرى فاتحها العظيم ، بطل مصر ساكن الجنان ابراهيم باشا بميدان الأوبرا بالقاهرة أن نذكر وحدات الجيش التى حاصرت حصن عكا العظيم ودخلته فاتحة منصورة بقيادة هذا الفاتح الأكبر الذى تفتخر به مصر اليوم بحق وتجدد ذكراه الخالدة بهذا الاحتفال الرائع

وانا نذكرها نقلا عن كدلمين وبارده وهى .

آلايات المشاة : آلاى الحرس

آلاى الحرس

الآلاى رقم (٢)

» » (٥)

» » (٨)

» » (١٠)

» » (١١)

» » (١٢)

» » (١٣)

» » (١٨)

آلايات الفرسان :

الآلاى رقم (٢)

» » (٣)

» » (٤)

» » (٥)

الآلاى رقم (٦)
« « (٧)
« « (٨)

ومجموع هاتين القوتين هو ٢٤ ألف جندى تقريباً غير جنود المدفعية

وقد ضربت حصون عكا تسع سفن من الاسطول المصرى الذى كان يحاصرها والذى كان مؤلفا من ست عشرة سفينة حربية و سبع عشرة سفينة نقل . وكان قائد هذا الاسطول أمير البحر عثمان نور الدين باشا

أما التسع السفن التى ضربت هذه الحصون فكان بها ٤٨٤ مدفعا و ٣٨١٠ من الجنود البحريين

وهذه اسماؤها :

اسم السفينة	اسم القائد
الفرقاطة الجعفرية	برغمه لى احمد قبودان وكان عليها علم أمير البحر عثمان نور الدين باشا
« البحيرة	عبد اللطيف قبودان وكان عليها علم الامير الثانى لهذا الاسطول
	مصطفى مطوش بك
« كفر الشيخ	برسك الانكليزى
« رشيد	السيد على قبودان
« شير جهاد	نورى قبودان
« مفتاح جهاد	مصطفى قبودان الجزائرى
« دمياط	هدايت محمد قبودان
القرويت بمبه	بيجان قبودان
« رهبر جهاد	على رشيد قبودان الجزائرى

ومما ينبغي ذكره ان حصار عكا دام ستة أشهر وان أول من أحرز فخر الاستيلاء على مدينة عكا والدخول فيها من الجيش المصرى المحاصر لها هو الألاى الثانى من المشاة وقد سبقت لهذا الألاى نفسه ما ثرة أخرى فى الحرب الحجازية كان جزاؤها ان أنعم محمد على باشا على افراده عندما رجعوا الى مصر فى شهر اكتوبر سنة ١٨٢٦ م بوسام فضى وأمر أن يقيم فى القاهرة ليكون حامية لها وميز جنوده بلباس خاص يوضع على رؤوسهم وهو منديل حريرى مخطط بخطوط خضراء وصفراء ترخى اطرافه على اكتافهم (كوفية) لان هذا كان غطاء رأس الشعب الذى قهره هذا الألاى (الوهابيين) وأنعم على قائده أمير الألاى محمد بك بمبلغ من المال مكافأة له ورقى وكيله القائمقام عابدين بك الى رتبة أميرالاى وعينه قائدا للألاى الثانى عشر

وحيث ان الجيش المصرى الحالى سيكون له فى هذا الاحتفال الدور المهم فى تمثيل هذه الذكرى فياحبذا لو أمكن ان تلبس جنوده الملابس التى كانت تلبسها أسلافهم جنود الجيش المصرى فى تلك الايام لتكون لهذه الذكرى بعض المشخصات المرئية التى تجليها بصورتها التاريخية لاعين الناظرين

عمر طوسون

ميدان ابراهيم باشا

بمناسبة الاحتفال الرسمى الكبير الذى قررت الحكومة اقامته اليوم احياء لذكرى فتح الجيوش المصريه لمدينة عكا وعلى رأسها البطل المغوار ابراهيم باشا . اكرر القول ان تطلق الحكومة على (ميدان الاوبرا) اسم (ميدان ابراهيم باشا) تخليدا لتلك الذكرى المجيدة وفخرا لجيوشنا المصرية وقائدها الفاتح العظيم . ولى كبير الامل فى أن ينال اقتراحى المتكرر هذا عناية من اولى الامر وسرعة فى التنفيذ لان فى تخليد اسم ابراهيم باشا لمفخرة لمصر وجيوشها التى سجل لها التاريخ العالمى التفوق فى الحروب والفتوحات

فؤاد الشغبى

ابراهيم باشا

على طوابع البريد

لى اقتراح بمناسبة ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا جد مليكنا الاعظم حفظه الله . هو أن يعمل طابع بريد يتشرف بصورة تمثال هذا القائد ويوزع لمدة ثلاثة أيام فقط بعد انتهاء الاحتفال بايام ، أى بعد انجاز الطبع ، ويكون ذلك أثراً خالداً لهذه الذكرى المباركة النادرة . ويكون للطابع بعد ذلك مكانته لدى الهواة فى جميع أنحاء العالم .

محمد عبد الرؤوف
الخطاط بسكرتارية محكمة
النقض والابرام

فى ذكرى فتح عكا

الاهرام وذكرى ابراهيم

قصيدة لحضرة الأديب صاحب الأمضاء

عصر بابراهيم عز وطالا	باهى العصور مهابة وجلالا
شادت له «الاهرام» ذكرا خالدا	يفنى الزمان ولايزول زوالا
صفحاتها نشرت لنا آثاره	فى شامنا وما ثرا وفعالا
حييت ياداود كم أطلقت ما	بين الطروس يراعك السيالا
فأعدت للشرق الأغر فخاره	فسمت معالمه سنى وكمالا
جددت ذكرى الفاتح البطل الذى	فى ساحة الهيجاء صال وجالا
يافاتحاً عكا بصارم عزمة	علوية تفرى بها الاهوالا
شيدت للعدل المنيف صروحه	لما شهدت صروحه أطلالا
فاضت بها نعماؤك الحلى كما	ملأ السهول نداك والاجبالا
الحلم فيك سجية وإذا طغى	سيل العداة فلا تهاب نزالا

الغرب يفخر بالرجال أما درى كم أنجب الشرق العظيم رجالا
شادوا له صرحاً يظل مجدداً في الشرق ماامتد الزمان وطالا
هذا سليل المجد ابراهيم قد ابقى له الآساد والاشبالا
يهدى لابراهيم اكليلا غدا رمزا لمجند خالد ومثالا
يحيي فؤاد فيه ذكر فوارس خاضوا الوغى واستبسلوا استبسالا
فلتحيي مصر عزيزة بفؤادها وليحيي شعب يكرم الابطالا

الاسكندرية «فريد حداد»

ذكرى الفاتح العظيم

قدم حضرة الناظم هذه الأبيات إلى العتبات الملكية مكتوبة بخط جميل وهي :

يافاتح الأقطار منك بجرأة وبحكمة عزت على الأبطال
قم واستمع آى الخلود جملة من ألسن التاريخ والأجيال
ما زلت في صدر الزمان ولم تزل رغم المنية في المقام العالى
أنجبت اسماعيل من أحيا الحمى بجليل اصلاح وحسن فعال
وكفى باسماعيل ان مليكنا السامى ابنه ، وفؤاد مصر الغالى
يامصر تيهى إذ غدوت بعصره تزهين بالاسعاد والاجلال
هذا فؤادك فانعمى فى ظله وتمتعى بعظائم الاعمال

نجيب هواويني

الجيش وذكرى ابراهيم

سر للحقائق ان تسر بحسام ودع الخيال لهذه الاقلام
واذا الصوارم واليراع تناظرا فرقت بين الحق والأوهام
من للغزاة اذا رموك بصاخب لجب ، ومن للمبصر المتعامى
الكتب أضعف ماتكون وانما تقوى اذا حملت على الصمصام
واذا امرؤ هز الحسام فقد صحا من نومه بمعبر الاحلام

أى الشعوب حمى حماه بكتبه ... أو نال بالأقلام أى مرام
أقسمت ماحفظ البلاد لأهلها ... شىء كجيش للبلاد لهام
بالجيش تمتنع البلاد وهل ترى ... من غاية عزت بلا ضرغام
لو أن للآرام نابا أصبحت ... وكناسها أجم من الآجام
قووا لنا جيش البلاد وأمسكوا ... عنا الكلام ، فلات حين كلام
قووا لنا جيش البلاد فانه ... سر الحياة يدب فى الاجسام

محمد الاسمر

مجد السيف وفضل القلم

عز الوطن فى يمين سيد الوطن

انما المجد ما بنى والد الصد ... ق واحيا فعاله المولود

لم تبخل مصر يوما أن تطيع حاكمها وحاكم الجد فيها يلقى منها الجد له ، تمده وتنصره وتواليه وتواتبه حتى لو خاض البحار لخاضتها أو رام السماك لبلغتها عن همة وخلوص نية . وجهد واستنفاد جهد ، وصدق ، وقلب صدق ، وعمل صدق

قال عمر بن الخطاب للحطيئة يوماً كيف كنتم فى حربكم ؟ قال كنا ألف فارس حازم . قال وكيف يكون ذلك ؟ قال كان قيس بن زهير فينا وكان حازماً فكنا لانعصيه ، وكان فارسنا عنترة فكنا نحمل إذا حمل ونحجم إذا احجم . وكان فينا الربيع بن زياد وكان ذا رأى وكنا نستشيره ولا نخالفه ، وكان فينا عروة بن الورد فكنا نأتم بشعره ، فكنا كما وصفت لك . قال عمر صدقت اه

هكذا . ما أقرأ هـذا الخبر حتى أتصور مصر إذا بعث الله لها ملكا صالحا وقائدا حكيما وذادة مخلصين — ومصر لها من دون الأمم تاريخها إنما هو تاريخ ملوك . من عظم منهم عظمت به ومن خف منهم خفت به . وهـذه الرقعة من وسط الدنيا القديمة دامت دار مصر . إن عزت حوطت مـداها على طول الأفق أو هانت أرز مجدها اليها حتى مايكاد يهدأ فى حاضرتها وربما طار حينا من تاريخها

وهذا السر فى مصر قد وقف عليه العباقرة الأحرار من ملوكها فاستعملوه لها ولهم وبسطوا ملكهم به مؤطر النواحى بجدهم الباقية آثاره على هذا المدى . وغاب هذا السر عن كل خوان مأفون ، فقبر به تارة أو قبر به أبناء الوادى ، والتاريخ شاهد مزكى على صدق هذه النظرية فى أطواره كلها وأطوار مصر معه . فلما بعث الله محمد على ملكا على الوادى كان من صفاء الروح وشحذ الهمة وقوة العبقرية بحيث عرف السر واستخرجه فانتفع به ونفع أصحابه فعادت مصر فى أيامه أمبراطورية واسعة الأطراف من منابع النيل فى الجوب إلى منابع الفرات فى الشمال وقد ضم بيديه طرفى آسيا وأفريقيا فى مضيق عدن فغدا البحر الأحمر بحيرة مصرية ضفتها من آسيا جزيرة العرب إلى بحر فارس ومن أفريقيا شطرها الشمالى الشرقى ملك بناه رأى هذا الماجد وسيف ابنه ذاك العظيم ابراهيم الذى يهز مصر اليوم من تمثاله النحاسى هزة بعثتها فيها منذ مائة سنة إحدى انتصاراته اللاتى لو عدت مع أيام السنة لكفتها واللاتى يبدأ الحفل بها اليوم فاذا بدأ كرت على مصر ذكريات متلاحقة فما أن تفيق من نصر إلا إلى نصر ويوشك أن تعود مصر سيرتها الأولى وقد جاءها عبقرى جديد يجدد لها حياتها جدة العصامى العظامى والمجد عصامى عظامى ، فهو إذ يقف اليوم أمام تمثال الفاتح ابراهيم باشا فليست كوقفة الذين يقف التاريخ أمامهم هم . بل وقفة الذين يقف التاريخ له كما وقف من قبله أمام آبائه وأجداده

إنما المجد ما بنى والد الصد ق وأحيا فعاله المولود

٭ ٭ ٭

أنا مصرى من الذين تهزهم شعائر الوطن ، وددت اليوم لو حشد المصريون ليروا ساعات الحفل فى ميدان ابراهيم وقد وقف حفيده تحت قاعدة التمثال ومن حوله عصبته وأهل دولته وقادة جيشه والصفوة من جنوده ومن ورائهم أفراد الرعيـة حافين بالعرش وحملته زخرت بهم الشوارع وملئت بهم النوافذ ورئيس الحكومة بين يدى مولاه يشدو بمآثر أسرته ، والعسكر يمتطون الجياد شاهرى السيوف شاكى السلاح كاملى العدة أبواقهم تضرب نوبة المساء مثل بوق الأسلاف فى أسوار عكا واقتحام حصونها . منظر عجيب كفيل بالروح والاحساس وبمثله تغذى أرواح الشعوب والامم ومنظر يهز المصرى من عطفيه عطف النصر وعطف الفخر بالنصر إذ كانت فعلات أجدادهم بكرا لم يطمثها من رامها قبله فان سيد الحرب

فى الغرب رام أن يفتح عكا فعزت عليه عكا فتركها على مضض ، أما سيد الحرب فى الشرق فانه رام ونال المرام . وينتشر فى العين منظر يغشى جند الميدان بطابع رأيته على قيد خطوات فى الاوبرا أمام الميدان إذ تمثل فيها رواية عائدة المصرية فيرى الراءون جنود أسلافهم وقد جاءوا بالنهائب والسبايا ، ولا فخر ، فالولد سر أبيه .

* * *

وتصفحت الوجوه لأرى الكاتب الذى نشر (ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا) وأرى فيه روح النصر للقلم وقد خدم السيف باحياء رب السيف فاذا بأحياء السلف يستجيبون للكاتب قياماً على فضل القلم . تنظرت الوجوه لأرى داود بركات وهو أولى من حقه أن يرى حفل اليوم فلم أجده وقيل إنه فى الفراش كان مدد قوته فى تذكير أمته نفد به الوجد عن طاقة الاستعداد ، فهو يستجم لعود المداد وهكذا رجال الضحية من حملة السيف وحملة القلم إنما يعيشون بالذكرى أكثر مما يعيشون بالأعصاب .

* * *

وكان مما رأيت عمائم مجنحة فوق طيالس منشرة ذكرتنى برواية الكاتب عن سحر محمد على إذ نفث فى القوم حتى هب شيوخ القوم يعتقلون السمهرى بدل العكاز ويستلئمون بالمغفر عن العمامة ، ويدرعون الزرد من دون الفراريج ، فعدلنا أسماء من شيوخ الأزهر وأبناء شيوخه تطوعوا فى جده وطوعوا غيرهم تحتهم فرقاهم الباشا فى صفوف العسكرية إلى رتب القائمقام والأميرالاى واللواء وقرأنا حديثه عن الشيوخ المتأخرين كما نقرأ حديث السلف الصالح عن شيوخ الصحابة وجلة أهل العلم وكانوا يعلمون ويعملون ، ويعظون ويجاهدون ويسلكون دروب الحياة كلها مقتدين بالسيد الأعظم الذى قال وقوله الحق (وجعل رزقى فى ظلال رمحى)

* * *

وخاتمة المقال بتكرير آية المجد ارتداء ابراهيم ببنى مصر وهو عائد من حروب الشام وقد جعل جيشه ثلاث شعب فنجت الثلاث الشعب على عيون الأعداء وسهر الكمباء مثلما ارتد خالد بن الوليد بالمسلمين فى غزوة مؤتة من مكان قريب

مما ارتد ابراهيم فاستحق بحركته من رسول الله صلى الله عليه وسلم لقبه الخالد فى الاسلام (خالد سيف الله) وكذلك شهد للعظيم ابراهيم كل عظيم فى زمنه بحركته

* * *

لم يطو لمصر علم ولا هزم جيش مصر — ولها قائد — فى موقعة . ولم يترك ابراهيم بلاد الشام التى فتحها بسيف المصريين أمام دولة واحدة ولا دولتين ولا ثلاث دول ، ولكن تجمع عليه أولو القوة من بنى الدنيا جميعاً . انجلترا ، وبروسيا والروسيا ، والنمسا ، وإيطاليا ، وتركيا . وثوار الشام . فخلص من هذه الجهات الست خلوص العزة حين قضت عليه السياسة أن يترك ما بيديه . فلم يتركه القاء المضيم ولكن تركه فى عزة المستطيع ولين القوى — فاليوم يستطيع كل مصرى أن يرى عزته عن كثب ، وأن يرى كيف ينال العز بالشرف ، وهو إذ يتمثل مصر العز ممتلىء الحياة بفيض العز يقول مع رئيس الحكومة إنه لايبغى حرباً وإنما يطلب حياة تليق بصاحب هذا التاريخ .

ولله در الشماخ . لو أنه يرى اليوم « فؤاداً » فى خشده تحت تمثال جده وقد استظل بيده الممدودة تقول (إلى الأمام) اذن لأنشده بيته الخالد

إذا ما راية رفعت لمجد   تلقاها فؤاد باليمين

مصرايم

ملاحظة — كاتب هذا المقال هو صاحب الفضيلة الشيخ محمد سليمان نائب محكمة مصر الشرعية .

الاحتفال بذكرى فتح عكا

جـــلالة الملك عنـــد تمثال البطل الفاتح

خطاب رئيس الوزارة — مظاهرات الطلبة والعمال والأهالى للملك

لأول مرة فى تاريخ مصر الحديثة تحتفل بذكرى مجيدة منذ ذرياتها العسكرية المجيدة ذكرى تسر ونفخر بأن (الاهرام) كانت أول من عمل على احيائها واحياء اسم بطلها العظيم فى سلسلة المقالات التى كتبها رئيس تحرير هذه الجريدة .

والتى أثارت فى الناس تقدير ذلك الماضى القريب المجيد وحركت الرغبة فى احيائه فى احتفال وطنى كبير

وقد اشترك فى الاحتفال الجيش المصرى ممثلا فى جميع القوات المرابطة بالقاهرة وهى أربع أورط من المشاة وأورطتان من الفرسان وبطاريتان من المدفعية بأسلحتهما . وقد اصطفت جميعها حول ميدان الاوبرا الذى اختير لإقامة الاحتفال عند تمثال البطل ابراهيم . واصطف معها تلاميذ المدرسة الحربية ومدرسة البوليس والإدارة

وتجمع وراءها طلاب المدارس والأزهر الشريف وهيئات العمال المختلفة وعشرات الألوف من الأهالى الذين تجمعوا على الافاريز وغصت الشرفات فى الدور المحيطة بالميدان بالناس

وأقام قسم الأشغال بوزارة الحربية سرادقا جميلا على شكل كشك مرتفع إلى يمين التمثال وفرشت الأرض أمام الكشك وأمام التمثال بالسجاجيد

واصطفت قوات من البوليس عند منافذ الشوارع المخصصة للمرور وحول الجيش لحفظ النظام وعدم السماح لأحد من غير حاملى تذاكر الدعوة بالاقتراب من محل الاحتفال

وكان يشرف على نظام البوليس بيكر بك حكمدار البوليس بالنيابة ويشرف على النظام عامة صاحب العزة احمد كامل بك مدير الامن العام وبدوى خليفة بك وكيله ، ويشرف على نظام الجيش ضباطه وكانوا جميعا بملابس الميدان

ومنذ الساعة الرابعة أخذ المدعوون يفدون وبلغوا عدة مئات ووقفوا ينتظرون تشريف جلالة الملك وفى مقدمتهم الامير ابراهيم حليم والامير محمد على حسن والنبلاء اسماعيل داود وسعيد وطوسون وعمر وابراهيم ومنصور داود وسليمان داود . ورئيس الوزارة ورئيسا مجلسى الشيوخ والنواب وعدلى يكن باشا والوزراء جميعا . ومن رجال القصر الملكى سعيد ذو الفقار باشا كبير الامناء ومحمد زكى الابراشى باشا ناظر الخاصة ومراد محسن باشا رئيس الديوان الملكى بالنيابة ومحمود شوقى باشا السكرتير الخاص لجلالة الملك واحمد محمد حسنين بك الأمين الأول ومحمد حسين بك الأمين الثانى وفيروتشى بك باشمهندس السرايات الملكية وعبد الوهاب طلعت بك مدير الادارة العربية وغيرهم من الامناء والتشريفاتية والياوران

وفضيلة الاستاذ الاكبر شيخ الجامع الازهر ونيافة الانبا يوانس بطريرك الكرازة المرقسية وسيادة الحاخامباشي مفتي الديار المصرية والاستاذ السيد محمد الغنيمي التفتازاني وكثيرون من كبار العلماء ورجال الاديان

ورئيس محكمة النقض ورئيس محكمة الاستئناف الاهلية وجميع وكلاء الوزارات ومحمد مفتي الجزايرلي بك وزير مصر المفوض بطهران والمحافظون واكثر مديري المديريات ومستشارو محاكم النقض والاستئناف الاهلية والمستشارون الملكيون وكبار رجال القضاء الشرعي والاستاذ محمود منصور بك رئيس نيابة مصر واساتذة الجامعة المصرية وعلى رأسهم مدير الجامعة بالنيابة وعميدو الكليات

وقواد الجيش المصري وكبار موظفي وزارة الحربية ومدير المدرسة الحربية ومدير مدرسة البوليس وأساتذة المدرستين

وعدد كبير من الوجوه والاعيان وفي مقدمتهم مدحت يكن باشا وعبد الخالق مدكور باشا وسمعان صيدناوي بك ويوسف موصيري بك وحامد العلايلي بك ومحمود ثابت بك وعبد الحميد الشواربي بك والاستاذ احمد رشدي المحامي وحسين عاصم بك وغيرهم كثيرون لم تسع الذاكرة اسماءهم

وعد الساعة الخامسة تماما وصلت السيارات الملكية قادمة من سراى القبة العامرة وكانت الجماهير تقدر بعشرات الالوف على طول الطريق وصفقت هاتفة بحياة جلالة الملك وبلغت الحماسة أشدها في ميدان الاوبرا لكثرة من تجمعوا حوله

ولما نزل جلالة الملك من السيارة قدمت قوات الجيش التحية العسكرية وصدحت الموسيقى بالسلام الملكي وتفقد جلالته قره قول الشرف الذى وقف تجاه الكشك الملكي الذى رفع عليه علم جلالة اللك ولما انتهى جلالته من عرض القره قول صعد إلى الكشك محييا المنتظرين رافعا يده مبتسما ابتسامة رقيقة وصعد خلف جلالته الأمراء والوزراء ورئيسا الشيوخ والنواب وعدلى يكن باشا ورؤساء الأديان الثلاثة ورئيسا محكمتي النقض والاستئناف الأهلية ورئيس المحكمة العليا الشرعية ونقيب الأشراف وسماحة السيد عبدالحميد البكرى فتفضل جلالته وصافحهم جميعا ثم نزل ووقف عند قاعدة تمثال البطل ابراهيم باشا وأحاط بجلالته الأمراء والنبلاء ووقف الى يمينه الوزراء والكبراء وأمامه بقية المدعوين ووقف بين يديه صاحب الدولة صدقي باشا رئيس الوزراء فالقى الكلمة الآتية :

خطبة رئيس مجلس الوزراء

مولاى صاحب الجلالة

تحرص الامم الراقية والشعوب الناهضة على احياء ذكرى مفاخرها ومآثرها والاشادة بها على مر السنين لأنها بذلك تجمع بين تمجيد المحسنين وتسجيل الاعتراف بالجميل لرجالها النابهين ، وبين تنشيط النفوس وانعاشها وبث روح الثقة والتجديد فيها . ونشر ألوية الغبطة والفخار فى كل مكان

لهذه الاعتبارات الحيوية الجليلة ، ننتهز هذه الفرصة السعيدة يامولاى : فرصة مرور مائة عام على فتح عكا على يد جدكم العظيم ، المغفور له ابراهيم باشا . لنحتفل بهذه الذكرى المجيدة فى ظلال تمثاله ، وبين يديكم الكريمتين

ففى مثل هذه الساعة ، وفى مثل هذا اليوم من عام ١٨٣٢ ، استولى البطل ابراهيم على حصون عزت على غيره من الغزاة الفاتحين . وسجل لمصر بفعاله وبسالة جنده نصرا عظيما فى صفحة الخلود

ونحن بتمجيدنا هذا اليوم ، إنما نمجد اسرتكم وجيشكم ، ولايحدونا فى هذا التمجيد إلا عاطفتان اثنتان : عاطفة الاخلاص والولاء من ناحية ، وعاطفة الاعجاب والفخار من ناحيه أخرى

فاما اسرتكم الكريمة ، فان مصر بأسرها لتذكر بالحمد والثناء أياديها البيضاء عليها ، فهى التى وطدت فى البلاد دعائم المدنية ، وشيدت فوق الدعائم خير المنشآت

وأما جيشكم الماثل أمام جلالتكم ، فهو — يامولاى — سليل تلك الجيوش الفاتحة ، من حيث روحها واستعدادها ومن حيث نظامها وولائها للوطن العزيز ، وعرشكم المفدى

نعلن ذلك فى غبطة وفخار ، ونحن أبعد ما نكون عن الاشادة بالحرب وما اليها ، وحسبنا أن العالم باسره يعرف ميلنا للسلام ، إذ السلام شعاركم وشعار أمتكم والناس على دين ملوكهم

أدامكم الله يامولاى ذخر البلاد وحصنها المنيع ، وإن جيشكم الباسل لينتهز هذه الفرصة ليقدم فروض الولاء والاجلال لقائده الاعلى ، وإن شعبكم المجد

لينتهز هذه الفرصة كذلك ليظهر فيها حبه والتفافه حول مليكه العظيم »

ولما انتهت الخطبة صفق الحاضرون لها طويلا ودوى بورى الجيش ثم نادى الضباط : « تحية عسكرية » فوضع الجنود أسلحتهم الوضع العسكرى الذى يؤدى معنى التحية . وأدى الضباط « سلام الملك » فصدحت الموسيقى بالسلام الملكى . وهتفت قوات الجيش كلها « يعيش فؤاد ملك مصر » ثلاثا ثم صدحت الموسيقى بالسلام الملكى . وبعد ذلك اتجه جلالته نحو السيارة مودعاً كبار المحيطين به وصافح دولة صدقى باشا معربا عن سروره وإعجابه وسار فى عاصفة من الهتاف بحياته اشتركت فيها الجماهير العديدة

وبعد ذلك تقدم حضرة صاحب السعادة على جمال الدين باشا وزير الحربية ووضع عند قاعدة التمثال إكليلا جميلا من زهور القرنفل البيضاء على شكل دائرتين فى أرضيةمن أوراق الزهر الخضراء . وفى وسط الاكليل شريط طرز عليه بواسطة مصنع الكسوة الشريفة العبارة التالية بخط فارسى جميل

« إلى البطل الفاتح العظيم ابراهيم باشا من الجيش المصرى تمجيدا للذكرى المئوية لفتح ـ عكا ٢٧ مايو سنة ١٩٣٢ »

وبعد ذلك قدمت مواكب مظاهرات كبرى يقدر من اشتركوا فيها بعدة ألوف ومع كل فريق علمه وقد تيسر لنا أن نتبين منها أعلام نقابة الموظفين ورابطة العمال المتحدة واتحاد نقابات العمال العام الذى يرأسه حضرة الاستاذ ادجار جلاد والأزهر الشريف ومدارس عديدة وكانت جميعها تهتف بحياة جلالة الملك وبحياة الوزارة

وظل الزحام فى الميدان إلى مابعد الاحتفال بأكثر من ساعتين

وزينت قاعدة التمثال بورق الاشجار الاخضر والازهار زينة بسيطة جميلة وزين الميدان بالاعلام وزين اصحاب الدور والمتاجر المحيطة به أماكنهم زينات بديعة وفى المساء بدا الميدان فى حلة باهرة من الانوار المتألقة المتلالئة وصدحت موسيقى الجيش إلى ساعة متأخرة من الليل

☆ ☆ ☆

ولم يدع الوزراء المفوضون ولا أحد من الاجانب لان الاحتفال مصرى وطنى بحت بذكرى مصرية وهذه هى العادة المتبعة فى الاحتفال بذكريات الحروب والفتوحات

ذكرى ابراهيم باشا

ما اقترحه بعض أعضاء البلدية

منذ أربع سنوات

الاسكندرية فى ٢٧ مايو — لمراسل الاهرام الخاص — لمناسبة الاحتفال الذى يقام اليوم فى القاهرة لذكرى ابراهيم باشا ومرور مئة عام على فتح عكا . ذكرنا أحد حضرات نواب الاسكندرية فى البلدية باقتراح قدمه إلى الهيئة البلدية فى سنة ١٩٢٨ اثنان من اعضائها فى تلك السنة — هما الاستاذ سعيد طلبمات بك الذى كان رئيسا للمأمورية ووكيلا للقومسيون والمسيو فيلكس جرين يراد منه اقامة « قوس نصر » فى ميدان قصر رأس التين فى هذه المدينة تذكارا للبطل الفاتح ابراهيم باشا وأن ينقش على هذا الاثر التاريخى الثابت خلاصة تاريخ ذلك البطل وفتوحاته ومآثره البارزة . وكانت المأمورية قد درست هذه المسألة ووافقت على الاقتراح مبدئيا ووضعت لقوس النصر المقترح اقامتها رسوم مختلفة كان أخصها رسم يماثل أثرا من هذا الطراز مقاما فى باريس لذكرى بعض ابطال فرنسا

ولكن الحالة المالية لم تكن إذ ذاك تسمح بتنفيذ هذا المشروع فأرجىء إلى الوقت المناسب وطوى الاقتراح حتى الآن

وفى نية أحد الأعضاء كما فهمنا أن يجدد ذكرى هذا المقترح التاريخى لمناسبة الاحتفال بذكرى ابراهيم باشا وفتح عكا منذ مئة عام ومناسبة ما نشرته الأهرام من المقالات القيمة عن سيرة ابراهيم باشا التى ذكرت الحكومة والأمة بفتوحاته المجيدة وأدت إلى إقامة هذا الاحتفال

على أن الحالة المالية التى كانت تحول فى سنة ١٩٢٨ دون إقامة الأثر المقترح تحولت فى هاتين السنتين إلى أزمة شديدة وربما كان ذلك مما يوجب ارجاء هذا المشروع إلى وقت آخر . على أنه جدير بالتنفيذ .

ولهذه المناسبة نذكر أن الاسكندريين يعجبون لتسمية الميدان الذى فيه تمثال ابراهيم باشا فى القاهرة « ميدان الأوبرا » مع وجود ذلك الأثر الخطير فيه . وكان يجب أن يسمى « ميدان ابراهيم باشا » كما سمى الميدان الذى فيه تمثال محمد على باشا فى الاسكندرية ميدان محمد على من زمن طويل

نادرة لطيفة

عن ابراهيم باشا فى الشام

احتفلت البلاد أمس بذكرى مرور مائة عام لوفاة المغفور له ابراهيم باشا الرجل الباسل الفاتح الشهير ونعم مافعلت تكريماً لرجالها العظام الذين يستحقون كل إكرام قدوة بسائر البلاد المتمدنة وبهذه المناسبة أذكر للقراء حادثة طريفة تبين سطوة هذا الرجل العظيم فى البلدان التى فتحها وهيبته وكرمه .

روى أحد أصدقائى نقلا عن والده من أعيان دمشق وثقاتها الاسرائيليين أنه لما فتح ابراهيم باشا بلاد الشام كان يوماً راكباً جواده متنكراً فى ضواحى الشام فقابل رجلا سائراً على الأقدام واسمه « يوسف الرايق » هذا الرجل كان من الباعة الذين يسرحون بأقمشة على أكتافهم يطوفون القرى المجاورة يبيعونها للفلاحين أو يستبدلونها بدجاج أو بيض أو بما أشبه ذلك وكان يومئذ ذاهباً إلى قرية جوبر وهى تبعد عن الشام نحو نصف ساعة ، ولما مر به ابراهيم باشا نزل عن جواده وسأله عن مهمته أو سبيله ثم قال له ألا تخاف يارجل أن تذهب وحدك فى البرية ألا تخشى من اللصوص وقطاع الطريق وأنت بلا سلاح فأجابه على الفور ولم يكن يعرف من الذى كان يخاطبه « لا ياافندى كيف أخاف وابوخليل موجود فى البلاد » وافترقا كل فى سبيله . وبعد نصف ساعة اعترض فارس آخر يوسف فى الطريق وأوقفه عن السير فخاف هذا وهو يظنه من قطاع الطريق ولكنه بالعكس كان رسول خير وبيده عشرة جنيهات هدية له من « ابو خليل »

عاد يوسف مسرورا إلى منزله بغنيمته عوضا عن الدجاج والبيض وهو يثنى على كرم المهدى ويردد قوله « الله يطول عمرك يا أبو خليل »

الدكتور هلال فارحى

اذا اعدت الامة والحكومة

لمكافأة محي ذكرى ابراهيم باشا

بيننا رجل هو من أفاضل كتابنا ومن أماثل حملة القلم فينا ، ومن مفاخر صحافيينا ، له فى المشاكل السياسية رأى ناضج وفى المعضلات الوطنية قول صادق لم تصب الأمة بأزمة أياً كان خطرها إلا وتراه قد طلع على الناس بالقول الصائب والرأى الفاصل والبرهان المنير . تسهر عيناه فى البحث والتنقيب وانتزاع الحجج والبرهانات تأييداً لحق الأمة فيما يعرض من أمر وما يتأح من شأن بينما غيره فى سكرة من متع الحياة . ينظر فى الآفاق ويرقب الاحداث حتى إذا لاح له نجم مشرق يتلألأ بذكرى يوم من أيام الأمة المشهودة ، بادر إلى تخليده وتذكير الناس بوجوب تمجيده فتهتز له القلوب وتصغى إليه الأسماع وتميل نحوه الأعناق فيعود كل امرىء إلى نفسه يرميها بالقصور ويتهمها بالاهمال ثم يلتفت إلى ذلك الرجل العامل المجد . فماذا يكون نصيبه من الالتفات ؟ لم نر له من حظ ولا نصيب على ما قدم لهذه الأمة إلا ابتسامة الاستحسان أونظارة الاعجاب ، ثم لا يلبث أن يتلاشى ذلك الاستحسان وينسى ذلك الاعجاب بين الضحى والعشى ، وذلكم الرجل هو الكاتب الباحث المنقب الكبير شيخ الصحافة وإمام الكتاب : الأستاذ داود بركات ، وهذا هو حظه من هذه الأمة وليس هو بالحظ الذى يدل على الكمال والنضوج أو يشير إلى حسن القياس والتقدير . لأن الأمة الكاملة الناضجة لا يفوتها أن تقدر العاملين المخلصين ولا تنسيها الاحداث والغير مكافأة المجدين الصالحين .

لنترك مواقف داود البارعة فى صفوف العاملين طوال زمن الاحتلال ولنطو الآن صفحة مكافحته خصوم البلاد ، فجريدة الأهرام حافلة من آثاره الخالدة بكل شريف وكريم . ولنلق نظرة سريعة على مشاهده الباهرة منذ قيام هذه الحركة الأخيرة ، لنتبين منها آثار هذه النفس المتوثبة وهذه الروح الكبيرة وهذا العقل الناضج وهذا القلب النابض بالغيرة والاخلاص وهذا القلم المعجز الفياض ، وما لتلك الآثار من الفضل الكبير على هذه الأمة الغافلة

قامت الحركة الأخيرة منذ اثنتى عشر سنة وحضر إلى مصر مستر شيرول مستطلعا طلع الأمر فيها محاولا تصوير الحالة فى الصورة التى يراها فى مصلحة أمته فصمد له داود وأخذ يناقشه مناقشة العالم بأسرار السياسة البريطانية واتجاهاتها وأخذ يناظره مناظرة الكاتب الوطنى الغيور، ومازال ينجد معه ويهتم ويقف به على أسباب الداء ويرشده إلى حقيقة الدواء بالحجة القاطعة والبرهان المبين، وهل من دواء إلا أن يترك الانجليز البلاد لأهلها وأن تستقل بنفسها لنفسها ؟! هكذا كان اتجاه داود ومطلبه ؟ فماذا صنعت له الأمة وبماذا كافأته !؟

قامت مسألة السودان وجرى البحث فى حقوق مصر فيه، وكبرت دعاوى الانجليز بشأنه. وأخذ الكتاب فى المناقشة والمباحثة وتناولوا الأمر فيما بينهم جذبا ودفعاً وخفضاً ورفعاً. وبيناهم فى أمرمن شأنه مريج طلع داود على الأمة بكتابه الفذ القيم «السودان المصرى والانجليزى» فقطع قول كل خطيب وأنار السبيل وعبد الطريق وأوضح المسالك وبين مالمصر فى السودان من الحقوق الثابتة التى أيدتها الدماء المهراقة فى صحاريه والأموال السائلة فى بواديه. وقد عرف كل مصرى أن السودان له دون غيره من سائر خلق الله، وذلك بفضل داود وبعقل داود وبقلم داود، فماذا صنعت الأمة لداود وبماذا كافأته !؟

تحدث الناس فى شأن الحركة العرابية وكتب الكتاب فيها، وذهبوا فى أسبابها ونتائجها مذاهب شتى، وتناولها الباحثون بمختلف الفكر والآراء فطلع عليهم داود بمقالاته المحققة ورسائله الممحصة فجلا بهما غواشى الظلم المتراكبة. وأظهر الأسرار وبين المعالم وأعطى من كل ناحية نواحيها حقها من البيان والايضاح، وحقق الأسباب وصحح المقدمات وخرج بالنتيجة التى لا ترد وبالغاية التى لاتدفع فماذا صنعت الأمة لداود وبماذا كافأته ؟!

درجت الأمة ومضت السنون والناس لا يعرفون من أمر ابراهيم باشا شيئا وقد أنكروه حتى أنهم كانوا يسمون تمثاله بالحصان ويعتدون القرب منه سبة عار ولكن داود لايحب أن تجهل هذه الأمة تاريخها إلى هذا الحد ولا يستريح إلى أن تستهين بأبطالها إلى هذا المقدار، فاستثار كوامن نفسه ونبه المختزن من حافظته وأرسل نظره فى بطون الدفائن من الاوراق والمستندات والدفاتر ثم أرسل قلمه البليغ يتوغل فى شعاب البحث والدرس والاستقراء فجلا للأمة بل للأمم كافة

حقيقة البطل المصرى العظيم ابراهيم باشا ، وعرض عليهم مواقفه الهائلة فى الذياد عن كيان الأمة ، ومشاهده العظيمة فى العمل على توسيع رقعتها وامتداد سلطانها ، كما قرأ على الناس صفحة خالدة من انصع صفحات الجيش المصرى المجيد . فنبه الأمة إلى تمجيد هذا البطل الكريم وإلى الاعتزاز به والافتخار بأعماله . كما أيقظ الحكومة من سباتها فقامت تحتفل بذكراه عن إحدى وقائعه الكبرى وفتوحاته الجليلة ، وكان يوم ٢٧ مايو من مفاخر الايام فى هذه الأمة . فماذا صنعت الامة لداود وبماذا كافأته ؟! وماذا صنعت له الحكومة وبماذا كافأته ؟!

أرى أنه يجب على الامة إزاء هذه الاعمال العظيمة التى قام بها داود بركات وهذه الخدمات الكبرى التى قدمها اليها حسبة لوجه الله وقياماً بحقوق هذا الوطن العزيز أن تظهر له شعورها الفياض فتقيم له حفلة تكريم وتقدم له فيها تذكارا ثمينا يتفق مع عزتها وكرامتها لتثبت أنها أمة حية صالحة للبقاء وأنها تقدر العاملين وتعرف أقدار المخلصين .

وأما الحكومة فمن واجبها أولا أن تمنح هذا الكاتب العظيم لقباً من ألقاب الشرف التى يحملها السى والدنى ، ثانيا أن تقوم الجامعة بمنحه لقب الدكتوراه الفخرى فهو من أحق الناس بحمله وأجدرهم بالتلقب به . أليس قد قدم للأمة سفرا ضخما عن ابراهيم باشا وفتوحاته تندق الأعناق وتنحطم الاصلاب دون كتابة مثله ؟ ثالثا تدفع اليه الحكومة مقدارا مرضيا من المال مكافأة له عما عانى فى هذا البحث وما بذل فى سبيله من النفس والنفيس ، رابعاً تأمر بطبع هذا التاريخ ونشره بين الناس وتقريره فى مدارسها الكبرى وفى مكاتب المدارس على الاطلاق على نفقتها بطريق التراضى معه على ذلك .

هذه كلمة صراحة وإخلاص أنشرها خدمة لسمعة أمتى وقياماً بحق هذا الكاتب الجليل الذى طوق أعناقنا جميعاً بمننه التى لا تنسى ، فهل من سميع !؟

حسن السندوبى

بعض مراجع الكتاب

الوقائع المصرية
مذكرات كلوت بك
مذكرات الدكتور غالياردو
الوثائق الرسمية التى طبعتها الجمعية الجغرافية
تاريخ مشاقه
مذكرات نوفل
تاريخ الاعيان لطنوس الشدياق
تاريخ جوين
مذكرات دوين
تقويم النيل لامين سامى باشا
الجبرتى وميخائيل شاروبيم
البحر الزاخر لمحمود فهمى باشا
الرسائل الشرقية
سليمان بك أبو عز الدين
المسألة المصرية الفرنسية
مذكرات سليمان باشا الفرنساوى
وذلك ماعدا الوثائق الخطية التى وصلت إلى المؤلف ومما ترجم له من الدفترخانة ومؤلفات بريه ولوران وبوجولات وموريز